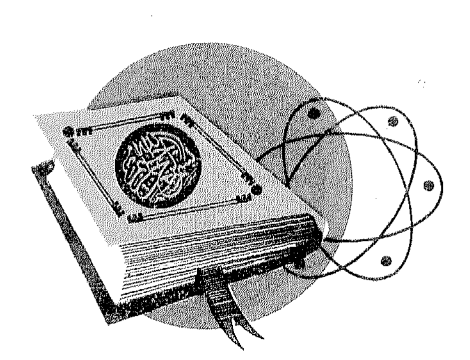
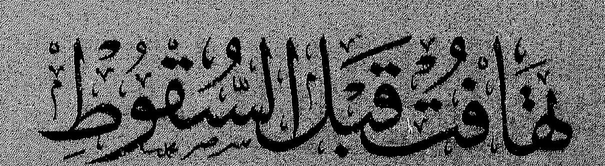


نحو عقلية
إسلامية واعية
٤



وسقوط صاحبه

عبد المجيد صبح







نحو عقلية إسلامية واعية (٤)



وسقوط صاحبه

عبد المجيد صبح

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
المنصورة – امام كلية الطب
ت : ٣٢٧٤٢٣ – ص.ب : ٢٣٠

الطبعة الثانية

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة – أمام كلية الطب

ت : ٣٢٧٤٢٣ – ص.ب : ٢٣٠

الإهـــداء

إلى مِن ورثت منه حب الإسلامْ

وتعلمت منه ، منَ العلم ، مالم أقرأه ، إلى اليوم ، فى كتاب

وتأدبت على يديه بخلق سلك بى ، إبّان الجهالة ، فى طريق الحق والصواب

إلى أبى مع الرفيق الأعلى

وإلى الذى ثبَّت ذلك الحب على بصيرةْ

ونمىّ ذاك العلم على منهج قويم

ورعى هذا الخلق على صراط مستقيم

إلى الأزهر الشريف

وإلى كل محب للحق ناصلا من شوائب الهوى والشبهات ثم إلى الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم والذين فى صدورهم كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الله يحب العبد التقىّ الغنى الخفى »

حديث شريف

* * *

إياك أن يكون تكيسك ، وتبرؤك عن العامة ، هو أن تنبرى منكراً لكل شىء ؛ فذلك طيش وعجز .

وليس الخرق فى تكذيبك مالم تستبن لك ، بعد ، جليته ؛ دون الخرق فى تصديقك بما لم تقم بين يديك بينته .

بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن أزعجك استنكار مايوعاه سمعك ، مالم تبرهن استحالته لك .

فالصواب لك أن تسرح أمثال ذلك ، إلى بقعة الإمكان ، مالم يذدك عنها قائم البرهان .

واعلم أن فى الطبيعة عجائب

وللقوى العالية الفعّالة ، والقوى السافلة المنفعلة ، اجتماعات على غرائب .

الرئيس ابن سينا

* * *

إن الجاهل بمنزلة الذباب ، لايقع إلا على العَقْر (= الجرح) ولا يقع على الصحيح . والعقل يزن الأمور جميعا . هذا وهذا

شيخ الأسلام ابن تيمية

قبل السقوط

هو عنوان كتاب، كتبه كاتبه (يخاطب عقلك، ويؤرق ذهنك، ويخترق بك منطقة أشاعوا أنها محرمة). وبرغم هذا التحريم — الذى زعم — فإنه يقتحمها بالقارىء (مدركا أن العقل لم يخلق للامتهان، وأن مستقبل الوطن. ليس ألعوبة بيد الساسة المتسربلين بالدين، الحالمين بالسلطة) وهو بهذا الاقتحام (لايبالى إن خالف الجميع، ولا يحزن إن ارتفعت ضده الأصوات، أو لمعت السيوف، ولا يجزع، ولا يفزع إن خذله من يؤمن بقوله أو هاجمه من لايؤمن به) لأنه (يخاطب أصحاب الرأى وأنصار المبدأ، وقصّاد الحق وأنصار الحكمة). ووعد فيه بكتاب آخر، تحت الطبع بعنوان: السقوط، وثالث: حوار حول العلمانية.

فمن هو المؤلف؟ وما هذه المنطقة المحرمة؟ وما موضوع الكتاب؟ ولماذانحاوره؟.

أما المؤلف: فهو فرج على فوده. د. زراعى من مواليد الزرقا ـــ دمياط. حصل على دكتوراه الفلسفة فى الاقتصاد الزراعى من جامعة عين شمس، وكان معيدا بها، ثم مدرسا بزراعة بغداد، والآن يملك ويدير (مجموعة فوده الاستثمارية). انضم إلى حزب الوفد، ثم انفصل عنه. وصدر له سنة ١٩٨٢ كتاب: الوفد والمستقبل. وكما نجا هو بانفصاله يدعو قارئه إلى أن ينجو من شقى الرحا، كما فعل هو (ناجيا بدينه ودنياه بعيدا عن دائرة التعصب الطموح، أو الطموح المتعصب (صـ ٤٦).

والكاتب عارف بموضوعه، جامع لأطرافه، له قدرته على تحليله، وتعليله يستهدف غايته فى وضوح بعيد عن الخداع والنقص فى لغة متمكن منها، له خط من أسلوبها وبلاغتها، وله قدرته على اختيار عنوان موضوعه، وله عفة لسان، حتى وإن سخر!.

أما المنطقة المحرمة، واقتحامها: فيقصد بذلك الحوار في موضوع الإسلام والدولة وتاريخه وتطبيق الشريعة، ليعلن رأيه فيه بالرفض، ولا يرى أن الإسلام دولة، ويقبل الإسلام دينا مكانه المسجد تلقى فيه العظات فهو يقول للإسلام: نعم لبعضه، ولا لبعضه. نعم للمصحف والدين، ولا للسيف والحكم!!

أما لماذا نحاوره؟

فبواعث ذلك: الواجب، الذى تفرضه طبيعة الحق، من وجوب أن يعلنه العارف به، وأن يجليّه، ويزيل عنه الشبهات، حتى يتحصحص. وأداء لحق الإسلام الذى جوهر منهجه الحوار، والإقناع، وقياما بواجب الوطن، الذى هو من مقتضى العقيدة، ووفاء لحرمة مصر، التى تشارك الكاتب حبها، وحمايتها وإن كنا لانشاركه، عبادتها فى محرابها (ص-٨٦)، لأنا لانعبد إلاّ الله، ولا نشرك بعبادته أحدا. ثم من بواعث هذا الحوار الاستجابة لطلب المؤلف، الذى طلب من قرائه أن يحاوروه مؤيدين أو معارضين، وأعلن سعادته بهذا الحوار (وإيمانه بأنه هو

السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق (صـ ١٨٩) الذى سيقضى — إن تحقق على الحضارة ويؤدى بالوطن إلى كارثة، إذا ماطبقت الشريعة. وإنه لحق ماقال (إن الكلمة أحيانا تمنع رصاصة، لأنها أقوى وأبقى) (صـ ١٨٩).

ومنهجى فى حواره: هو المنهج الموضوعى، الذى يتجرد للحق ناظرا ومناظرا بعيدا عن التعصب، فلا يجامل ولا يتحامل، بعيدا عن الهوى الذى يتغشى الصواب. ويتغيّم الحق، كما يتجرد من العواطف المرسلة التى تعشو عما تكره، ولا ترى إلاّ ماتحب، وتقذف بكلمات المدح لما تهوى وكلمات القدح لما تكره.

ولا أتمثل، فى هذا الحوار، رأى فرد، ولا جماعة، ولا حزب ولا أصدر عن توجيه خارج عن اقتناعى الذاتى، ويقينى فيما أعتقد أنه الحق والخير الصواب وإن كان ذلك لايمنع النصفة فردا، أو جماعة إذا كان الحق والصواب معهم أو كان الخير فى جانبها وجانبه.

وأسلوبى فى هذا الحوار هو الأسلوب العقلى والمنطقى الذى يصحح المقدمات ويقوم النتائج، والذى لايترك متيقنا لمظنون، وإنما يستمسك باليقين، ويأخذ للظن احتياطه فى غير شطط، ولا اتهام بعيدا عن شقشقة البلاغة، وزخرف القول، وفصاحة البيان وسلاطة اللسان، مع الالتزام بحفظ كرامة الإنسان الذى كرمه الله بنصوص القرآن ولو كان مخالفا فى الرأى، محادّا فى العقيدة إلى أبعد مدى المخالفة والمحادّه مادام يبتغى الحق وينتهج الصواب، ولذلك نأخذ الكاتب بحسن الظن من غير توقع لرميه بالعظائم من التفسيق أو التكفير،ولا ادخار للمخاطرة له، ولا لولده، كما توقع هو وادّخر (صـ ٣).

عرض الكتاب

والكتاب من خمسة فصول:

الفصل الأول يحتوى على مقالتين:

الأولى بعنوان: جهل القصد، وفحواها أن الناس يجهلون القصد الذى يستهدفه الذين يدعون إلى تطبيق

الشريعة الإسلامية ، ويقوم هو بالكشف عن هذا القصد المتمثل فى الاستيلاء على الحكم ، بطريق مباشر (بتولى مناصبه) أو بطريق غير مباشر — (بفرض الوصاية عليه) أما دعوتهم الدينية ومطالبتهم بتطبيق الشريعة فما هى إلا وسيلة — فيما يرى — إلى الهدف (صـ ١١ — ٣٣) .

والثانية بعنوان : قصد الجهل — وخلاصتها أن الوقائع التاريخية الدَّامية والمفجعة التى ترتبت فى رأيه — على قيام حكم إسلامى منذ الراشدين وعلى طول التاريخ الإسلامى لايجهلها الدعاة ولكنهم — فى رأيه يقصدون — إلى تجاهلها وإخفائها عن الناس حتى يتمكنوا من هدفهم فى السلطة (صـ ٣٧ — ٤٦) .

الفصل الثانى يشتمل على خمس مقالات :

الأولى بعنوان : حوار هادىء فى قضية ساخنة . ومضمونها أن المناداة بتطبيق الشريعة إنما هى رد فعل لمؤثرات خارجية ، وأن هذا التطبيق — إن تحقق — سوف يتهدد مصر . ويهدم الحضارة لما يترتب عليه من قيام حكومة دينية — تأباها روح العصر (صـ ٥١ — ٦٠) .

والثانية: بعنوان: الحكم بالحق الألهى، يوضح فيها كيف أن تطبيق الشريعة الإسلامية ينتهى إلى دولة دينية تقود— فى رأيه— إلى (الحكم بالحق الإلهى) الذى لايرى مصدرا للتشريع إلاّ القرآن والسنة والذى لايتم إلاّ من خلال (رجال الدين) وتنقسم الدولة بسببه، إلى حزبين: حزب الله، وحزب الشيطان، وكل من خالفهم فهو من حزب الشيطان (صـ٦٣ــ ٧٠).

والثالثة عنوانها: وأخيرا تسقط التفاحة: التى يقصد بها الحكم، وسقوطه فى يد من يسميهم (رجال الدين)، وهذا هو فى رأيه مقصدهم الذى لايعنيهم سواه (صـ٧٣ ــ ٧٧).

الرابعة عَنْون لها بقوله: الله يعلم. وفيها يردد احتمالات الدوافع وراء هذه الدعوة هل هم أئمة المساجد، أو الذين وصلوا إلى مجلس الشعب، أو دولة مجاورة أو دولة عظمى، وعلى أى احتمال فهى— فيما يرى — سياسة. ألبست ثوب الدين ودينا لبس ثوب سياسة (صــ ٧٧) — ثم يعود لتأكيده أنها دعوة

سوف تمزق مصر ويقسم على أنه لن يترك التصدى لها ماعاش (صـ ٨١ ـــ ٨٦).

والخامسة بعنوان: ولا يخلو الأمر من فكاهه. نقل فيها من كتاب. أيها السادة لزكريا البرّى. وزير الأوقاف الأسبق. أن الوزير كوّن لجنة من كبار مفكرى الدعوة لوضع اقتراحاتهم فى الاحتفال بذكرى محمد عبده، والأفغانى والإمام الغزالى وأن اللجنة اقترحت أن يكون الاحتفال: بتوزيع حلوى: سد الحنك، وكشك الفقراء والبسبوسة!! ثم يعقب الكاتب على ذلك بتعقيبات ساخره (صـ ٨٩ ـــ ٩٣).

الفصل الثالث: ويشتمل على مقالتين:

الأولى بعنوان: مولانا الذى فى الجيزة. ويقصد به الشيخ (صلاح أبو إسماعيل) ويذكر أنه أثّر على حزب الوفد حتى جعله يأخذ بفكرة الدعوة إلى تطبيق الشريعة مع أنها لاتتفق وواقعه وتاريخه، ويزعم أن الاستعمار والصهيونية من وراء هذه النية، وأن الشيخ صلاح يعلم

ذلك، وأنه مطلوب منه ومن أمثاله محاربة فكرة: القومية المصرية (صـ ٩٩ ــ ١٠٤).

الثانية وعنوانها: مصرية.. مصرية، وفيها يعقّب على بيان حزب الوفد الانتخابى ويقول إنه من صنع الشيخ صلاح، الذى خلط بين السياسة والدين، ونسى بعض طوائف المصريين وتاريخ مصر الطويل، ثم يتبنّى الكاتب الدعوة إلى التصدى للدعوة إلى الشريعة (صـ ١٠٧ ــ ١١٤).

الفصل الرابع: السودان بين الجموح والطموح

وفيه ثلاث مقالات:

الأولى بعنوان: حديث الجموح. ويذكر فيها بنودا من تعديل الدستور السودانى بعد إعلان تطبيق الشريعة وينقل عن المنظمة العربية لحقوق الإنسان انتقادات فقهيه وقانونية لما صدر من أحكام بالسودان ويختمه ببيان لنقابة المحامين بالقاهرة تستنكر فيه حل النقابات المهنية بالسودان (صـ ١٢١ ــ ١٤١).

والثانية بعنوان : حديث الطموح . ينقل فيها نماذج من تأييد العلماء والصحف الدينية للسودان فى تطبيق الشريعة (صـ١٤٥ ــ ١٥٠).

والثالثة بعنوان : وبينهما متشابهات . يناقش فيها دعوى انخفاض الجريمة فى السودان والسعودية، كأثر لتطبيق الشريعة، ثم يطرح أسئلة، يرى أنها تؤيد استنتاجه من أن تطبيق الشريعة ينتهى إلى قيام حكومة إلهية.

الفصل الخامس

وفيه يصنف الاتجاه الديني إلى ثلاثة أنواع

الاتجاه المعتدل، وينسبه إلى الأخوان المسلمين، ويبين أن أسلوب عملهم هو الاشتغال الهادىء بالسياسة.

الاتجاه الثورى (نسبة إلى الثورة) وينسبه إلى تنظيم الجهاد، ويبين أن أسلوب عملهم هو القوة والعنف.

الاتجاه الثروىّ (نسبة إلى الثروة) وينسبه إلى أصحاب رؤوس الأموال تؤيدهم دولة مجاورة. وأسلوب عملهم

الاعتماد على قوة المال وتوظيفه فى الاقتصاد باسم الاقتصاد الاسلامى مثل (المعاملات الإسلامية) فى البنوك.

ويرى أن هذه الاتجاهات تملك وسائل القوة المحققة للغرض وهى :ـــ قبول الفكرة والقوة، وسطوة المال (صـ١٦٥) ولكن هذه الوسائل موزعه على هذه الفصائل الثلاث ولا ينقصها إلاّ التجمع الذى لو تم لتحقق غرضها فى تطبيق الشريعة والاستيلاء على الدولة ولكن من رحمة الله بعباده ـــ فيما يرى ـــ أنها وإن توافرت تنافرت (صـ١٦٧)، ثم ينهى الفصل بمذكرة تفسيرية يشرح فيها أسباب نماء الحركة الدينية ويحصرها فى عشرة أسباب يسميها احتمالات هى :ـــ

١ ـــ هزيمة ١٩٦٧م، وأثرها فى البحث عن سببها ورد هذه الاسباب إلى البعد عن الدين.

٢ ـــ غياب القضية الوطنية إذ يزعم أن الشعور الدينى يغيب عند وجود قضية وطنية عامة ويمثل لذلك

بثورة سنة ١٩١٩ ووجوده عند غياب القضية الوطنية ويمثل بالحالة بعد معاهدة ١٩٣٦.

٣ ــ الأزمة الأقتصادية ويرى أن نمو الحركة الدينية إنما هو فى الأوساط الفقيرة التى تعانى من الفقر.

٤ ــ مقتل السادات ويسميه (الانتحار الساداتى) إذ يرى أنه هو الذى أرخى الحبل لمجارات الجماعات الدينية ليحارب بها خصومه الناصريين واليساريين فأفلت زمامها من يده.

٥ ــ السماح الديمقراطى يرى فيه أن منحة الحاكم بشىء من الديمقراطية مكّن للجماعات الدينية.

٦ ــ القوة العظمى: يرى فيه أن قوة التيار الدينى مقصودة لأمريكا لتربط مصر والسودان والسعودية لتكون حزام أمن ضد المدّ الشيوعى أو الإيرانى.

٧ ــ الصراع بين التيار الثروى والراد پكالى (=الرافض) يرى فيه أن السعودية تقّوى التيار الدينى خوفا من المدّ الأيرانى.

الأحزاب على ضم التيار الديني بقصد الكسب السياسى .

٩ ــ أخطاء المعالجة ويذكر فيه مازعمه أخطاء للحكومة والإعلام فى معالجة التيار الدينى .

١٠ ــ مناطق الحوار المحرمة ــ يذكر فيه ــ لائما ومعاتبا ــ سكوت المفكرين المعتدلين عن مقاومة التيار الدينى حيث ينتهى الفصل الذى يعتبر أهم فصول الكتاب وأقربها إلى الأسلوب العلمى والتحليل الإجتماعى وقد وضع تحت عنوانه عبارة كاشفة تفصح عن مضمون الكتاب كله هى : أقبل دجى : أقبل ضباب : أقبل جهاما ياسحاب والدجى هو الظلام والسحاب الجهام هو الذى يُرى أن فيه مطرا ولا مطر فيه ، فما أشبه هذا الدجى ، وهذا الجهام بهذه الدعوة الدينية التى يظن فيها الخير وما فيها إلاّ الخداع

ليس غير هذا عرض أمين جامع لفكرة الكتاب اتبعه ببيان هدفه ووسائله لتحقيق هذا الهدف .

القصـــد والثمـــرة

لكل عاقل قصد وغاية لما يكتب أو يقول .

ولكل عاقل وسائله وأدواته ، التى يتوسل بها إلى مقاصده وغاياته .

وأفعال العقلاء لها نتائج وثمرات تترتب عليها ، منها مايكون لصاحبها بالقصد الأول ، أو بالتبع .

وكل عاقل ــ كما يجب عليه أن يتأنى فى اختيار وسائله ومقاصده ــ يجب عليه أن ينظر ، ويفكر فى ثمرات هذه الوسائل والمقاصد ، وأن يزنها ، ويوازن بينها ، كما يوازن غيرها بها .

وهذه الغايات ، ووسائلها ، وثمارها تكشف عن

جوهر صاحبها: عقله، وطباعه، وصفاته، وميوله، وثقافته، ومعتقداته...

هذه مقدمات عقلية، ومسلمات نفسية، لابد أن يسلم بها صاحب كتاب: «قبل السقوط» وهو يدّعى ــ فى غير موضع من كتابه ــ العقلية والمنطقية، ووزن الأمور حتى فى أعز ماتملك الأمة من عقيدتها وتاريخها. ولا يبالى حين يخرج بوزنه الأمور. أن يخالف إجماع الأمة، فى الغابر والحاضر، فهو يقول (صـ١٦) بعد أن عرض جزءا من حياة الراشدين، ركزّ فيه على أحداث الفتنة، ومقتل عمر، ثم قال: أردت أن أزن الأمر ' لكى أصل بالقارىء إلى فهم ماأفهمه من الإسلام، وهو فهم السياسى ورجل الفكر، قبل أن يكون فهم رجل الدين!!.

فما مقصود كاتب السقوط؟
وما وسائله؟
وما ثمرات مقاصده، ووسائله؟

بالنظرة الشاملة للكتاب نجد به مقاصد معلنة، ورئيسة، وأخرى خفية، معينة على الوصول إلى مقاصده الأولى.

أولا : الأغراض الأساسية :

١ ـ فصل الدين عن الدولة.

يقول (صـ١٨) : إن كل ماعرضته إنما ينهض دليلا على أن هناك فرقا كبيرا بين الإسلام الدين، والإسلام الدولة، وأن انتقاد الثانى لايعنى الكفر بالأول، أو الخروج عليه، وأنك فى الثانى سوف تجد كثيرا يقال، أو يعترض عليه، حتى فى أعظم أزمنته!

وفى (صـ١٩) : سلم معهم بالدين، أما الدولة فأمر فيه نظر.

وفى (صـ٢٣) : إن فصل الدين عن السياسة وأمور الحكم يحقق صالح الدين وصالح السياسة معا، على عكس مايصور لنا أنصار عدم الفصل بينهما.

وفى (صـ ٥١) : إنما أنا مواطن مصرى يندب مصير مصره ، حين تنساق ـــ بحسن النوايا ـــ فى اتجاه حاشا لله أن أسميه مستقبلا ، فما أبعد المستقبل عن دولة دينية ، لأحسب أن العصر يتسع لها ، أو أن الوطن يمكن أن يسعها ، دون أن تتهدد وحدته ، وينهدم ماتعلق به من أهداب الحضارة ، أو درجاتها !! .

وفى (صـ ٨٥) : فالحكم الدينى لن يكون مقبولا من المسلمين المتنورين !! .

٢ ـــ عزل الإسلام عن العلاقات الدولية :

حيث يقرر الكاتب ، فى (صـ ١٧٩) أن العلاقات الدولية تقوم على القوة ، التى هى فوق الحجة ، وعلى المصلحة ، التى هى فوق المبدأ .

٣ ـــ تعطيل الحدود الشرعية :

يقول فى (صـ ٥٢ ـــ ٥٣) : إن تطبيق الشريعة يقود إلى دولة دينية ، وهذه تقود إلى الحكم بالحق الإلهى . إن تطبيق حد الزنا ، مثلا ، يترتب عليه منع ملاهى شارع

الهرم، والرقص بأنواعه. ومنع المذيعات من التليفزيون، كما يترتب عليه ضرورة أن يطلق المذيعون لحاهم، ويحفوا شواربهم.

ومن (صـ١٥٣ـــ١٥٥) خصها بمقال: وبينها متشابهات، ضمن مقالات الفصل الرابع الذى خصصه لنقد تطبيق الشريعة فى السودان.

٤ ـــ جعل الإسلام روحيا فقط :

فهو يرفض الدين موجها للسياسة، ويقبله كأساس للمجتمع ' لأنه على حد قولهـــ أحد أسس تكوين الضمير.

ـــ وهو يرفض الإسلام الدولة، ويسعده أن يتعلم أولادنا أصول الدين فى المدارس، وأن يحفظوا القرآن كله، أو بعضه، وأن نسمع آياته تتلى فى وسائل الإعلام، وأن نحتفل بالمناسبات الدينية، وأن يكون لرجال الدين مكانتهم، ولقدرهم احترامه وتوقيره.

هذا القدر، من تواجد الدين فى الدولة، مقبول، بل

مطلوب! وحجته فى ذلك ماتحدثنا به كتب التاريخ، ليس عن عصور الحكم الإسلامى المتأخرة، بل عن عصر الصدر الأول من الإسلام (صـ ٢٣).

— وفى مقال (قصد الجهل صـ ٣٥) يحاور مراسلا لإحدى الصحف العربية، ويرى أن المسجد لو قام بدوره، كما كان على عهد عمر، كما يريد الصحفى العربى، لاختلفت آراء الأئمة، وجرّ اختلافهم إلى كوارث. ويستشهد على ذلك بخلافهم فى المعاهدة مع إسرائيل، وبخلافهم فى قانون الأحوال الشخصية. ثم يذكر تداعيات ذهنية من أسماء أئمة الفقه، يتخيل بها معارك، يبطل بها حقائق (صـ ٣٨ ـــ ٤٠).

ثم يقول (صـ ١١٢): لنذهب إلى المساجد والكنائس، لكى نسمع موعظة دينية، لايختلف عليها أثنان.

وفى (صـ ٤٣): ألست ترى معى أن قصر رسالة المسجد على تعميق مفاهيم الدين، وغرس القيم الدينية. التى لايختلف حولها مسلم وآخر ـــ تحقيق لقصد

الذاهبين للصلاة ، بل وأكثر من ذلك احترام لحريتهم الفكرية ، تلك الحرية التى أجزم بأن الإسلام قد صانها ، وارتفع بها إلى أعلى عليين ،، !!

وأقول : وأستبيح لنفسى ـ توضيحا لدور الدين والمسجد فى رأيه أن أقول : ليكن مجال الدين فى التكلم عن الخبث ، والنجس ، والطهارة والحدث ، والزواجَ والطلاق ، والنسل وتقليله أو تكثيره ، وحكم الخل والكحول ... وإذا تخطى الدين هذا المجال الشخصى الفردى إلى المجتمع والجماعات ، فلا بأس بالموالد والاحتفالات تزينها علماء السلطة ، ولا ضير فى التوسع بذكر أحوال الأولياء ، واختراع قصص الكرامات ... كل هذا وأمثاله مقبول تواجده فى الدولة !

أما الحكم وأصوله فى الإسلام
وأما الحاكم وما له وما عليه فى الإسلام
وأما القضاء وشريعته فى الإسلام
وأما العلاقات الدولية ونظامها فى الإسلام

وأما المظالم الاجتماعية، ومنهاج الإسلام فيها

وأما المآثم الخلقية الإجتماعية وعلاجها فى الإسلام

وأما السيف والقوة والجهاد فى الإسلام... فإياك ثم إياك... إنك إن فعلت ـــ لاقدر الله ـــ تخلط بين الدين والدنيا، وتخرج بالإسلام عن رسالته وتحرمه من قدسيته، وتخلط بين الدين والسياسة، وقاعدتنا المقررة: أنه لاسياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة.

ألم يقل ذلك أحد رؤسائنا ـــ رحمه الله ـــ وإمامنا الأكبر عن يمينه، وفى مؤتمر جمع قادة الفكر وعلماء الدين؟!

لكن لامانع ـــ وللضرورة حكم وأحكام ـــ أن يتواجد الإسلام فى السياسة إطارا مبهوتا، وزينة لاهية، وشعارا لادثار له، له خطباء علماء فى المحافل، وكتّاب حكماء فى الصحف، ومحاورون خصِّمون فى الندوات، ومتكلمون، بأفواههم فى مجالس التشريع، يؤدون عنه ضريبة الذل من دينهم الحق، وعقيدتهم القويمة

نرقـع دنيانـا بتمزيـق ديننـا
فلا ديننا يبقى ، ولا مانرقع

٥ ــ القومية الإقليمية :

وإذا سألت الكاتب عن البديل عن الإسلام دولة ، والإسلام حكما ، والإسلام شريعة قال لك فى لفظ فصيح ، وأسلوب مليح ، وجلاء ليس فيه خفاء ، وإقدام مستعد لتحمل البلاء ، حتى الدِّماء : إنه القومية الإقليمية !! المصرية ... المصرية إنه الفرعونية ! . إنه أغلى مايملكه ، وإن (انفجاره غيظا من الشيخ صلاح ؛ مولانا الذى فى الجيزة ، لا لأنه نجح فى توجيه الوفد إلى عكس ماحاول ، ولا لأنه بقى فى الوفد فترة ، بينما آثر هو الاستقالة على الفور ، بعد الانتصار العظيم للشيخ ، بل لسبب آخر ، ربما لم يخطر على بال الشيخ أبى إسماعيل . وهو أنه قد أصابه فى أغلى مايملك : مصر ، ذلك الوطن العظيم ، الذى لايعرف معنى لوجوده إلا به ، ولا يعرف شيئا يسبقه لديه بدءاً ، أو يعلوه إنتهاءً) ص ٩٩ . إنها مصر التى يناديها : يامصر ، يعلم الله أننى

أحبك بلا حدود ، وأتعشقك حتى آخر قطرة من دمى ، وأتعبد فى محرابك بكل ذرة من كيانى ، وأدفع حياتى كلها ثمنا لبقائك ... والله وحده يعلم حجم الصدق فيما أقول .. صـ ٨٦

ومرة أخرى أستبيح لنفسى ، وأستميحه أن أوضح فكره ، وفكرته ، فأقول :

إذا سألته عن المسلمين يذبحون فى أفغانستان ، لكان الجواب : مالنا ولهم !

وإذا سألته عن المسلمين يضطهدون فى الفلبين وبلغاريا ، كان الجواب : هذا خارج عن المصرية !

ولو سألته عن القدس لكان جوابه ماللفرعونيين وللقدس !

ولو سألته عن القومية العربية ، والوحدة العربية لكان جوابه : فرعونية ... فرعونية !

ثانيا : الأغراض المعينة :

١ ـــ تشويه عصر الراشدين بخاصة ، والسلف بعامة :

فقد صوره بأنه عصر الاعتراض حينا ، والانقسام أحيانا ، والاقتتال غالبا ، وما كان فيه من استقرار فمرده لانشغالهم بالفتح الخارجى (ص ١٦) .

وهو عصر استبداد ، وظلم ، يضطهد فيه العلماء ، وتستباح فيه الأموال ، وتزهق فيه الأرواح لكلمة ، أو لبيت من الشعر : (ص ١٩) : أما السيف فاسأل التاريخ عنه ، وما ينبئك مثل تاريخ ، فقد أطار السيف من رءوس المسلمين أضعاف ماأطار من رءوس أهل الشرك) (ص ٢٧) : إن استقراء التاريخ الإسلامى يؤكد على حقيقة تبدو شديدة الغرابة أمام المحلل الهادىء ، الذى يحاول استخدام أعظم نعم الله عليه ، وهى نعمة العقل والمنطق ، هذه الحقيقة مؤداها أن أئمة الفقه الإسلامى كانوا أكثر من عانى من الحكم السياسى المتسربل بالدين . وقد يفاجأ القارىء بهذا الأمر ، خاصة وأن ماينقل إلينا من صفحات هذا التاريخ إنما يقتصر على نصيحة من عابد ، أو حكمة على لسان زاهد ، وفى المقابل لاتجد إلا خليفة يخر ساجدا لله ، أو يبكى خشية

منه ، أو يختصر الأمر فيسقط مغشيا عليه) .

وهذا التشوية واضح من قوله هذا ، ومن غيره ، وإن أقسم فى (ص ١٦) على أنه لم يخطر له على بال ، ويزيد وضوحه ماذكره في (ص ٥١) من تعليله صمت الرافضين للتيار الدينى بأنه الخوف (بعد أن تعلموا من رأس الذئب الطائر ، وبعد أن تنادوا : أنج سعد ، فقد هلك سعيد) .

وهو عصر جمود فكرى ، لو عاد لتناقض مع روح العصر ، ومستحدثاته (ص ٥٣) ، (ص ٨٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢) ، (إنه عصر الأحجبة والتعاويذ ص ١٠١) وتطبيق شريعته : « سقوط » « وانغلاقية » (ص ١٨١) ولو تم (فإنه يغرق السفينة بمن فيها) (ص ١٠١) ! .

٢ ـ تشويه صورة العلماء :

وكما شوه صورة الراشدين ، والسلف ، عاد فشوه صورة العلماء المعاصرين ؛ لأنه لايتم له مراده ، ولا

تكتمل الصورة التى أراد رسمها وحبكها إلا بذلك ؛ فكتب مقاله : ولا يخلو الأمر من فكاهة (ص ٨٩ — ٩٣) زعم فيه ماسبق تلخيصه بأن د . زكريا البرى كون لجنة من كبار المفكرين الإسلاميين للاحتفال بذكرى محمد عبده ، والأفغانى ، والغزالى ، فكانت اقتراحاتهم — على ماسبق بيانه بتوزيع حلوى : سد الحنك ، وكشك الفقراء ، والبسبوسة !!

ولا أكتمكم سرى أننى عندما قرأت هذا المقال بهت ، وأحاطت بى الدهشة من كل جانب ، لا لأننى آمنت بما نقل الكاتب ، وكيف أومن به وأنا أعلم من دراسة علم فلسفة الأخلاق أن الخبر يأتيك عمن تعلم فتستطيع أن تعرف صدقة أو كذبة بمعرفتك بالمخبر عنه ، فمن تعرف عنه سلامة الفكر ، ونضج العقل ، فقبل لك عنه إنه يقترح ، لتكريم مصر تجفيف النيل ، لقلت على الفور : مثله لايقوله . ولكن لزمه ذلك الذى زعم

ولكننى لما كنت فى موقف (التجرد) للبحث قلت : أيكون هذا ؟

إنه على فرض صحتها سَيْرٌ من الكاتب على منهاجه فى الكتاب كله من التعلق بأقوال الناس ، وأحوالهم ، تاركا الحقائق الذاتية للشريعة ، وتاركا مناهج التطبيق السليم على مر التاريخ .

وإنه – على فرض صحتها – فإما أن يكون هؤلاء القوم مجانين ، وهو مايأباه وصفهم بأنهم من كبار المفكرين الإسلاميين ، وإذا كان كبار مفكرينا بهذه المثابة ، فما بال من دونهم ؟ !

وإما أن يكون عباقره أدركوا فى الأمر مهزلة فكرية ، وسلوكية ، أو تاريخية ، يراد بها التسلى عن الوقائع المرة ، والتلهي عن الفجيعات القومية ، فعبروا عن نكيرهم بهذا الأسلوب ، الذى لايخفى على الدكتور الوزير ، وعلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وعلى أى احتمال من هذين فهدف الكاتب من إصغارهم مردود بهذا الترديد العقلى ، كما يأباه مانعرف عن القوم ، وما نقرأ من ثمار أفكارهم .

ولكن لندع الترديد العقليّ إلى الواقع العملى ، ولنستوثق من صحة النقل ، ولننظر سياقه ، وسباقه ؛ فإن النص إذا بتر عن سابقه ، ولا حقه قد يعطى غير معناه .

وقد كان فقد رجعت إلى كتاب د . زكريا البرى (أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله) (ص ٣١٩ — ٣٢٧) ، فإذا بالرجل أراد أن يوضح رأيه فى ترشيد الاحتفال بالمولد النبوى ، وإصلاح البدعة التى ابتدعها الحاكم الفاطمى ليغطى بها مازيف من حقائق الإسلام .

وليعقب على كلمة الأستاذ الدكتور مهدى علام ، الذى رأى التوسعة على الأهل والعيال مطلب لابأس به . فلكى يصل د . زكريا البرى إلى غرضه دعاه ذلك ، عندما ذهب إلى الاحتفال الذى نظمته أمانة الشئون الدينية فى الحزب الوطنى ، والتى كان يتولى رياستها . ورأس الاحتفال السيد / نائب رئيس الجمهورية ، إذ ذلك محمد حسنى مبارك ، وفقه الله لخدمة الإسلام ، وحضره النائب الأول لرئيس الوزراء ، إذ ذاك د . فؤاد

محى الدين ـــ رحمه الله ـــ لكى يصل الرجل إلى فكرته فى إصلاح هذه البدعة التاريخية عرض عليهم هذه الصورة المتخيلة ، والتى اقرح فيها المرحوم فؤاد محى الدين حلوى (أم على) واقترح فيها مبارك حلوى البسبوسة ، وكانت هى اقتراح البرى نفسه .

عرض الرجل هذه الصورة الخيالية ، ثم عقب عليها بقوله للحاضرين : ماذا يقول الناس فىّ .وفى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وفى هذه اللجان ؟ سيقولون قطعا : إن رئيس المجلس الأعلى أصيب بالجنون المفاجىء ، هو وأعضاء هذه اللجان ؛ لأن ربط الاحتفال بهذه الصورة غير منطقى ، ولا يفهم مطلقا . وأنا أقول لكم : إنكم تتهمون المجلس الأعلى بالجنون المفاجىء ، هو ورئيسه ، فلماذا تنفذون أنتم قرارا أصدره الحاكم بغير أمر الله ، وقد مضى على قراره قرون متعددة ، ومات وأصبح ترابا ، ويلقى حسابه عند الله ؟ وقد أثرت هذه القضية بسبب هذا الذى جاءنى من بلدى ، وحدثنى أنهم لايجدون السكر ... من الذى يصلح هذا

الشذوذ ؟ الحكومة ؟ لو استصدرت من الدولة قرارًا بهذا المعنى ، سيقول المنافقون ، والمفسدون ، والرافضون لكل إصلاح . إن هؤلاء كفرة فجرة ، ولا يريدون أن نحتفل بمولد الرسول ، ﷺ بأكل الحلوى ! إذاً ما العلاج ؟ هو الجمعيات والأجهزة الشعبية ... كل شيء له حكمة فى الإسلام ، القول بالتوسعة ـــ كما قال أستاذنا الفاضل د . مهدى علام ـــ أهلا وسهلا ، فشأن الأعياد ـــ كما قال ـــ أن نتوسّع فى الطعام ، هذا شيء لاعيب فيه ، لكن أن تكون صيغة معينة ، وحلوى معينة .. وأن يشدّ السكر بكل الوسائل ، وأن توزعها الوزارات ، والهيئات من الميزانيات ـــ فهذا لايمكن أن يقره الإسلام ... أردت فقط أن أعقب هذا التعقيب ، لكى أوضح فكرتى فى رسالة ترشيد الاحتفالات الدينية ... » اهـ بنصه .

فماذا يقول د . فرج فوده فى نفسه ، وكتابه ؟
أيقول : إنه لم يفهم كلام ، د . زكريا البرى ؟
أيقول : إنه مجنون ، وشاركه فى جنونه المرحوم فؤاد

محى الدين ، ومحمد حسنى مبارك ؟

أيقول : إنه فهم الكلام وحرفه عن وجهه ليصل إلى مبتغاه ؟

أم ماذا يقول ؟

ليختر لنفسه مايحلو من هذه الاحتمالات ، وليردد غيرها ماشاء ، ثم ليجيبنا عن هذا السؤال : أمثل هذا الذى فهم وحرّف ، أو لم يفهم فاستشهد وسخر — أمِثْله يُؤْمَن على تحليل ، أو تعليل ، أو حكم ، أو رأى ، أو قيادة وريادة ؟!

لقد دعا القارىء — ساخرا — إلى أن يتوقف قليلا ، وأن يبتسم كثيرا .

ودعا القارىء أن يتوقف ليضرب — تحسراً — كفا بكف ، بل — على الدقة — أن يضرب خدا بكف .

وناقش الأمر ، وإن كان ، كما يقول ، لايستحق المناقشة ، على ثلاثة مستويات ، أولها : هو حجم المفارقة بين مناصب من شاركوا فى هذه اللجان (ولا

أريد أن أذكر أسماءهم) والاجتماعات العديدة التى حضروها ، والمناقشات الصاخبة التى دارت بينهم — وبين ماتمخضت عنه الاجتماعات من توصيات ، الأمر الذى ينطبق معه المثل الشائع : تمخض الجبل فولد (بسبوسة) !!

ولا داعى لأن أستمر فى عرض المستويين الآخرين ، اكتفاء بأولها ؛ وهو ساقط قبل سقوطها ، وهى ساقطة بسقوطه لأسأل عبقرىّ السقوط : ماحجم المفارقة بين ماكتبت ، واستنبطت ، وحكمت ، ودعوت ، وادعيت ، ووزنت ، وفكرت ، وقدرت ، وعبست ، وبسرت ، وأدبرت ، واستكبرت — وبين ماقرأت الآن من نص مانقلت ؟

وأخيرة فى هذا المقام ،ماينبغى أن أتركها .

أستحلفك بالله ، الذى حلفت به مرات فى كتابك ، وأشهدته على مافى قلبك ، أفى كلام زكريا البرى أسماء هذه اللجان ؟! أم أنه ليس هناك أسماء مطلقا ؟! وهل

أنت أكرم موقفا ، وأرحم رحما بهذه الأسماء من البرى إذا كان ذكرها فى كتابه ! فإذا لم تكن هناك أسماء ، وهذا هو الواقع ، فبماذا تصف نفسك ؟ لقد أردتّ أن توهم قارئك بأن الأمر حق ، وما هو بالحق . لقد كنتُ أردد احتمالات الفهم أو عدمه لكلام البرى إنصافا وتأدبا ، فالآن ، وقد قضى زعمك أن هناك أسماء أعرضت عنها — على كل احتمال — إلا واحداً بماذا تحكم ؟

ألا ماأحوجك إلى حديد يصف ماأسكت عنه أدبا وتكرما ثم ماأحوجك أن تراجع نفسك ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، والباطل إلى نفاد ، والحق خير وأبقى !

— ومن رغبته فى تشويه صورة المتصلين بالدعوة إلى الدين عامة مانقله عن مجلة الاعتصام — ديسمبر ١٩٨٤ (ص ٥٣ — ٥٦) من نقد للتليفزيون ، واقتراح صورة أولية طرحها الكاتب ، كتصور شخصى لما يجب أن يكون عليه الإرسال المرئى .

وغنى عن البيان أن كاتب (الاعتصام) لايدعى أن تصوره أمر ليس بعده بعدٌ ، ولا قبله قبل ، إنه تصور ، مجرد تصور يعرضه صاحبه . كما أنه غنى عن البيان أن مثل ذلك الإصلاح المقترح لايقوم به فرد ، إنما جماعة لها علمها ، وفنها ، ولها نصيبها من خبرة الموضوع مع إيمانها بالقيم الموروثة ، ومعرفتها بالخير المستحدث .

وأرجوا أن يكون عنيا عن البيان الآثار السيئة التى أحدثها التليفزيون ، واعترفت بها الدولة ، أثر قتل طالب هندسة المنصورة والديه ، وأسقط وزير الإعلام إعلانات بمليون جنيه ، لمخالفتها للقيم . ووزير الإعلام ليس من الدعاة المعتدلين ، بله المتطرفين ، ولا هو من رجال الدين .

هذه الإعلانات التى ينجذب إليها ٦٣ ٪ بحسب إحصاء شبكات التليفزيون الأمريكية ، وكما يقول تقرير اليونسكو رقم ٣٣ عن وسائل الاتصال والإعلام فى العالم الثالث ، والذى يثبت أن نسبة المواد الأجنبية المذاعة فى تليفزيونات البلاد العربية تتراوح مابين ٤٠ إلى

١٠٠ ٪ ويقول التقرير نفسه إن الأطفال من سن السادسة إلى سن السادسة عشرة يقضون مابين اثنتى عشرة ساعة وأربع وعشرين ساعة أسبوعيا أمام التلفزيون ، حيث يبدأ عقل الطفل — فى طريق المعرفة — بالاندهاش ، ومع استمرار الدهشة والانبهار يتقدم عقل الطفل إلى مراحل المحاكاة والتقليد ، والتلقين والتعليم ... إلى أن نجد الطفل ، فى النهاية قد تشكلت شخصيته وثقافته ، والتليفزيون هو العامل الرئيسى فى هذا التكوين ، والذى مازالت برامجه العربية دون منافسة البرامج الأجنبية صفة ومقدارا . ومهما كانت دقة الرقابة ، إن كان هناك دقة ، فإنها فى النهاية يتسرب منها ، أو تسرب هى ، قيم مجتمع بأكمله يختلف عن قيم المجتمع العربى وأخلاقه : فهذا إعلان عن طفل يعطيه شقيقه زجاجة مياه غازية ، يحتفظ له بها ، ويحذره من شربها ، وما أن يستدير الأخ حتى يشربها الطفل الصغير . وعندما يعود الأخ ليسأله يجيبه بأنها تبخرت .
أى أخلاق وقيم يهدمها إعلان مثل هذا ؟!

إعلان آخر يبدأ بإنفجار شديد ، ثم صوت يقول لك : إنسف حمامك القديم ، واستبدل به حماما آخر من عند ...

إعلان ثالث عن اكتمال الرجولة بعطر كذا، وبهجة الأنوثة لو استخدمت صابون كذا... وسيل من الإعلانات والمسلسلات ، كلهاتثبت ، وترسى قيم مجتمع يختلف عنا .

أيرى صاحب السقوط تقرير اليونسكو شيخا على كرسيه معمما من رجال الدين؟ .

أيرى صاحب السقوط منظمة شبكات التليفزيون الأمريكية إحدى كاتبات مجلة الاعتصام؟! . الله يعلم!

لقد حدثتنى سيدة فاضلة تجيد الأنجليزية ، من أرق بيوتات مصر ، شاكية آسفة ، عن مدى الإسفاف الذى هبطت إليه بعض ماشاهدت من مسلسلات مستوردة ، تذاع فى شهر رمضان المبارك ، تسلية للصائمين ! أفيرى صاحب السقوط سيدتنا هذه رجعية تفكر بعقلية

السلف؟! الله يعلم!

وعلى أية حال، وفى ختام هذه المسألة أقول: إذا كانت هذه الصورة، وذاك التصور الذى قدمه كاتب مجلة الاعتصام ساذجا، ضاربا فى السذاجة بأطناب، فليس هو دون تصور صاحب السقوط لرسالة المسجد، تلك الصورة التى لايعرفها الإسلام، والتى جمعت بين المسجد والكنيسة فى قرن واحد (ص ١١٢ من كتابه).

ــ واستمرارا من الكاتب فى التشويه، واجتهاده فى تتبع الهنات ينقل عن عدد مجلة أكتوبر، الصادر فى ٦ من يناير سنة ١٩٨٥ ص ٥٠ من حديث الكاتب إبراهيم مصبحّ قوله: وبينما أنا أقلب صفحات أحد الكتب إذا بى أجد كلمة لحكيم الصين (كونفو شيوس) وترجمتها: «عندما رغب الحكماء الأقدمون أن يعمر العالم «بالإسلام» سعوا أولا إلى إصلاح بلادهم، وقبل أن يصلحوا بلادهم أصلحوا من أسرهم، وقبل أن يصلحوا من أسرهم أصلحوا من أنفسهم وقبل أن يصلحوا من

أنفسهم حاولوا أن يكونوا مخلصين صادقين فى أفكارهم، وحاولوا أن يروا الأشياء على حقيقتها تماما».

ثم يعقب على ذلك صاحب السقوط بقوله (ص ٩٣): ويبدو أن الأستاذ مصبح يستهين كثيرا بذاكرتنا التاريخية، وأستبعد بالطبع أن يكون سيادته جاهلا بأن كونفوشيوس قد مات قبل أن يظهر الإسلام بأكثر من ألف عام، ليس هذا فقط، بل إنه على يد الأستاذ مصبح يتحدث عن الإسلام باعتبارة ديانة للحكام الأقدمين.. وسبحان من له الدوام!

والعبارة المنقولة ــ بصرف النظر عن لفظ إسلام ــ صحيحة المعنى فى التعبير عن فلسفة كونفو شيوس العملية، التى تبتدىء من الفرد، وتنتهى إلى الجماعة، والتى تقوم على (الواجب) والتى سبق بها الفيلسوف الألمانى (كانت)، وعلى محاسبة النفس، وعلى الفطرة، وعلى القدوة التى يقول فيها: كلما سرت بين رجلين وجدت لنفسى أستاذين: من له فضائل فهو قدوتى، ومن

له رذائل فهو عبرتى» والتى يرى فيها (كونج فوتسيه) وهذا هو اسمه قبل تغيير الأوربين له إلى (كونفوسيوس) — يرى أن أمور الدولة لاتستقيم، وأمر حاكمها على عوج ويقول فى ذلك: إن أخلاق الرؤساء كالريح، وأخلاق المرء وسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب».

لم أقصد بهذا الإجمال عرض فلسفة (كونج فوتسيه) الأخلاقية العملية، إنما قصدت إلى أن الأوربيين المسيحيين، بعد جهل طويل بماضى الصين، وإتهامهم إياهم بأنهم ليست لهم فلسفة، ولا لون خاص من ألوان الفكر الإنسانى، ولا منهج خاص من مناهج السلوك — تبين لهم بعد الكشوف الأثرية غير ماكانوا يتهمون الصينيين به، وقرروا أن الصينيين لابد أن يكون بعث فيهم رسل؛ ولهذا أخذ الأوربيون هؤلاء يوازنون بين التوراة والكتب الصينية، واعتقد المبشرون المسيحيون أن الإله أوحى إلى الصينيين، كما أوحى إلى الإسرائليين، وأن (شانج — تى) هو الرب المذكور فى الكتاب العبرى

المقدس. كما اعتقد الأوربيون أن الوحى امتزج، من ناحيته العملية بفلسفة «كونفوشيوس» الذى كان يرى أن الدرجة العليا فى المعرفة هى درجة الرجل الذى تلهمه السماء (راجع تاريخ فلسفة الأخلاق لأستاذنا المرحوم محمد يوسف موسى، والفلسفة الشرقية لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد غلاب، ومقارنات الأديان حـ ١ لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة).

بعد ذلك ليس بالبعيد أن تكون كلمة (إسلام) الواردة فى مقال الأستاذ مصبح ليست ببعيدة إذا ماأخذت بمعناها اللغوى، الذى كان— بمعناه الدينى العام— القاسم المشترك بين أديان السماء. وإن كانت تصحيفا لكلمة (السلام) فالأمر أيسر، وهى فى الحالين ليست من الحق ببعيد، إلا على الذى يتبع السقطات، ويتلمس العورات، ولا يستأنى فى النقل وتفهم مراميه، ورده إلى أصوله، بل يعرض عن ذلك إلى السخرية التى لا علاقة لها فى البحوث العلمية، ولا العقلية المنطقية، التى لايفتأ الكاتب يعلنها عن نفسه (ص٩٣).

ـــ ومن هذه (التلمسات) التى يتتبعها الكاتب، من غير أن يكون لها كبير شأن فى البحث العلمى ماذكره (ص٥٩) نقلا عن جريدة (اللواء الإسلامى عـ١٥٢) من قول د. عبد الغنى الراجحى من أن «دارون» يهودى، مع ماهو معروف من أنه مسيحى، ويرى صاحب السقوط الخطر فى كلام د. عبد الغنى الراجحى من أن الحكم على الفكر يصدر أساسا من منطلق اختلاف الديانة، ويرى أنه منهج خطير، كما يتهمه بأنه لم يقرأ نظريات ماركس وفرويد، ودارون».

والعجب من الكاتب أن يرى الخطورة ههنا، من المسلمين، ولا يرى مثلها فى كتابات المستشرقين الذين جهدوا دهورا يشوهون الإسلام لذويهم، ويشككون المسلمين فيه، بعد أن باءوا بالخسران المبين فى حربه صليبيا. ولكن لاعجب إذا علمنا ـــ وقد علمنا ـــ أن الكاتب يحرف الكلم عن مواضعه، ويبتره سوابقه ولواحقه، ويسكت عن شهادة الحق التى شهد بها للإسلام أعداؤه على نحو مانقل من كلمة الأستاذ

مصبح، وسكت منها عن نقله شهادة (برناردشو) للإسلام، التي يقول فيها: لن يحيا العالم من موته إلا بتعاليم الإسلام، ونحن نعلم قبلا، و (شو) مازال حيا أنه قال عن محمد ﷺ: ماأحوج العالم إلى محمد؛ ليحل مشكلاته وهو يشرب فنجانا من القهوة، ولا أظن أن الكاتب صاحب السقوط لم يعلم بكتاب: الخالدون مائة أعظمهم محمد، ولكنه بطر الحق، وغمط الخلق، ونعوذ بالله من الجحود!!

والحقيقة فى كلمة د. الراجحى أن نظريات ماركس وفرويد ونيتشه وداورن من تدبير اليهود، بصرف النظر عن دينهم، واعترف بذلك بروتوكولات حكماء صهيون التى هى عبارة عن مؤامرة شديدة ضد البشر، وقد جاء فى البروتوكول الثانى مانصه ثم نعود إلى أغراضه المعينة، والتى منها:

٣ ــ محاربة الاتجاهات الدينية الإسلامية:

وهو فى هذه الدعوة يطلب أن يكون التصدى لهذه

التيارات (المختلفة) بقوة الكلمة ، وقوة السلطان .
يقول فى (ص ١١٢) : إن « الإرهاب » لاينمو بصورة ذاتية ، بل يتواجد بقدر مانتيح له من مناخ ، ويتوالد بقدر مانتراجع أمامه ، ويقوى بقدر مانخاف ، ويعلو صوته بقدر خفوت أصواتنا ، ويزداد رصيده بقدر مانسحب من حساب الشجاعة فى بنك المستقبل .

ويقول (فى ص ١٨٧) : يبدو غريبا ذلك التناقض بين المصالحة مع تنظيم متطرف مثل الجهاد ، بالإفراج عن جميع المتهمين فى إحدى قضاياه .. والأسوأ من ذلك خلق انطباع إعلامى عام إيجابى بالنسبة للتيار الإسلامى ، والمنع ، والسماح ، بلا سبب ، أو استجابة لاحتجاج يأتى من بعض الاتجاهات الدينية ، !!

وفى (ص ١٠٤) يبين أنه يجب التحالف لمواجهة التيار الدينى ، والرياح الإيرانية القادمة من الشرق (ص ١٠٩) المحملة بالجمود والتخلف .

وفى (ص ١١٠) يؤيد القانون الذى يمنع خطباء

المساجد من التعرض بالنقد ، أو حتى النصح ، لأى جهة من جهات الإدارة العمومية .

حتى الأذان بالمكبرات ، وتواشيح الفجر لاتسلم من مهاجمته فى (ص ١١٣) .

٤ ــ هذا ، وهناك هدف معين أثبته ، ووددت أن أسقطه .

وهدف أكبر وأبعد أسقطه ، ووجدت أنه من الغفلة أن أتبعه ، ومن حق اليقظة أن أثبته :

أما الأول : فتتبعه ماذكر من تاريخ الراشدين ليثبت (أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة ، وإنما على بشر مثلنا ، بعضهم جاهد فارتفع ، وبعضهم أرهقه الضعف .. بهذا الفهم يقتربون منا ، ونقترب منهم .. ويلتصقون بوجداننا أكثر بكثير من أن نقرن أفعالهم بالمبالغة ، أو نقرن صفاتهم بالتقديس ، أو نقرن حياتهم بالمعجزات ــ ص ١٦ ــ ١٧) .

يالها من معركة من غير معترك !
ويا له من معترك من غير معركة !
فمن الذى قال إن الإسلام تنزل على ملائكة ؟
ومن الذى نسب المعجزات إلى غير الرسل ؟

إن رأس الدولة المسلمة ، ونبيها يقرر القرآن بشريته ، ويثبت لومه أحيانا ، والعتب عليه أحيانا ، والعفو عنه أخرى .. كل ذلك تأكيدا لبشريته ، وتحقيقا لنبوته .

ثم من الذى أنكر عليك ياصاحب السقوط أنك تقرب من عظماء السلف ، بل ومن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ؟! .

ألست تصمُد للتيارات الدينية التى عمت مصر ، كما ثبت الصديق لحركة الردة التى عمت الجزيرة ؟! .

ألست أنقذت عرب الشام من الإرهاق الصهيونى ، كما أنقذهم الصديق من الإرهاق الرومانى ؟! .

ألست ياصاحب السقوط أزلت « الروسيا » من

الشرق ، وزلزلت « أمريكا » من الغرب ، كما أزال عمر ، وزلزل ؟! .

ألست ياصاحب السقوط قد جعلت — وأنت دكتور الاقتصاد الزراعى — لكل فرد فى مصر رزقا معلوما فى خزانة الدولة ، كما فعل عمر ، هذا الذى لم يحصل حتى على الابتدائية

لماذا تزرى بنفسك هكذا يارجل ، وتثير معركة من غير مقاتل ؟

هل ينكر عليك أحد أنك ثابت لفتنة التيار الدينى ، حتى لايشمل الدولة ، ويكون مثلا سيئا مضروبا ، كما ثبت عثمان ، أمام فتنه الطغام ، فلم يخلع ثوبا ألبسه الله إياه ، حتى لا يكون سابقة غير حضارية لكل من يشغب على النظام ، ويفتقد كلمة الحكمة ؟!

وخبرنى — بصدق — من الذى ينكر عليك شجاعتك فى الثبات ، والثبوت أمام الحق الذى يعتقد ، فى مقابل الخارجين على الدولة ، الذين يبغونها عوجا ،

ويبيعونها زهداً ، ويجرّونها القهقرى ليرجعوا بها إلى أكثر من ألف عام ... كشجاعة على بن أبى طالب فيما اعتقد أنه الحق ، وأيدته فيه الأمصار !

ونبئنى ـــ بعلم ـــ ألست فى ذكاء إياس ، وإقدام عمرو ، وحلم معاوية ، وأنت تحاور بالكلمة لاتحرفها ، وتحفظ مصر لاتنتكس ، وترخى الشعرة بينك وبين (المعتدلين الإسلاميين) ؟!

أو لست تؤمن (بمصر الإسلامية ، القبطية ، العربية ، الفرعونية البحر متوسطية . ص ١٠٨) (مصر الكرنفال) ـــ كما آمن عمرو ومعاوية بها وبعروبتهم ، كما علمهم الإسلام ، فأزاحوا الروم عنها ، وحموا شواطئها المتوسطية شمالا حتى صقلية ، وغربا حتى برقة ؟!

أو لست قد بسطت جناحى مصر حتى وصل إلى أقصى الشرق ، وأقصى الغرب ، ومددت يديها حتى نالتا مدينتى (ليون) (وفينا) كما فعل السلف ؟!

أو لست تنعى على هؤلاء الدينيين تبادرهم إلى القوة ، بدل الكلمة ، وتقوم أنت بنشر الأسلوب الحضارى ـــ كما فعل أسلاف للمسلمين نشروا القيم الإنسانية ، حتى أغرت شعوب الأرض بصفاء نورها ، قبل أن ترهقهم السيوف بنارها ؟!

أو لست تدعو إلى حفظ الحضارة بالقضاء على الدين دولة ـــ كما فعل أسلاف للمسلمين حفظوا لنا الإسلام حتى وصل إليك ، وما زال بخير ، على حد اعترافك فى ص ٨٢ ، والخطر كل الخطر على الإسلام إنما هو من قبل هؤلاء الدعاة الذين يريدون له أن يحكم ـــ أو لست تحفظ على الإسلام حرمته ، وحضارته ، كما فعله هؤلاء الأسلاف حتى وصل إلينا وما زال بخير ، وحتى شهد له د . نظمى لوقا ، وهو غير مسلم فى كتابيه : محمد الرسالة والرسول ، ثم فى : وامحمداه . وحتى أسلم على حضارته فيلسوف فرنسا (رجاء جارودى) .

أو لست رجلا متفتحا ، ومنفتحا ، لامنغلقا كهؤلاء الدعاة ، حضاريا ، إنسانيا ، تدعو إلى القومية المحلية ،

والمصرية الفرعونية ، كما دعا السلف إلى الأخوة الإنسانية ، التى لم تفرق باللون ، ولا بالجنس ، ولا بالعرق ؟ عزمت عليك يارجل ، أيكما الحضارى الإنسانى ؟! .

ألست أنت الذى تدعو إلى الفرعونية « المتقدمة » سبعة آلاف سنة إلى الوراء ، بينما هؤلاء (الجامدون ، المنغلقون) يدعون إلى ألف سنة ودون النصف إلا قليلا ؟! .

ألست تدعوهم إلى النجاة ، ويدعوننا إلى النار ؟ ياصاحبى أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ .

ياصاحبى ، ألست تنفتح على حضارة العصر ، كما انفتح أسلاف المسلمين على حضارة الدنيا ، واستخرجوا كنوز المعرفة ، وفعلوا فيها مايفعل النحل برحيق الزهر ؟ فأنبئنى من ذا الذى ينكر عليك أنك تقترب من السلف ، بل من ذا الذى ينكر عليك أنهم يقتربون منك ؟! .

ياصاحبى ، إن بينك وبينهم ــ فوق كل ذلك ــ رابطة الدم : أنت تبذل دماءك ، ودماءك من أجل مصر وفرعونيتها ، وهم بذلوا دماءهم ، ودماءهم ، وأموالهم فى سبيل الله ، وعقيدته وعالميتها ، فأى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟! .

لقد كان غرض السلف من هذا البيع وجه الله ، باعوا لأجله حتى الحياة ، أما أنت ــ وهذا هو هدفك الأكبر ، والأبعد ، ومقصدك الأسنى : الطموح السياسى ، الذى من أجله دخلت حزب الأحرار ، ثم لما ظننت خواء مائدته ، ملت إلى حزب الوفد ، فلما أطار حلمك ، وحلم مولاك الذى فى الجيزة ، استقلت ؛ لتكون حزب المستقبل ، فلما فشلت ، كتبت قبل السقوط ، وبعد السقوط ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون ؟!

ثالثا وسائلهم ووسائله :

لقد كان للسلف وسائلهم فى السلم والحرب ، تلك

التى فتحت القلوب ، ودهش لها الأعداء ، وعجب لها الصليبيون ، والتى لاأثقل عليك بسردها ، فأنت بها خبير حين فتشت ، ونقبت فى التاريخ الإسلامى الطويل ، فلم تجد إلا السيف والنطع ، والسياف « مسرور » وإلا النجاء مع سعد بعد أن هلك سعيد .

أما أنت فما أسمى خلقك ، وأعلى شرفك ، وأغلى سرائرك ، وأجلى ظواهرك :

إنك تثير على مواطنيك فى مصر ، لأنهم يخالفونك الرأى :

تثير عليهم الساسة كما فى صفحات ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ١١٢ ، ١١٣ .

وتثير الحكام كما فى صفحات ١٧٤ — ١٧٦

وتثير الناصريين كما فى صفحات ١٦٦ .

وتثير اليساريين كما فى صفحات ١٧٤ — ١٧٧

وتثير الأحزاب السياسية ، الظاهرة والخفية ، كما فى صفحات ١٨٥ ، ١٨٧ .

وتثير الأقباط ، كما فى صفحات ٨٣ ، ٨٥ ، ١١١

وتثير المثقفين كما فى صفحات ٨٢ ، ١١٠ .

وتثير الأغنياء كما فى صفحات ١٦١ ــ ١٦٦ .

وتثير الفقراء كما فى صفحات ١٧٤ .

وتثير العلماء الرسمين كما فى صفحات ٦٣ ، ٦٦ ، ١١ .

وتثير مجلس الشعب كما فى صفحات ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ .

وتثير الشعب عامة كما فى صفحات ١١٠ ــ ١١١ ، ١١٣ ــ ١١٤ . !!

يالك من خصم شريف ، وداعية وحدة منيف !!

ثم وإنك إن نسيت لم تنس أصحاب الشهوات ، ورواد شارع الهرم (ص ٥٣ ــ ٥٥) فيالك من زعيم يشبع القرم (= شدة شهوة اللحم) .

ويالك من سيد قَرْم (= مُكرم) .

رابعاً : نتائج :

ويترتب على مقاصد كاتب السقوط ووسائله نتائج ، إن لم تكن مقصودة فهى لازمة لوسائله ومقاصده ، منها :

١ ـــ هدم الإسلام كله ، عقيدةٍ وشريعة

لأن الإسلام جسد واحد ، إذا شطر مات ، فالأحكام العملية فيه ليست منفصلة عن الأحكام الاعتقادية ، ومن آمن بالاعتقاديات ، والأخلاقيات ، والعبادات ، ورفض العمليات ليس بالمسلم على التحقيق .

لقد كان أبو جهل أذكى فكرا ، وأسمى عبقرية عندما عرض الرسول ﷺ على الملأ من قريش أن يقولوا (كلمة) كلمة واحدة تضمن لهم عز الدنيا ، ونجاة الآخرة ، فوثب إليه أبو جهل وقال له : وعشر كلمات وأبيك . ماهي ؟ فقال ﷺ : أن تقولوا : لا إله إلا الله ! فنكص أبو جهل على عقبيه ، ونكس على رأسه ،

أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب !

لقد كان أبو جهل أفهم لمدلول تلك الكلمة ، وماتقتضيه من تغيير يشمل حياة قائلها فى قلبه ، وفكره ، وعمله ، وعلاقاته بالأشياء والناس ! إنها كلمة ذات حقوق تقتضيها ، وواجبات تفرضها ، وليست كلمة تلفظها الألسن ، أو تختزنها القلوب ، إنها فارقة الفوارق بين المسلم عقيدة ، وعبادة ، ودنيا ، وآخرة ، وبين غيره إنها الكلمة التى أزيلت من أجلها دول ، ودالت بها نظم ، وبذلت فى سبيلها مهج ، وأزهقت فى حبها أرواح ، وقضت فى كرهها أخرى .

إنها ليست نغمة حَلَقات ، ولا ترنيمه ذكر ، ولا (آهة) تهالك ، ولا ترتيلة مسابح .

إنها قضية الدنيا ، وحقيقة الآخرة .
إنها قضية الأعمال ، لاقضية الأقوال .

إن مسألة الأحكام العملية الإسلامية سواء منها مايتعلق بالفرد ، أو الجماعة ، أو القضاء ، أو السياسة ،

أو الحاكم أو المحكوم .. إنها طبيعة الإسلام ، إنها حقيقته ، إنها خصيصته ! إذا تحققت كان الإسلام هو الإسلام ، وإذا لم تحقق لم يكن الإسلام الإسلام ، أو كان ـــ فى أحسن فروضه ـــ إسلاما إسميا لا مسمى له ، وشكليا لاجوهر له ! .

٢ ـــ **ومن هذه النتائج** : تشتيت المسلمين ، فلا تجمعهم جامعة ، ولا تربط وجدانهم رابطة ، إذ كان الإسلام من جانبه المعنوى رابطة إخاء ، ومؤلف قلوب .

وكان من ناحيته المادية محقق كيانٍ حى جامع تعيش فيه أمم وشعوب حفظها ذلك الكيان المادى المتماسك ، على مَرِّ الغداة ، وكَرّ العشىّ من الشعوبية الفارسية ، والعصبية الصليبية ، والهمجية التترية .

وضياع هذا الكيان المعنوى ، هو الذى مكن دول الاستعمار ، بعد الحرب العالمية الأولى ، من تمزيق الكيان المادى واقتسامه بين ذئاب البشر وضياع هذا الرباط المعنوى الذى مكن لليهودية وقصنها حاضرة لاتحتاج إلى

بيان .

٣ ــ ومن هذه النتائج التى تثمرها دعوة صاحب السقوط ، تحقيق أمل الاستعمار فى القضاء على الإسلام الدولة ، والقضاء على الإسلام الجهاد . ندعو إليه نحن بألسنتنا ، ونروج له بأقلامنا ، ونقسم عليه بأرواحنا ، ونغذّيه بقدراتنا ومواهبنا ، وإنه لحق :

مايبلـغ الأعـداء من جاهـل
مايبلــغ الجاهــل من نفسه

إن وحدة المسلمين أمر تقتضيه عقيدة الإسلام ، ويحول دونها العَداء ، والجهل ، والتجاهل !

ولا عجب :

ونحن لانعجب من هذه الخصومة التى توجه إلى الإسلام ونظامه ؛ لأن الإسلام عقيدة ذات فاعلية وتفاعل ، الإسلام عقيدة حركية ، وليس عقيدة سلبية ، أو استسلامية ، مقرها الضمائر والمساجد ، وإنما مستودعها القلوب ، ومستقرها الأرض جمعاء .

وأعداء الإسلام يعلمون عنه ذلك علما ؛ لذلك يبتغون صرف أهله عن حقيقته ، إلى مظهريته ، إلى فروض ميتة ، واختيارات صامته ، مستقرها ومستودعها الضمائر لاتعتدوها .

ولأن الإسلام بمعناه الصحيح يصطدم بحركات سياسية ، ونظم اجتماعية ، ترتبط بها مصالح دول ، أو جماعات ، فلا بد أن يناهضوه ! .

ولأن الاسلام بمعناه الصحيح سيقضى – ولا شك – على مطامع «أفراد» . مكن لهم الاستبداد ، والغفلة ، والاسلام ، أو غير ذلك ، فكان لابد لهم أن يعارضوه !

ولأن الإسلام الصحيح ، يحرر العقول من الأوهام ، والقلوب من عبادة الخرافات ، ولأنه لايقف عند النظرة الإقليمية ، ولا القومية المحلية ، ولا يرضى عن النظرة الطبقية ، ولأنه يحارب الأستعمار فى جميع صوره ، ومنها ، ومن أخطرها : الاستعمار الفكرى ، الذى عشش فى بعض الأذهان ـــ لأن الإسلام كذلك ، كان

لابد لعبيد هذه الآفات من معارضته .

ومن جهلت نفسه قدره
رأى غيره فيه مالا يرى

إن هذه النتيجة ، التى تعارض الإسلام ، وتجافى حقيقته ليست جهد فرد ، ولا جهد جماعة ، إنها ثمرة جهود متضافرة : من الاستعمار العسكرى ، والفكرى ، والجهد الاسشراقى ، والعداء الصليبى ، ونظم سياسية ، واجتماعية مجافيه للإسلام !

كما أنها ثمرة لجهل المسلمين بعامة ، وضعف علمائهم بخاصة !

وأشد من هذا الجهل ، وهذا الضعف ، أن نتجاهل الجهل والضعف ، فيصل أعداء الإسلام ، وهم أعداء أنفسهم ، إلى غايتهم من حرب الإسلام ، فيالها من مطابقة .

مطابقة :

على أنه لايهمنا من مقاصد كاتب السقوط ، سواء

منها الأساسية ، أو الفرعية ، والمقصودة ، أو اللازمة . بقدر مايُهمنا المطابقة بينها وبين أغراض أعداء الإسلام ، من الاستعماريين ، والجاهليين ؛ لأن هذه المطابقة توجد تعاونا مقصودا ، أو غير مقصود بين (مسلمين اسميين) وأعداء الإسلام والمسلمين . وأى مطمع لعدو محارب ، فى الظاهر ، أو الباطن فوق ذلك ؟

إنها خيانة مكشوفة حاسرة ، أو مستورة مقنعة . للإسلام ، والمسلمين ، وللوطن والمواطنين وينجلى هذا التعاون فى كتاب السقوط فى مواضع متعددات . مما سبق تحديد مكانه منه .

خامسا : فليقترب الكاتب منا خطوة .

سؤال منطقى أتوجه به إلى صاحب الأسلوب المنطقى فى كتابه قبل السقوط :

إن الملزوم لاينفك عن لازمه ، فإذا كان قيام الحكم الإسلامى يستلزم الظلم ، والأستبداد ، والكهانة ، والقتل ، والقلق ، فهل زالت هذه المظالم والمآثم عنا ،

وقد تخلينا عن الإسلام الدولة ؟

فإذا كان الجواب الصحيح أننا فى ظل الحكومات المدنية الأوربية التى يستمسك بها الكاتب لم يسلم من ذلك كان مازعم من التلازم بين الحكم الإسلامى وهذه المفاسد باطلا .

وتعين أن يكون لها أسباب أخرى ، الإسلام أول من يحاربها ، ويحض على مقاومتها ، وبذلك يتبين أن الربط بين حكومة الإسلام وهذه الآثام ، ربط بين نتيجة لاتؤخذ من مقدماتها . إنه على التحقيق ، والتدقيق ربط بين نقيضين .

وضعف الرابطة بين المقدمات والنتائج سمة عامة فى استنتاجات الكتاب كله ! سوف أخصها بمقال ، إن شاء الله .

فإذا ماصح أن ترك الإسلام الدولة قد جمع على المسلمين ظلما أشد وأنكى ، وهو ضياع أوطانهم وذهاب سلطانهم ، وتحكم أعدائهم ، وتشويش

فكرهم ، وإضعاف صلتهم بدينهم ... فأى إخلاص يدعوا إلى ترك الإسلام الدولة ؟ وأى مخلص يؤمن بذلك ، فضلا عن الدعوة إليه ؟ فضلا عن القسم على بذل النفس فى سبيله ، والتصدى لمانعه الأكبر والأول ، ألا وهو تطبيق شريعته ؟!! .

إن رفض الإسلام الدولة ، لهذه المخاوف (الاحتمالية) والتداعيات الخيالية ، التى يبثها الكاتب فى كتابه بثا ، كمثل من يرفض الإيمان بالله لمجرد فرضيات ذهنية بعدم وجوده ، فهو يطلب ، لكى يؤمن ، أن يرى الله جهرة ، وأن يكلمه كفاحا !! .

وإن مثل رفض الدعاة إلى الإسلام كمثل رجل لايهتدى طريقه ، لقى جماعة تدعوه إلى الهدى ، فأبى عليها ؛ لاحتمالات ذهنية ، وسوس إليه بها شيطانه .

سادسا : عوامل تكوين الجماعات الدينية :

والكاتب ـــ على عادته فى ضعف الرابطة بين مقدماته ونتائجه ـــ يعود بأسباب وجود الجماعات

الدينية إلى أسباب ، لوصحت . لكانت عوامل تقوية ، لاعوامل وجود ، ويدعى عدم وجودها في ظروف قومية كثورة ١٩ ، ومعاهدة ٣٦ ، والاستقرار القومى في خمس السنوات الأولى من حكم الملك فاروق

ومن المؤكد أن الشعور الدينى كان من أكبر أسباب إشعال الثورة القومية سنة ١٩

ومن اليقين أن أكبر جماعة دينية معاصرة كان تكونها إثر معاهدة سنة ٣٦ .

بل إنه من اليقين أن الشعور بالرابطة الدينية ، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية كانت منذ أواخر القرن الماضى ؛ لشدة وطأة الاستعمار ، وتربصه بإرث (الرجل المريض) : تركيا ، إلى عوامل كثيرة تلت ذلك ، منها :

١ ــ شعور العرب والمسلمين بفقدانهم استقلالهم السياسى .

٢ ــ وشعور العرب خاصة بالخديعة الاستعمارية

عقب الحرب العالمية الأولى ، وإضاعتهم الخلافة الإسلامية ؛ لخلابة استعمارية ، فإذا الحلم خديعة ، وسراب بقيعة ! .

٣ ـــ والمؤامرات الصهيونية ، وتحالفها مع الاستعمار على سلب قلب الوطن العربى ، وتمزيق جسده .

٤ ـــ وفشل الحكومات التى قامت على نظام أوربى ، وعجزها عن تحقيق آمال الناس فى الداخل والخارج .

٥ ـــ وواضح أنه كان بمصر ، والهند حنين قوى إلى عودة الخلافة ، فى إحداهما ، بعد القضاء عليها فى تركيا فى عام ٢٣ .

٦ ـــ والمآسى السياسية والاجتماعية التى تلت قيام ثورات عربية .

٧ ـــ والعجز عن حل قضايا الاقتصاد على أساس استقلالى بعيد عن فشل التجاريب الشرقية والغربية .

٨ ــ وفشل النظم التعليمية والتربوية ، وعجزها عن تخريج مثل طيبة أمام الشباب ، وعجزها عن تربية الشباب تربية تجعلهم ذوى قدرة على مواجهة الحياة ..

٩ ــ ثم ظهور المثل السيئة بعد الاستقلال السياسي ، والتى كانت الأمور بيدها ، والتى تحقق على أيديها آثام تؤود الجبال ، فى مجالات التسلط ، والسلب ، وإهدار كرامة الإنسان .

١٠ ــ والفوارق الاجتماعية الشاسعة ، وما يتمتع به الحكام من النعّمة والترف .

كل ذلك ، وغيره ، دفع أجيالا من الشباب ، والمصلحين إلى الدعوة إلى إحياء القيم الإسلامية ، تغذيها مشاعر الدين ، وعقلانية الإسلام .

وليس هناك تلازم (دينى) ، (ولا إسلامى) ، (ولا عقلى) ، ولا تاريخى بين ما كان ، أو ماقد يكون ، من خطأ ، وبين قيام حكومة على أساس من هذه القيم .

كما أن الدعوة إلى إحياء القيم الإسلامية ، والمبادىء

القرآنية ، والسنن المحمدية ، ليست دعوة إلى نبذ العصر ، وعلومه ، ولا هى دعوة إلى العود إلى منهاج الحياة اليومية للسلف .

واستشهاد الكاتب بمظاهر بعض الشباب المتدين (ص ٢١ ، ٥٣) من استعمال للسواك ، وتكحيل العينين ، والتسمى بأسماء السلف ، وروح الرفض للحياة ـــ هذا الاستشهاد ، الساخر ، وقوف عند ظاهر الأمر ، وقصور عن التعمق فى أسبابه ، وبواعثه ، وفهم سيىء ، وتجاهل للحقيقية الإسلامية ، والتاريخية ، شبيه به حكمه على الحركات الإسلامية ، والتى سكت ، عامدا ، عن مثيلات لها فى الشرق الإسلامى ، والغرب الأفريقى ، والعمق السودانى .

ولا يقل عنه فى السوء ، والتجاهل ، اتخاذ مقتل عمر ، على يد مجوسى – باعتراف الكاتب – حاقد على دولة أضاعت مجد بلاده ذى الآلاف من السنين . ومقتل عثمان ، على يد متطرفين – باعترافه أيضا – ولا حوادث الفتنة التى عز فيها على كثير معرفة موقع الحق ، يشهد

لذلك عبارة سعد بن أبى وقاص . لاأقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان ، ولسان وشفتان فيقول : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، والتى ساقها الكاتب تحت عنوان الفصل الأول ؛ ليحرف بها الكلم عن مواضعه ، فإن ابن أبى وقاص لم يقل ذلك نفورا من الحكومة الإسلامية ، وهو أحد عمدها القوية ، منذ قاتل وهو صبى فى أحد ، إلى أن أدال ملك فارس فى القادسية ، وشق طريقه إلى المدائن . إنما كانت قولة سعد علاجا سلبيا للفتنة إلى جانب العلاج الفكرى الإيجابى الذى أجراه الإمام على ، وابن عباس ، ثم العلاج الحربى الذى اضطروا إليه اضطرارا ، ولم يكن منه بد .

لقد كان الأحرى ، والأولى ، بالكاتب ، لو كان منصفا حقا ، أن ينظر إلى إيجابيات التاريخ الإسلامى ، وإلى حقائق الإسلام الذاتية ، التى شهد بفضلها منصفون غير مسلمين ، وأن يدعو إلى العود إلى هذه القيم ، واقتراح الضمانات المانعة لما ذكر من سلبيات ، تبين لنا أنه لاتلازم عقليا ، ولاطبيعيا ، ولا واقعيا بينها

وبين حكومة إسلامية .

إن كاتب السقوط ـــ على غير قصد ، أو عن قصد ، الله يعلم ـــ برفضه للحكومة الإسلامية ، داعية قوى إلى الإبقاء على هذا الفشل السياسى ، والاجتماعى ، والثقافى ، والاقتصادى والعسكرى ، وتمزيق الكيان العربى ، والإسلامى ، الذى يعانى منه العرب والمسلمون ، والذى يعطى الفرصة المهيئة لتحقيق آمال يهود ، وأمانيهم التوراتية .

كما أنه ـــ عن قصد ، أو غير قصد ، الله يعلم ـــ يعمد إلى (تبسيط لتحليل الأمور ، عابه عليهم (ص ٢١ ، ٢٢ ، ٥٧) فى وقائع تاريخية معقدة الصلات ، متشابكة الأطراف ، لها جذور تضرب إلى ماقبل الإسلام ، ولهافروع تسمق إلى كيد الأمم الكبرى التى أذهب المسلمون وجودها ، وتتصل بتغير الأحوال ، والأماكن ، وتفاعل الحضارات ، والفلسفات التى واجهها المسلمون ، لم تلبث بعد هذا التفاعل أن

استقرت قواعدها ، واستوت على سوقها ، واندفع المسلمون فى ظلالها الرطيبة ، وقيمها المكينة ، ومبادئها الفريدة ـــ يفتحون أطراف البلاد ، وقلوب العباد ، ويقيمون حضارة إنسانية عامة للبشرية جمعاء ، لم يعرف لها التاريخ مثيلا فى سمو قيمها ، وسرعة انتشارها ، مما جعل فيلسوفا أوربيا ، لم يسلم هو رينان يعترف بعجزه عن معرفة سر هذه السرعة التى لم ير التاريخ مثلها ، والتى دفعت جارودى إلى الإسلام ، بعد تجارب - طال زمانها - أربعين عاما ، تساوى وحدها عمر كاتب السقوط ، وعلماء غربيين يعترفون بسبق المسلمين عليهم فى مجالات العلوم ، ومن أمثال (كاربنسكى) و (مارتون) فضلا عن دائرة المعارف الإنجليزية التى عكف على كتابتها خمسون عالما مسيحيا (راجع : الفكر العلمى ، محاضرات لأستاذنا د . عبد الحليم منتصر ، وأيضا كتابة : العلم فى حياة الإنسان)

ليست هذه هى دعواى إذن ، فلينظر صاحب السقوط مقدار ماعنده من جحود !!

وليست هذه تفسيرات (رجال الدين) الذين يزعم الكاتب أن له فهما يخالف فهمهم (ص ١٦) وليستمع إلى شهادة مصرى معاصر ، ليس كذلك (رجل دين) ينفر الكاتب منه ، ومن فهمه ، يقول د . يوسف إدريس فى أهرام ٦ مايو سنة ١٩٨٥ من مقال بعنوان : التلخيص فى التخليص أنا شخصيا أعتقد أن النهضة الأوربية لم تحدث إلا بتأثير إسلامى عربى كبير تسرب إلى أوربا عن طريق الأندلس، وأن النهضة الأوربية ، بعد قرونها المظلمة الوسطى لم تكن إلا الامتداد الحقيقى للحضارة الإسلامية التى وجدت فى أسبانيا ، وأوجد أعلى مستوى للتحضر البشرى وأزيد عليه أيضا : وفى الحروب الصليبية فى الشرق ، وفى صقلية ، والدردنيل .

إن تجاهل العامل الدينى ، ومحاولة إبعاد الأثر الإسلامى عن توجيه الحياة السياسية ، جموح عن الصراط ، وتجاهل لايجدى لواقع التاريخ الإسلامى .

بل أقول : إن تجاهل العامل الدينى مطلقا تجاهل

لطبيعة الإنسان ، جاء شاهد جموحه ، وشذوذه من ألد أعدائه ، جاء من مجمع نكران الأديان عامة ، مجمع الحكومات العلمانية ، بكل معانيها المادية والإلحادية ، جاء هذا الشاهد من بولندا ، المجتمع الذى نشأت أجياله منذ مايقرب من أربعين سنة ، على تربية معينة ، تأسست على إهمال العامل الدينى ، بل وإنكاره ، لقد جاء هذا الشاهد ليقيم البرهان على الخطأ ، والخطيئة التى تقع فيها التحليلات الإجتماعية ، التى تغفل الدين ، وأثره فى حياة الناس ! .

فلينظر الذين يحاربون الإسلام الدولة ، سواءً أكانوا أولى كلمة سياسية ، أم كلمة فكرية ، أم كانوا من أعوان هؤلاء ، وهؤلاء ، فلينظروا إلى أعقاب هذه الجزيرة ، التى يجرونها على الإسلام ، وأهله ، وهم منهم . وإلى عواقب هذه الجريمة ، التى تقضى على الإسلام وبلاده ، وهم من أهلها !!

سابعا : سؤال طرحه الكاتب :

سؤال طرحه كاتب السقوط على الجماعات الدينية :

ماهو البديل (ص ٥٦) ؟

يقصد : ماهو البديل الإسلامى عن الأوضاع التى يبغون تغييرها ؟

يسأل سؤال المتحدى المعجز .

وكان على الباحث الحر ، ورجل السياسة المنطبق (ص ١٦ ، ٢٠ ، ٣٩) أن يسأل نفسه ، قبل أن يسأل غيره : هل أعطيت هذه الجماعات حقها فى حرية الوجود ، والتنظيم الآمن ؟! .

أليس من الحق أن وضع (البديل) يحتاج إلى الأمن ، كما يحتاج إلى الحوار ، والخبرة ، .. فهل أعطيت هذه الجماعات هذه الفرص ، أم أنها لوحقت بالكبت ، وعذبت بالقهر ، وتوبعت بالتشويه ، وأحيطت بالنكران .

ثم ألا يعلم الكاتب أن من هذه الجماعات ــ فى فترة أمان ــ أقامت المشروعات الاقتصادية والتعليمية ، والطبية ، والعسكرية .. التى كفت جماعتها ، وأعانت وطنها .

ثم ألا يعلم الكاتب أن مشروعات القوانين الإسلامية ، موجودة ، حبيسة الأدراج ، والحجور .

فماذا فعل الكاتب ، وشيعة له لإظهار هذا البديل ؟

وماذا فعل الكاتب وشيعة له ليتبوّأ الإسلام مكانه : عقيدة تعمر القلب ، وشريعة تحكم المجتمع ؟

لكنى نسيت ، وما بالعهد من قدم !

نسيت أن الكاتب الهمام ، المقدس للإسلام يؤمن به ضميرا للفرد ، واحتفالات بالمناسبات ، وتحفيظا لآيات ، وتوقيراً لعمائم ، يأبى أن يقبل منها اعتراض على منكر قائم (ص ١١٨) .

ألا فليخبرنا عبقرى السقوط : أى إسلام هذا ؟ وأى مسلم هوذاك ؟ أهو المضطر ؟ لكن لاأدع نفسى تقتحم منطقة محرمة ، ولأدع الرجل يعبر عن نفسه بنفسه ، فهذه عبارته فى (ص ٥١) : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، شهادة من يدفعه مناخ ردىء إلى رفع شعار الديانة **بديلا** ، **أو سابقا لشعار المواطنة** .

شعار المواطنة الذى قال عنه (ص ٩٩) : لاأعرف معنى لوجودى إلا به ، ولا أعرف شيئا يسبقه لدىّ بدءًا ، أو يعلوه انتهاءً .

فاللهم عياذا بك من كل من قصر فى الدين والعلم باعه ، وطال فى الجهل وأذى عبادك ذراعه . .

الجاهلية الأولى

رحم الله عمر بن الخطاب ، إنها كلمة هو قائلها ، ومازال صدقها باقيا : تنقض عرى الإسلام ، عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية !

وما أصدق تلك المقولة على كثيرمن يناهضون الإسلام اليوم ، أو يكتبون عنه ، منكرين عليه ، متأثرين بواقع ليس من ثمره ، أو مستشهدين بزيغ من طبائع الناس ، أو ناقلين لفكر يجهل حقيقة الإسلام ، أو يناصبه العداء ؛ لبقايا صليبية ، أو جاهلية ، أو لتجاهل فارق القياس بين تاريخ الإسلام ، وتاريخ غيره من الأديان ، أو لحكم جائر ، يؤخذ فيه البرىء بذنب عشيرته !

إنها زلّات أفهام ، وهى شر من زلات الأقدام

إن أمانة البحث عن الحقيقة ، فى الدعوات ، تفرض على الباحث أمورا ، بحكم طبيعة البحث العلمى بعامة ، ثم البحث فى الدعوات خاصة .

أما مايوجبه حق البحث العلمى فهو التجرد : يتجرد من ميولة ، وآرائه الذاتية ، وألا يجعل انحراف الطباع حكما على حقائق الموضوع ، وألا يتجاهل النتائج البعيدة ، والدائمة والشاملة ؛ لأثر جزئى زائل . وعلى العموم ، أن يقوم من الحق مقام الميزان من الأشياء ، فإن لم يستطع ذلك التجرد على كماله ، فليسع إليه بجهده . وعندئذ يعذر فيما فاته ، بل قد يؤجر على فوته .

أما ماتوجبه طبيعة البحث فى الدعوات ، فهو أن يتعرف على حقائقها فى ذاتها ، وأن يتعرف عليهامقايسة بما عليه الناس قبلها فى حياتهم العملية ، والقضايا الفكرية التى تحكم عقولهم ، وتوجه مسارهم ، والقيم الوجدانية التى تسيطر على الشعور والسلوك . وأن يتعرف عليها ، مقيسة بآثارهاالإنسانية ، ومقدار نفعها لبنى الإنسان ، فى نظرة تتعمق الحقائق ، وتمتد فى الآفاق .

بهذا وذاك يعتصم من أخطاء الدراسة التاريخية : فلا يخطىء فى المنهج بسبب الغفلة ، أو التغافل عن عوامل وأسباب ذات أثر فى الموضوع ، ولا يخطىء فى التصوير ، بسبب النظر الجزئى ، ولا يخطىء فى استخلاص النتائج ، وصياغة الأحكام بسبب الخطأ فى المنهج والتصوير !

إن الكاتب أيما كان موضوع كتابته ، لا يصور موضوع كتابته فقط ، بل يصور ذاته أيضا ، فقوله خط تمثاله !

والناظر فى العالم جميعه ، قبل الإسلام ، وفى القرن السادس بخاصة ، يدرك ماكان عليه من فساد كبير ، شمل الحياة كلها ، فى معانيها ومبانيها ، ونخرت منه نظم العالم فى ظاهرها وباطنها ، وسرى فيها الوهن ، وأصابها النتن من جميع نواحيها :

فساد فى نظم الحكم ، انتهى إلى السلطان المطلق ، وعبادة الملوك والحكام .

وفساد فى النظم الاجتماعية ، انتهى إلى الطبقية التى رفعت القلة فوق كل قانون ، ونزلت بالكثرة إلى دركة العجماوات .

وفساد فى الاعتقاد ، قام على الوثنية الصريحة ، أو المستورة ، ورجال الدين ، بين قليل ناج بدينه ، وكثير معاون على الفساد والإثم والعدوان ، أو مشارك فيها بنصيب . وتناحر دينى بين الأديان ، أو بين مذاهب الدين الواحد ، لايهتدون سبيلا فى عقيدته الأولى ، وأساسه الرئيس ، وليس فى فروعه واجتهادياته . واحتكار للدين ، وتجارة باسمه ، حتى فى أخص قضايا الإله : الثواب والعقاب ، والتوبة والغفران !

وفساد فى الاقتصاد ، جعل الترف ونعمة الحياة حقا لثلة الحاكمين وأشياعهم من الجند ورجال الكهانة وجعل الشظف وقساوة العيش مفروضة على عامة الناس ، وأقام نظامه كله على (اقتصاد العبيد) .

وعلى الإجمال حكمت العالم كله هذه القضايا :

١ ـــ الفساد الديني ، الذى جهل الناس فيه دينهم ، وخالقهم ، معبودهم الحق ، وضلوا عن سواء السبيل فى تصور ذاته ، وما يجب لها من صفات الجلال والكمال والجمال : حكى الرحالة الصينى (هوثن سوثنج) الذى قام برحلة بين عامى ٦٣٠ ـــ ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذى أقامه الملك (هرش) الذى حكم الهند من ٦٠٦ ـــ ٦٤٧ م : أقام الملك احتفالاً عظيما ، اشترك فيه عدد كبير جدا من علماء الديانات السائدة فى الهند . وقد نصب الملك تمثالاً ذهبيا (لبوذة) على منارة تعلو خمسين ذراعا ، وخرج بتمثال آخر لبوذه أصغر من التمثال الأول ، فى موكب حافل ، وقام الملك ، إلى جنب التمثال بمظلة يظلل بها الإله ، وقام ، إلى الجنب الآخر ملك آخر ، حليف ،» يذب عن الإله الذباب !![1] .

كذلك مايحدّث به بعض المؤرخين من أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات ،

---

١ ـــ أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٥٦ - ٥٨

والنساء يعبدون الرجال العراة ، وكان كهنة المعابد ، الذين يرزءون الراهبات ، الزائرات ، يباشرون هذا الفسق فى دور العبادة ![1]

وبعامة ، كثرت المعبودات ، وراجت صناعة التماثيل ، ويأبى الله إلا أن يبقى شواهد عليها إلى اليوم ، فى شرق آسيا حيث تباع تماثيل الآلهة فى المعابد والأسواق ![2] .

٢ ــ الاستبداد السياسى الذى ملك به الحاكم كل شىء ، ولم يجعل للناس حقا فى أى حق ، وادعى كثير من الملوك أنهم من سلالة الآلهة ، ونظر الناس إليهم على أنهم آلهة ، فوق القانون ، والنقد .

٣ ــ الاستعباد الطبقى ، الذى قسم الناس طبقات لاتسمح للأدنى أن يسمو بخلق أو عمل ...

٤ ــ الفساد الخلقى ، والاجتماعى ، الذى أشبع

---

٢ ــ د . رءوف شلبى : آلهة فى الأسواق

الغرائز ، وجعل النساء ، والمال ملكا لمن انتهب[١] .

كانت تلك حال العالم ، فى جميع بقاع الأرض ، ورقاع المعمورة ، شهد بها كل من كتب فى تاريخه قبل القرن السادس ، وفيه .

ولم يكن من الممكن ، فى هذا الجهل الطامس ، والليل الدامس ، وفى أعاصير هذه المفاسد ، وزئاط هذا التداعى — لبقية الأديان ، أن تقوم بإصلاح ، أ يرجى منها فلاح ، يقول (جيبون) فى كتابه : سقوط الدولة الرومانية : وفى أواخر القرن السادس وصلت الدولة فى تردّيها ، وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم ، فى حين من الأحيان ، تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع ، الذى لايزداد كل يوم إلا ذبولا[٢] .

---

١ — أستاذنا د . محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ص ٢٠٥ ، والملل والنحل للشهر ستانى القسم الأول ص ٢٢٩

٢ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم ص ٤٠

وكذلك لم يكن فى وسع أثارات العلم والفلسفة أن تقوم بما عجزت عنه الأديان ؛ فقد اختبأ مكنونها فى بطون الكتب ، فى أقبيةٍ فى باطن الأرض . وحجب الجهل ، والتقليد ، كل روح صالح ، وكل نور كاشف . على أن هذه الأفكار والفلسفات ، فى إبانها وعنفوان شبابها ، لم تحقق للبشرية خيرها المنشود ، وأملها الموعود . بل كانت ، فى جملتها ، وبالاً على فطرة الإنسان ، وعناصر السموفيه ، وأباحت لعنصر الحيوانية فيه كل مطلب ، وكل مرغوب . ومن شاء الوقوف على ذلك فليرجع إلى كتب الأخلاق وتاريخها ، والفلسفة وتاريخها ، ففيها غناء .

هكذا كان العالم من حول جزيرة العرب

تعاونت هذه العوامل كلها وغيرها على التمكين للوثنية الدينية ، والوثنية الفكرية ، والوثنية المالية ، والوثنية الشهوانية ، والوثنية الطبقية ، والوثنية السياسية ! .

أما العرب فقد كان نصيبهم من قضايا التخلف أنواعا أخرى ، فرضتها عوامل من طبيعة المكان ، وأخرى من طبيعة الإنسان : فرضت عليهم طبيعة الصحراء القاسية نظاما قبليا ، إذا عرف فضيلة فى جانب ، عرف الرذائل فى جوانب .

كما كان لموقع الجزيرة وطبيعتها أثر فى عدم تسرب الأديان إلى قلبها ، إلا قليلا كما كان سببا فى عدم وجود الفكر النظرى ، الذى غالبا مايكون ناشئا عن رغد العيش ، وطول السكون إلى الراحة والفراغ ، إلا ماكان لهم من حكمة عملية ، أملتها تجاريب الحياة ، وابتعثتها امتدادات الصحراء ، وصفاء السماء .

ولم يكن ذلك كافيا ، ولا موصلا إلى الهداية العامة ، أو التعرف على حقيقة العلاقة بين الله والكون والإنسان . والنفوس البشرية ، منذ كانت وإلى زماننا أعجز أن تسمو ، إذا تركت وشأنها ، إلى إدراك الحقيقة المطلقة ، التى هى سر هذه المحسوسات ؛ وهى لذلك ،

تقف عند مظهر من مظاهر الوجود ، كالشمس أو القمر ، أو النور والظلام .. ثم تضعف عن السمو إلى تصوّر السر من وراء هذا المظهر ، وما يدل عليه ، وما يحق له من صفات ، وعن الصفة الصحيحة لعبادته .

تعاونت هذه العوامل على التمكين للوثنية بأنواعها ، فى العالم عامة ، وفى شبه الجزيرة العربية خاصة . وهكذا كان دينهم . وإذا فسد وجدان الدين فسد ، بفساده ، كل وجدان ، فأتبع ذلك : قطيعة الرحم ، التى من حقها أن توصل ، وأن تُبلّ ببلالها ، وقطع الوشيحة التى تفرض وصلها الفطرة السليمة ، وكان من مظاهر هذا الكفران وأد الولد الذى لم يأثم ، بيد الوالد الذى لايتأثّم .

أما عرب الجزيرة ، وقتئذ ، كآمة ، فلم يكونوا أمة بأى معنى سياسى ؛ إذ كانوا أشتاتا من غير رابط ، وهملا من غير جامع ، وأوزاعا لا يظلهم سلطان .

كانوا ، على مافيهم من استعداد للخير ، يجهلون

أنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، فما كانوا يحدثون أنفسهم بذ رض ، فضلا عن أن ينتهوا به إلى غيرهم ، واستنفدوا حيوتهم فى التناحر من أجل التافه واليسير ، وما علموا أن مراد النفوس أهون من أن يتعادوا فيه ، وأن يتفانوا . فعقمت حيويتهم أن تنجب قائما بدعوة ، أو داعيا إلى حياة .

هكذا كان العالم كله يعيش فى ليل موصول الظلام ، مبسوط الهول ، وكان فى أشد الحاجة إلى صيحة من صيحات الحق ، تنبه الوسنان ، وتوقظ الغفلان ، وتحيى الموات ، وترفع الحجب المسدولة على البصائر والأبصار ؛ لعلها تشهد الحق ، ودعوة الخير والجمال ، وتقيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان على قيم غير قيم الحيوان ، وتشرع الطريق إلى بارىء الكون ، فاطر السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور .

* * *

وطلـع الفجـــر

فلما أذن الله لهذا الليل أن يصبح ، ولسحب الجهالة أن تقشّع ، وكان الإسلام هو الصوتَ الندىً الذى ردّ الشارد ، وألف النافر ، وأمن الخائف ، وجمع الشتيت ، وكشف للإنسان عن جوهره ، وكنه وجوده ، ومبدئه ومصيره .. وطلع على الدنيا طلوع الشمس على الليل البهيم ؛ فأحيا الرجاء بعد قنوط ، وأزهر الأمل بعد ذبول ، وأطلع المنى بعد أفول .. وكانت دعوته فيصلا بين عهدين بعيدى الأثر فى حياة بنى الإنسان جميعا : عهد كان الناس فيه يقاسون لهاث الموت ، ويسامون الخسف ، ويمنعون النَّصف .. وعهد استهل فيه الناس استهلال الحياة . فظهر فى هدى الإيمان ضلال الكفر ، وفى قوة الحق انخذال الباطل ، وفى نور الإصلاح ظلام

الفساد ، وفى استقامة الجديد عِوج القديم . وبدأت معارك التطهير والتحرير : فطُهِّرت النفوس من الدخن ، ونظفت العقول من الدخل ، وصفيت الأخلاق من الكدر ، وقَوَّمَّ الشهوات بالورع ، ومحا الطبقات بالمساواة ، وهيأ الفرص بإزالة العقبات ، واستنهض العزائم بالدرجات ، ووثق عرى الجماعة بالإيمان ، وربط بين الناس بأخوق الإنسان، وحقق النظام بالسلطان، وحكم المجتمع بالقرآن وألف بين القلوب بالحب ، وقضى على العصبية بالتقوى ، وعلى الحاجة بالحق المعلوم ، وعلى الجهل بالكتاب المدروس ، والعلم المنشور ، والقلم وما يسطرون . وهذّب القومية بالإنسانية ، والإقليمية بالعالمية ، وحمل النور إلىَ سائر المعمور ؛ فكان وقعه على النظم القائمة ، الهابطة فى روحها وجوهرها ، المشمخرّة فى هيكلها كوقع الصاعقة على ركام من العهن المنفوش ! .

لقد وافت رسالة الإسلام أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، كانوا بين عباد أوثان ، وعباد صلبان ، وعباد

نيران ، وعباد كواكب ، أو دون ذلك من الجماد أو الحيوان ، وبين مغضوب عليهم ، أرادوا الحياة دنيا من غير دين ، أو ضالين ، أرادوا الحياة دينا من غير دنيا ، أو حيران لايعرف له ربا يعبده ، ولا بماذا يعبده . والناس يأكل بعضهم بعضا ، من استحسن شيئا دعا إليه ، وقاتل غيره عليه ، وليس فى الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة ، ولا قيد شبر يشرف بصلة السماء . قد نظر الله إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا قليلة على آثار دين صحيح ، فأغاث الله ، بالاسلام ، البلاد والعباد وكشف به تلك الظلم ، وأحيا الخليقة بعد الموت فأدركت الهدى والحق بعد الفوت ؛ فهدى الله به بعد الضلالة ، وعلّم به من الجهالة ، وكثّر به بعد القِلّة ، وأعزّ به بعد الذلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وفتح به أعينا عميا ، وأسمع به آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية مايمكن أن تناله قواهم ، حتى تجلّب معرفة الله فى قلوب المؤمنين ، وانجابت عنها سحائب الشك ، وأوهام الظنون .

وعرّفهم الطريق الموصلة إلى ربهم ، وإلى رضوانه ، والإقامة فى رحمته فى دار المقامة . وأبان المصادر والموارد ، والمبدأ والمعاد ، حتى أدرك الناس ، بعلم اليقين ، ماغاب عنهم من عين اليقين ، وشرع لهم منهج حياتهم التى يحبونها ، وكيف يسعدون فيها ، وفصّل لهم مايضمن لهم فيها حياة طيبة ، ووضع لهم من مبادىء الحق ، والعدل ، والإخاء ، والمساواة ، والإنسانية .. مافتح له قلوب أهل الأرض أجمعين ، فكان ، بكل معنى من المعانى رحمة الله إلى العالمين .

وامتد تاريخه نحو ألف عام ونصفه ، يقيم للإنسانية حضارة عزّ لها مثال ، فى قيمها وروحها ، قبل شكلها وصورها : حضارة شملت الإنسان من جميع قواه ، ومواهبه ، وحياته بجميع مرافقها ؛ فارتقت الإنسانية ، بالإسلام ، إلى حضارة السياسة والحكم ، ونظم الإدارة والحكومة ، والشرطة والقضاء ، وموارد الدولة ومصارفها ، والحرب والسلام ، وإعداد القوة الرادعة ، والجيش وتدريبه ، وعرفت البشرية ، فى العلاقات

الدولية ، نظاما يجمع بين القوة والعدل ، والنصر والخلق ..

وحضارة المجتمع ، والتعاون على البر ، والأمر بالمعروف والعمل به ، والنهى عن المنكر واجتنابه ، ورعاية من يعيش فى أرضه ، وتحت حكمه ، ولو كان على غير دينه، واحترام الأديان السماوية السابقة والجدال بالتى هى أحسن ، والعدل مع البغض ، واحترام العقل ، ونبذ التقليد على غير بصيرة ، وحب الخير للغير ، وجعله مقياس الإيمان ، حتى إماطة الأذى عن الطريق ، جعلها شعبة من شعب الإيمان ، والوفاء بالوعد والعقد ، والقسط فى الكيل والميزان ، واحترام حق الغير وماله من غير تهاون ، حتى الموت استشهادا فى سبيل الله لا يسقط حقوق المال ! واحترام الدماء ، فلا يهدر دم بغير حق ، والجروح قصاص ، والسمو بعلاقة الجنسين ، فلا فحشاء ، ولا قذف . والرحمة فى التكاليف فلا تكلف نفس إلا وسعها ، والضعيف أمير الركب ، والمرأة قارورة ، لها فضل رعاية وعناية ، مع احترام إنسانيتها ،

فالرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، بعضهم من بعض ، لايضيع عمل عامل منهم ..

وحضارة الأخلاق والعادات ، والتربية والتعليم ، فالعلم مطلوب مفروض ، والتعليم واجب على العالم ..

وللإسلام ، وتاريخه فى كل هذه النواحى نظامه الأصيل ، وشريعته المفروضة ، واجتهاده ، وتجديده ، واقتباسه كل نافع ولو من غير المسلمين ، بحثا عن الصلاح والأصلح لكل زمان ومكان ، فى إطار ماشرع ؛ فالمسلم فى سباق دائم إلى الأحسن ، سباق مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الزمان ! ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ .

* * *

حـظ مصـر

ومن تلك الحضارة ، ومن هذا الخير كان لمصر نصيبها ، وعجّل الله لها قِطّها من حضارة الإسلام وتاريخه ، الذى أصبح جزءا باقيا من تاريخ مصر الذاهب .

جاء الإسلام إلى مصر وهى ولاية رومانية ، أضافها الرومان إلى ملكهم الواسع ، وأصبحت ـــ رسميا ـــ تحت حكمهم منذ سنة ٣٠ ق.م. ومنذ ذلك الحين والرومان يعملون على أن تكون إقطاعية مملوكة لهم، تميز أهلهم بالقمح. ثم منحها الإمبراطور، (أوغسطس)— توفى سنة ١٤م— أفراد جيشه الذى كان ملكا خالصا للإمبراطور، فكانت مصر ملكا لأفراد جيش

الأمبراطور[1] . وليس هذا غريبا على سياسة امبراطورية توضحها هذه الوصية التى أوصى بها أحد أباطرتهم ابنه : فلندلل الجيش ، ولتحتقر الآخرين ![2] .

وكان حظ مصر المسيحية ، من سياسة الرومان أقسى وأشد ، فمنذ أصدر الإمبراطور (دفلديانوس) سنة ٣٠٣ م أمرا عاما باضطهاد المسيحين ، وهدم كنائسهم ، وحرق كتبهم المقدسة ، وطرد ذوى المناصب الرفيعة منهم من مناصبهم ، وحظر تحرير العبيد من المسيحين ، إذا أصروا على الاعتراف بمسيحيتهم — منذ ذلك الأمر الإمبراطورى لقيت مصر مايعادل كل ماتحمله المسيحيون فى أرجاء الإمبراطورية ، بحيث « لو وضع شهداء العالم كله فى كفة وشهداء مصر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة المصريين » ولذلك لاعجب إذا كانت الكنيسة القبطية تتخذ من هذا الحادث مبدءا

---

١ — كافن رايلى : الغرب والعالم ترجمة د . عبد الوهاب المسيرى ، د . هدى عبد السميع حجازى ص ١٤٥ (عالم المعرفة)

٢ — المرجع السابق ص ١٤٦

لتاريخها ، فالتاريخ القبطى يبدأ بعصر الشهداء . ومن صور هذا الاضطهاد أنهم كانوا يكشطون جلودهم بقسوة ، ثم يلقونهم فى النار ، ومنهم من كان يُسمّر على الصليب ورءوسهم منكسة إلى أسفل ، ثم يتركون أحياء حتى يموتوا .. ودامت هذه المحنة ، التى لم ينج من إثمها حتى النساء ، ومنهم (القديسة دميانة) — إلى سنة ٣١٢ م حيث ختمت بإستشهاد بابا الاسكندرية : الأنبا بطرس[١] :

وعندما أصبحت المسيحية دينا للإمبراطورية ، منذ أن اعتنقها قسطنطين سنة ٣١٢ ، وهو يحاول الاستيلاء على روما ، فأعلن أنه رأى صليبا من نور فى السماء مكتوبا عليه : انتصر بهذه العلامة ، وحاول قسطنطين أن يجعل من المسيحية وسيلة لإيجاد الولاء المقطوع بين شعوب الإمبراطورية وحكامها[٢] .

---

١ — موسوعة تاريخ مصر . الأستاذ أحمد حسين جـ ١ ص ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٤٣

٢ — الغرب والعالم ، من سلسلة عالم المعرفة ص ١٤٧

منذ ذلك أصبحت الإمبراطورية الرومانية مسيحية ، سواء كان ذلك عن اقتناع ، أم سياسة ، كما تشير عبارة (كافرين) السابقة ، ولكن ذلك لم يرفع عن المصريين ظلم الرومان ، بل جمع لهم الأضطهاد الدينى إلى الاضطهاد السياسى :

اعتقد الرومان بأن المسيح ذو طبيعتين ، ومشيئتين ، واعتقد المصريون ، ولا يزالون ، أن المسيح طبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة . ومنذ نشأ ذلك الاختلاف والمصريون يلقون العنت من دولتهم الرومية المسيحية ، بل وقعت الامبراطورية كلها فى خلافات مفرقة ، وسقطت فى هاوية التناحر الدينية ، تؤيد (الدولة السياسية) بعض اتجاهاته ، وصارت إلبا على من يخالفها ، ولا سيما مصر وأهلها ، الذين استمروا على عقيدتهم فى طبيعة المسيح : مذهب الطبيعة الواحدة ، وفشلت كل الجهود التى بذلت خلال قرون متعاقبة فى محاولات رأب هذا الصدع . وأخذت الدولة الرومانية تعاقب المصريين إلى حد حرمانهم من نصيبهم فى مخزون

القمح الذى تنتجه أرضهم ، ووقف الألعاب العامة ، وإغلاق الحمامات . وعانى المصريون كثيرا من الضرائب الباهظة ، التى فرضوها على الناس ، والصناعات ، والأرض ، والحيوانات ، والسفن ، وزوجات الجنود ، وأثاث المنازل ، بل على الموتى .

ولما استقر الأمر لهرقل سنة ٦١٠ ، بعد صراع طويل بينه وبين منافسيه السياسيين ، ذاقت منه مصر ويلات وويلات — حاول هرقل أن يعيد إلى الدولة البيزنطية وحدتها ، فأصدر (صورة توفيق) بمنع الناس من الحديث فى طبيعة المسيح ، ورأى أن يعترف الجميع بأن للمسيح (إرادة واحدة) . حاول هرقل أن ينشر هذا المذهب الجديد فى مصر ، فولى حكمها (المقوقس) ، وأسند إليه السلطة السياسية والرئاسة الدينية معا سنة ٦٣١ . وخير المقوقس المصريين بين أمرين : اعتناق مذهب هرقل ، أو الاضطهاد . وأبى المصريون الأمر الأول ، فبدأ المقوقس سياسة الاضطهاد ، وبسبب ذلك

مصر العربية الإسلامية د . على حسنى الخربوطلى

هرب البطريرك القبطى (بنيامين)[1] .

وجاء الإسلام إلى مصر ، وحاكمها المقوقس الرومى : ولكنه عقد الصلح مع المسلمين الفاتحين ، على خلاف رأى الامبراطور الرومانى ؛ وبذلك أنقذت مصر ، وإلى الأبد من الظلم الرومانى بشطريه : السياسى والدينى . يقول د . غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) : لقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانية مصر ، التى كانت مسرحا للإختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن ، وكان من أهل مصر يقتتلون ، ويتلاعنون بفعل تلك الخلافات . وكانت مصر ، التى أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام يحقد شعبها أشد الحقد على سادته الروم ، وتنتظر مصر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية

---

١ ــ موسوعة تاريخ مصر ص ٣٦٢ ، مصر العربية الإسلامية ص٩ - ١٠

الظالمين[1] .

وهذه هي شهادة ذوى الشأن من قبط مصر إبان الفتح ؛ فقد كتب أسقف الإسكندرية ، عندما بلغه قدوم عمر بن العاصي ، إلى القبط يأمرهم بتلقي عمرو . وعامل المسلمون الأقباط بسياسة الإسلام فى الصلح والمعاهدات ؛ فلم يقاتلوهم ؛ لأن المحارب المسلم يكف عمن كف ، ويقاتل من قاتل . ومن دخل من المصرين الإسلام أصبح من المسلمين من غير فارق ، ومن بقى على دينه فله حريته فى الاستمساك به ، وإقامة شعائره ، واحترام دور عبادته ، وعلى المسلمين حمايته ورعايته ، وكتب عمرو لهم بذلك ، وكتب أمانا لبطريق الإسكندرية (بنيامين) وأعاده إلى وظيفته الدينية ، التى استبعده منها الروم النصارى ثلاث عشرة سنة . ويعترف المؤرخ (أرنولد) بحسن معاملة المسلمين الفاتحين فيقول : يرجع النجاح الذى أجرزه الفاتحون العرب إلى

١ ـــ حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، وراجع ماذا خسر العالم لأبى الحسن الندوى ص ٤٠

ما لاقوة من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ؛ لما عرف به من الإدارة الظالمة ، وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت .

أحسن العرب الفاتحون معاملة القبط ، لمبدأ عام من مبادىء الحرب فى الإسلام ، فى حسن معاملة غيرهم ، وقصر الحرب على من قاتل ، من غير اتباع لهارب ، ولا تزفيف على جريح ، ولا إفساد للمرافق ، ولا إتلاف للزرع والغرس ، ولا قتل للنساء والولدان والرهبان ...

وأيضا لوصية خاصة بأهل مصر ، لما لهم من نسب يرجع إلى جد العرب ، إسماعيل ، فإن أمه هاجر مصرية ، ولما لهم من صهر يرجع إلى مارية القبطية ، أم إبراهيم ، ولد رسول الله ، فاجتمع للمصريين حسن المعاملة بالمبادىء الإسلامية العامة ، والوصية الخاصة . وشواهد التاريخ ناطقة بذلك ، بما لم تحلم به مدنية العصر ، وقصة المصرى القبطى مع ابن أمير مصر ،

---

١ ــ مصر العربية الإسلامية ص ٢١

عمرو ، معروفة مشهورة ، والمبدآن اللذان وضعهما عمر ، فى سياسته الإسلامية ، بسبب هذه الحادثة أعجب من الانتصاف لقبطى من مسلم ، الأول : مؤاخذة الحاكم بذنب أهله الذين استغلوا سلطانه ، قال عمر للمصرى ، بعد أن اقتص من ابن عمرو ، اضرب على صلعة عمرو ؛ فباسمه ضربك !! والثانى : تقرير حرية الإنسان ، وأنها قانون الله الطبيعى ، وليست منحة من حاكم ، ولا غيره ، قال عمر لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !!

وإذا كان هذا فى القصاص ، والحقوق الإنسانية ، فمثله ، فى العجب والغرابة ، فى الحقوق المالية ؛ فلما ضم عمرو دار عجوز إلى مسجده ليتم بها زاوية المسجد ، أمره عمر برد دارها ، وبنائها !!

لقد نقل الإسلام الإنسانية ، فى مصر وغيرها ، نقلة حضارية واسعة خطاها ، بعيدا مداها ، خالداً أثرها ، لايجحدها إلا شديد اللجاجة فى العتو والنفور .

وفى ظل هذه المبادىء الإسلامية ، التى كانت جديدة على العالم ، شديدة الغرابة عنده ، دخل كثير من المصريين ، بل والروم ، فى الإسلام ، طائعين غير مكرهين ؛ إعجابا بقيمه ومبادئه . ومن بقى منهم على دينه ردت لهم كنائسهم التى كان شركاؤهم فى الدين ، أعداؤهم فى المذهب ، قد استولوا عليها ، وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة ، والحكومة حكومة إسلامية ، فى وهج عاطفتها الدينية ، وفى زهو انتصاراتها الحربية على القوتين الكبرتين فى العالم فى وقتها ، ولكنه حكم الإسلام !

وكذلك سمح العرب المسلمون الحاكمون للمصريين بالاحتفال بأعيادهم ، وكان عيد وفاء النيل عيدا عاما يشترك فيه الولاة المسلمون والأقباط على السواء .

وفى ظل الحكم الإسلامى فى مصر إبان الفتح تولى الأقباط مناصب كبرى ، كما شغلوا معظم الوظائف الإدارية . وقامت فى مصر ، كما قامت فى كل بلد نزله الإسلام ، حضارة مادية ومعنوية إسلامية ، تناولت

الإنسان ، وحياته ، ومرافقه من كل جانب ، وامتزج العرب المسلمون الفاتحون بالشعوب التى قهروها بالفتح ، وجذبوها بالقيم ، امتزاج الروح بالجسد والدم بالقلب ، وأشادوا حضارة أسهم فى إعلائها المصرى ، والرومى ، والبربرى ، والفارسى والهندى ، والأوربى ، ونبغ فيها ، من غير العرب ، نوابغ وأعلام ، ماكان لهم أن ينبغوا لولا الإسلام ، الذى قرر أن الله خلق الناس شعوبا وقبائل ، من نفس واحدة ؛ ليتعارفوا ويتعاونوا ، فى وحدة إنسانية ، تؤسسها وحدة الخلْق ، وتعليها وحدة العبادة ، وتحدوها وحدة المصير إلى الله رب العالمين . وحدة إنسانية ميزانها بين الخلق واحد ، لايرجح بنوع الدم ، ولا الطبقة ، ولا الجنس .. ولا غيرها مما ليس للإرادة الإنسانية علاقة به ، إنه ميزان واحد يستبق فيه الناس جميعا ، فمن رجح به رجح وإن كان من غير العرب ، ومن خف به خف ولو كان من ولد رسول الإسلام . ولم تكن هذه القيم الإسلامية مجرد عظات تلقى فى المساجد ، أو مجرد دعوة للضمائر ، كما

يريد لها صاحب السقوط ، بل أخذت طريقها إلى المجتمع ، وحياة الناس ، وتمثلت فى كل بقعة دخلت الإسلام ، واحتكم إليها جميع الناس ، بما قرر الإسلام أن الاختلاف بين الناس ليس اختلاف تناقض ، بل هو اختلاف تنوع للتكامل ، يكمل بعضهم بعضا :

﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ وحدة الأصل الجامعة .

﴿ **وجعلناكم شعوبا وقبائل ...** ﴾ اختلاف تنوع

﴿ **لتعارفوا** ﴾ التكامل بالتنوع

﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وحدة الميزان

﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ وحدة الحساب والمصير

هذه القيم ، والمبادىء (الداخلية) فى الأمة الإسلامية ، (والداخلة) فى نسيج الجماعة الإسلامية هى الأساس الذى أقامه الإسلام للانطلاق (الخارجى) ، فحمل المسلمون هذه القيم والمبادىء إلى العالمين ، بعد أن كونتهم فكرا وشعورا ، واحتملوا فى

سبيلها ماتنوء به الجبال ، حتى أصبحت (واقعا) متمثلا فى شخوصهم ، وجماعاتهم ، ولم تكن تلك المبادىء (هيام شاعر) ولا (آمال فيلسوف) . إنها القيم التى فتح بها أفراد من المسلمين ، وجماعات منهم بلادا من قبل أن يمهد لهم جيش ، ولا يؤازرهم سلطان ، ولا يغرى بهم عرض ولا مال .

ومدوّنات هذه الحضارة ، ومصادرها المكتوبة ، بلغة العرب وغيرها معروفة ، ومقروءة ، وكثير منها فى خزائن مكتبات أمم الحضارة اليوم . وآثارها الباقية فى الشرق والغرب باقية شاهدة . وهذا وذاك يعرفه الولى والعدو ، ويقرّبه المؤمن والختار الكفور . فما بال بعض الكاتبين يرى الشوك فى الورود ، ويعمى أن يرى فوقها الندى إكليلا !! .

إن القليل ، مما كان القادة المسلمون يفرضونه ليمتاز غير المسلمين عن المسلمين ، إنما كان حالة ضرورة أملتها ظروف الدولة الناشئة ، لحمايتها من كيد الروم والفرس الذين كانوا يتربصون بالدولة الناشئة الدوائر ، ويكيدون

لها بليل ، ويبثون فيها العيون ... فلما زالت هذه الضرورة ، زالت شعاراتها ، وتمت للمجتمع وحدته في ظل المبدأ الإسلامى ﴿ **لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ ففى قاعدة حماية الدين والوطن ، وسلامتهما :

يعم الخير ﴿ **أن تبروهم** ﴾
ويحكم العدل ﴿ **وتقسطوا إليهم** ﴾
تحت مراقبة الله ، وقاعدته العامة ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾

وفى ساحة هذه المبادىء يتزوج المسلم الكتابية ، ويكون أخوال أولاده هودا أو نصارى ، ويبّر المسلم والديه المشركين ، ويجاور المسلم غير المسلمين ، ويأكل طعامهم ويأكلون طعامه ، ويؤاسيهم ويؤاسونه ، ويتعاملون معا بصنوف المعاملات .. فى ظل قاعدة إسلامية لم تعرفها الإنسانية قبل الإسلام : لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا !

إن الإسلام ، بالنسبة للعربى غير المسلم جزء من تاريخ أمته ، وحضارة تاريخها ، وهو بذلك أصبح جزءا من مقوماته التاريخية والروحية .

إننا ــ نحن المسلمين ــ إذا فارقنا المواطنين غير المسلمين فى العقيدة ، يجمعنا وإياهم تاريخ مشترك له أثره الموحّد فى التربية ، واللغة ، والشمائل ، والوطنية ..

إنه إذا كانت وحدة عناصر الأمة ، عند كاتب السقوط وشيعته ، قضية وطنية ، يخشى عليها من الإسلام صـ ٧٧ فهى عند المسلمين ودعاتهم عقيدة دينية أيضا ! فأيهما أقوى التصاقا بضمير صاحبه ؟ وأيهما أقوى باعثا على الوحدة والتماسك ؟

لذلك نجد كثيرا من القبط والمسيحيين العرب يقبلون الإسلام من هذه الجهة : جهة الأمة ، والتاريخ ، ويعبرون عن اعتزازهم بما حقق الإسلام . يقول د . قسطنطين زريق ، الذى كان مديرا لجامعة دمشق ، فى كتابه (الوعى القومى) : والنبى محمد هو ، من

ناحية ، نبى الإسلام ، وعليه أنزل الدين الكريم ، وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحى ثقافتنا العربية .. وواجب كل عربى ، إذن ، بصرف النظر عن معتقده الدينى ، أن يدرس الإسلام . والنبى محمد ، من جهة ثانية ، موحد العرب ، وجامع شملهم ...) .

ويقول الشاعر القروى ، رشيد الخورى :

أتجفّ أوراق العروبة فى ربى
لبنان ، وهى نضيرة فى يذبل
أتريد أعظم من أبى بكر ، ومن
عمر ، إذا انتسب الكرام ، ومن على ؟!

ويقول :

سل عهد شامى وبغدادى وأندلسى
عن عمق فلسفتى عن عدل أحكامى
شغلت قلبى بحب المصطفى ، وغدت
عروبتى مثلى الأعلى وإسلامى[1]

---

١ ـــ أستاذنا د . عبد الرحمن البزاز : أبحاث فى القومية ص ٥٥ - ٥٦

إن الدعوة إلى « القومية المحلية » : مصرية .. مصرية ، مصرية صاحب السقوط ، تحمل فى طياتها :

١ ــ انغلاقا فكريا ، لم يصل إلى مستوى هؤلاء الذين أدركوا أن الإسلام جزء من مقوماتهم .

٢ ــ وانغلاقا حضاريا ، يتنافى مع روح العصر ، بله حضارة الإسلام .

٣ ــ وتفقد ، بإبعادها الإسلام ، أقوى داع ، يجعل الوحدة الوطنية مطلبا عقديا .

٤ ــ ثم هى تحمل تمزيقا للوحدة العربية ، تساوى به دعوة : العراق البابلية ، أو الأشورية ، ودعوة : لبنان الفينيقة ، ومصر الفرعونية ...

وحين يذهب كاتب السقوط هذا المذهب ، نجد مؤرخاً إنجليزيا كبيرا ، معاصرا ، هو (أرنولد تونبى) يقول : إنه يغبط العرب لما تضفيه عليهم صفة الأمة العربية من وحدة ، حتى يشعر العربى أنه فى داره ، مادام فى بلد عربى إسلامى ، فالعراق ، أو المصرى ، أو

النجدى ، أو الحجازى ، أو المراكشى ، أو التونسى .. لايجد فرقا فى الجو الاجتماعى ، وروح الحياة العربية ، وعقليتها السياسية بين الرباط ، وتونس ، والجزائر ، والقاهرة ، وجده ، ودمشق ، وبغداد ، والبصرة[1] .

أقول : وهو كذلك ، إذا التقى بالمسلم فى كل مكان !

قال المستشرق الفرنسى المشهور (ماسنيون) : إن البعث الدولى للغة العربية عامل أساسى فى إشاعة السلام بين الأمم فى المستقبل . ولقد كانت هذه اللغة ، فى نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين — وأنامنهم — وما تزال لغة الحرية العليا ، ووحى الحب والرغبة التى تتطلب إلى الله — أن يكشف عن وجهه الكريم[2] .

مصرية .. مصرية ، نعم ، ولكنّ ههنا أمراً مهما يجب ألا يغفل عنه كل مصرى مخلص ، يجب أن يكون

---

١ — المرجع السابق ص ٥٣

٢ — المرجع السابق ص ٣٦

واسع النظرة ، عميق الفهم ، ليسلم حكمه ، وتسلم دعوته

هذا الأمر هو : ماهية النظرة التى تنظر إلينا بها الدول الكبرى

إن الكاتب ، كاتب السقوط ، فى دعوته إلى المصرية ، ومحاربته (الإسلامية) يرى أن القاعدة فى السياسة الدولية أن القوة فوق الحجة ، والمصلحة قبل المبدأ .. يصدق هذا على الولايات المتحدة الأمريكية ، كما يصدق على الاتحاد السوفيتى .. ليس هذا فحسب ، بل إن الأمر الأهم أن الدول التى تتبنى شعارات : الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، والعدل ، إنما يعنيها ، فى الأساس ، أن تطبق هذه المبادىء داخل حدودها ، أما خارجها فإنها قد تتعاون مع أكثر الأنظمة خروجا على هذه المبادىء (ص ١٧٩) .

وينتهى من ذلك إلى أن مصلحة أمريكا تمثل (احتمالا قائما ، له مايبرره من المنطق ، فى كون الولايات المتحدة

. الأمريكية وراء تصاعد المد السياسى الدينى ... (ص ١٨٠) !!

(وإن هذا الاختيار الإسلامى « الثروى » يبدو أكثر الاختيارات تحقيقا لهدف أمريكا ... وسوف يتمثل ذلك فى مجموعة من المكاسب ، أهمها استقرار المنطقة سياسيا ، خاصة فى مصر ..) .

أقول : بصرف النظر عن تناقض صاحب السقوط فى قوله إن تحقق حكم إسلامى (شكلى) هدف أمريكى ، وبين قوله إن تطبيق الشريعة سيوقع مصر فى حرب طائفية ، وخلافات فقهية ، يخرج فيها (الحنبلى فى مصر الجديدة ، والشافعى فى الزيتون ، والمالكى فى المطرية ، والحنفى فى عين شمس .. إلى السيف دفاعا عن العقيدة) أقول : بصرف النظر عن هذا التناقض لأسأل سؤالا (ظاهره سذاجة ، وباطنه حجة) : ماهى نظرة الدول الكبرى إلى مصر ؟

إنها تنظر إلى مصر على أنها قلب العالم الإسلامى ،

فإذا أسكتت هذا القلب ، مات جسده !

إنها تنظر إلى مصر على أنها عقل العالم الإسلامى ، فإذا طمست هذا الفكر ، عمى كل تفكير بعده !

ومن يرفض هذه الحقيقة ، فلا مندوحة له عن الاعتراف بأنها تنظر إلى مصر على أنها قلب العالم العربى وفكره وشريانه ! إن زرع إسرائيل فى مكانها لم يكن أمرا مرتجلا ، ولا فكر بادى الرأى . إنما كان عملا مدروسا ؛ لغاية مرموقة .

وتأييدها لإسرائيل على أساس (الحق التاريخى) تراه (مصالح) أم (مبادىء) ؟

وتأييد روسيا للدول الشيوعية ، وجماعاتها (مبدأ) أم (مصلحة)

إن لم نسلم أنها (مبادىء) ، فلا مناص من التسليم بأنها (مبادىء تحقق منافع) أو منافع تحقق مبادىء ، إنها صلات على أساس (مبدأ المنفعة) .

وعلى ذلك فرفض المبدأ مطلقا غير مسلم .

وعلى ذلك فمبدأ مصرية .. مصرية ، عقلة عن غرض غيلان الدول .

وعلى ذلك فمبدأ مصرية .. مصرية ، بلسان مصرى (يتعشق مصر ، ويتعبد فى محرابها) تحقيق لغرض الدول الكبرى (ومنفعتها) من أقرب طريق ، وأيسره .

وما يبلغ الأعداء من جاهل   مايبلغ الجاهل من نفسه

(القاعدة فى السياسة الدولية أن القوة فوق الحجة) نعم ، ولكن لماذا قال صاحب السقوط (دع عنك إذن حديث الساسة عن المصحف والسيف ، فالمصحف فى القلب ، أما السيف فاسأل التاريخ عنه) ــ قال ذلك قبل قوله عن سياسة القوة !

لست أدرى بأيهما نأخذ ؟ (بحديث الرحمة ؛ لأن حديث الرحمة فى عالم اليوم أقرب إلى القلب ، وأن سبيل السماحة ألصق بالوجدان ــ ص ١٩) أم بحديث (القوة فوق الحجة ؟) (حديث الرحمة فى عالم اليوم أقرب) (قاعدة السياسة الدولية القوة فوق الحجة ،

والمصلحة قبل المبدأ) ! ياله من فكر منطق متسق !!

كيف نرفض مبدأ القوة ؟ لست أدرى !

كيف يكون (المصحف فى القلب) ونرفض أوامره بإعداد القوة ، والعزة ، والجهاد ... ؟ لست أدرى !

كيف يكون (المصحف فى القلب) ونرفض تطبيق شريعته ؟ لست أدرى !

كيف يكون (المصحف فى القلب) دون أن يتحول إلى قيادة ، وعمل ، ودستور ؟ لست أدرى !

كيف يكون (المصحف فى القلب) والمصحف يقول (وأن احكم) (ليحكم) (ومن لم يحكم) ثم نقول نحن : (لا للسيف والحكم) ؟ لست أدرى ، وسوف إخال أدرى من أى أنواع الإيمان هذا الإيمان !!

لست أدرى ، وسوف إخال أدرى ، كيف يكون (المصحف فى القلب) عند (الذين جعلوا القرآن عضين) .

لست أدرى أى (قلب) هذا ؟ أهو قلب حجاب ، أم تميمة ، أم قلب سيارة ؟!

لست أدرى ، وياليتنى أدرى كيف يكون (المصحف فى القلب) ونحن نخشى من تنفيذ حدّه فى الزنا من تداعيات تستدعى إغلاق شارع الهرم ، والرقص الشرقى ، وتعديل برامج التليفزيون .. ولا نذكر تداعيات أخرى ، هى الأحق ، والأليق بمقاصد الشريعة من حل مشكلة الإسكان ، والاقتصاد ، والأخلاق العامة .. إن مجرد تطبيق الشريعة لايحيل الدولة إلى دولة مسلمة ، وحكومة إسلامية مالم تلتزم بقواعد الشريعة فى الحكم ، والمال ، والقضاء ، والأخلاق ، وحفظ الدين ، وتحقيق مصالح المسلمين . إن الشريعة ليست هى الحدود فقط ...

إنها كيان كامل يبدأ من لا إله إلا الله ، وينتهى إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لذلك خشى عمر أن يحاسب على عثارِ سخلة بشاطىء الفرات . ولكن كاتب السقوط

يسخر من ذلك ، بدل أن يعتز به ! اهتمت الدولة المسلمة بتعبيد الطريق للأعجم من الحيوان إلى اهتمامها بعقيدة التوحيد .

إنها عين السخط التى تبدى المساوى ، وتنفخ فيها ، وتقضى عن المحاسن ، وتستهزىء بها

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
منى ، وما أذنوا من صالح دفنوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به
وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

(حديث الرحمة ، فى عالم اليوم ، أقرب إلى القلب) !

نبئنا — بعلم — أين هذا العالم ؟ كيف نرجوه ؟ ومن أين السبيل ؟ ومن منا الدليل ؟ إذا ذكر الإسلام خشينا منه الجهاد والسيف ! وإذا ذكرت دول اليوم ، وحضارة اليوم تحدثنا عن القوة والمصلحة !

نعم ، مصلحتهم فى أن ينزع سيف الإسلام ، ويقلم

منه الظفر والناب ! ثم نقول مقالة د . فرج فوده : أيها الصارخون ، والإسلاماه ، وفروا صراخكم ، فالإسلام بخير ، والخطر كله على الإسلام إنما يأتى منكم ! (ص ٨٢) .

هذا ، بقضة وقضيضة ماأراده ، وعمل له الاستعمار الصليبى فى غرب العالم الإسلامى ، وفى شرقه ، ومن أمثلته (حركة القاديانى) فى الهند ، التى رباها الإنجليز ، « والتى أخذت تنشر ، فى العالم الإسلامى ، الفوضى الفكرية ، وعدم الثقة بمصادر الإسلام ، ومراجعه ، وسلفه ، وتقطع صلة الأمة عن ماضيها وعن خير أيامها ، وأفضل رجالها .. وتسىء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه ..»[1] .

وكان من جملة مبادىء القاديانية المخالفة للإسلام : رفض الجهاد بمعنى القوة وأدوات الحرب ، وتفسيره

١ ــ أستاذنا د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٤٧ – ٥٠ نقلا عن: القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام، لأستاذنا أبو الحسن الندوى، من كبار علماء الهند

بمعنى : الوسيلة السلمية للإقناع ؛ لذلك أعلنت إبطال الجهاد المعروف على عهد الرسول وصحابته وأوقفوا العمل بمدلول آيات الجهاد ومايتصل بها فى علاقة المسلمين بغيرهم[1] .

أرجو أن يدرك د . فرج فوده مدى التشابه ، بل التطابق بين دعوته وبين ربائب الاستعمار

لقد وضع الإسلام كلا من (الرحمة) و (القوة) فى موضعه الصحيح : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) والقوة فى الإسلام لمنع الاعتداء ، فيتحقق للمجتمع المسلم السلم العزيز **﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ... ﴾ ﴿ وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله .. ﴾ ﴿ ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم**

---

١ ـ أستاذنا د . محمد البهى : المرجع السابق

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزه على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ..﴾

فهل فى شرائع الناس ، والحضارات ، والواقع ماهو أعدل من ذلك ؟! إنها حضارة الإسلام : حقائقه ووقائعه .

لقد سقط صاحب السقوط فى خطأ منهجى ، يتحاشاه المنصفون ، الذين يحترمون عقولهم ، إذ فاته أهم الحقائق التى سيرت التاريخ ، حين استحوذ على اهتمامه بعض حوادث السياسة ، ووقائع الحروب ، وفاته ، بل فوّت ، أن للمسلمين تاريخا آخر غير تاريخ الفتن والخلافات ، بل إنه فيما نظر من وقائع الحرب والخلاف ، لم يعرض ماكان فيها من قيم الإسلام : فلم يذكر من حياة أبى بكر إلا احتمال أنه قتل مسموما ، ولا يذكر من حياة عمر إلا أن أسلوب إحتمائه بالعدل أصبح غير مجد فى زماننا ، ولا يذكر من حياة عثمان إلا أن (إغتياله كان احتياراً من عثمان نفسه حين رفض اعتزال الحكم ، أو القصاص منه) ولا يذكر من حياة على : إلا

نحو ذلك .

ولا عجب ، فقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
والفم المريض يجد مرابه الماء الزلالا !

ومن أوضح الدلالات على الخطأ المنهجى الذى سقط فيه صاحب السقوط ، أن يجعل اضطهاد الإمام أحمد بن حنبل ــ وهذه واقعة جزئية ــ يجعلها (درسا لمن يتشدقون بعصور إزهار الفكر الإسلامى فى عهد الخلافة العباسية ، وخليق أيضا بأن يكون درسا للحالمين بدولة الخلافة فى عصرنا الحديث ، المقصورين حاكما لا وجود له إلا فى مخيلتهم ، يجمع بين رحمة أبى بكر ، وفقه على .. فيصدعون بما حكم فيهم ، ويقبلّ بعضهم بعضا قبل خروجهم إلى بيت الله ، أيديهم متشابكة ، ويد الله فوق أيديهم ، مؤيدة لهم بالرشد والسداد .. (ص ٣٠) .

وليس هناك ماهو أغرب ، وأبعد عن الإنصاف ، واحترام الذات .. من هذا المنطق ، وهذا الأسلوب . لقد عاب على الدعاة ، فى استنتاجه الثالث لما ذكر من

وقائع التاريخ ، أنهم يهوون التجزئة ، ويهملون فارق القياس (ص ٢٠) . أليس هذا هو مافعله ههنا ؟ يارحمة الله للغافلين ! لعلهم يستيقظون ، يارحمة الله عُمّى ، أو يانقمته خصّى : احضارة العباسين التى قامت ، ودامت قرونا ، وكانت نابتة الحضارة الغربية ، تمحى كلها ، عند هذا الناصح الشفيق ، فى اضطهاد عالم ، لى إلى حديثه عود .

إنها الصورة التى يبغى أن يصورنا بها العدو اللدود ، بل الألد الخصم ! .

* * *

شاهد من الغرب

إن الباحثين المنصفين ، الذين يقدّمون الحق على هواهم ، واليقين على الظنون يقولون عن الإسلام وتاريخه غير مايقول صاحب السقوط . ولا يقفون عند حد القول ، بل إلى مبلغ الدعوة إليه ، والإيمان به ، ورجاء الفيء إلى ظلاله .

هو ذاك فيلسوف الإنجليز ، وأديبها المعروف (برناردشو) يجيب قومه ، وقد سألوه ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن المخرج من عودها ، فيجيبهم : الإسلام !

ليس عندى خبر يقين بموقف (شو) الإيمانى من الإسلام ، ولكن موقفه الفكرى منه قرأناه مرات فى

صدر الشباب ، وهو حى تنقل آثاره إلى الناس أجمعين .

وكما سخط (برناردشو) على حضارة قومه ، ورأى خلاص العالم من ويلاتها فى الإسلام فقد سبقه ، ولحقه من فلاسفة الأوربيين من شهد شهادته ، وقال مقالته :

أما السابق فهو الفيلسوف الفرنسي المستشرق (رينيه جينو) الذى أسلم ، وتسمى باسم : عبد الواحد على ، بعد أن درس جميع العقائد ، فكان إسلامه إسلام العالم المحيط بعقيدته عن بينة . وكانت حياته ، وما عمرت به من بحث ودرس ، ومماته ، بالقاهرة (٧ / ١ / ١٩٥١م) وما أثار من انتباه وتعريف ، كان ذلك كله سببا لتعرف كثير من الغربيين على الإسلام ، بل تعدى الأثر من الأفراد إلى الجماعات ، فتكونت جمعيات تسير على نهجه[١] . .

وأما الفيلسوف اللاحق فهو الفيلسوف الفرنسى ، أيضا د . رجاء جارودى ، الذى مَرَّ ، هو أيضا ،

١ ــ د . الشيخ عبد الحليم محمود : الفيلسوف المسلم رينيه جينو

بتجارب عديدة ، ودراسات مديدة ، بغية التعرف على الحق ، عبّر عنها بقوله : أحب أن أقول إن انتمائى إلى الإسلام لم يأت بمحض الصدفة ، بل جاء بعد رحلة عناء فى البحث ، رحلة طويلة ، تخللتها منعطفات كثيرة ، حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل ، والخلود إلى العقيدة ، والديانة ، التى تمثل الاستقرار . والإسلام ، فى نظرى ، هو الاستقرار[1].

لقد كان أول تعرف لجارودى على الإسلام من خلال موقف حضارى يصور جانبا عمليا من حضارة الإسلام ، فى أخلاقه الحربية ، وليس من خلال درس كلامى ، ولا موقف وعظى فى مسجد ، ولا من خلال احتفال دينى بمناسبة . ولا من خلال أية زاوية من زوايا تصوُّر صاحب السقوط للإسلام ورسالة مسجده . إنه موقف عملى من مبادىء (الإسلام الدولة) الذى

---

١ ــ أبو المجد أحمد حرك : الفيلسوف المسلم رجاء غارودى، نقلا من كلمة غارودى بالإسكندرية المنشورة بجريدة الأخبار فى ١٩٨٣/٣/٢٣م

يرفضه صاحب السقوط ! إنه موقف من خصائص الإسلام ، التى لم يشركه فيها دين ولا نظام .

ولندع (جارودى) نفسه يعبر عن هذا الموقف الذى قال عنه إنه لاينساه ، يقول : أول احتكاك فى حياتى الشخصية ، مع الإسلام ، كان احتكاكا برجال أدين لهم بحياتى ، وقد أدليت بشهادتى على ذلك فى كتاب : (كلام رجل) كان ذلك فى الرابع من مارس سنة ١٩٤٠ م عندما كنا نحو خمسمائة مناضل من المعتقلين ، فى جنوب الجزائر . فى ذلك اليوم أمر قائد المعسكر ، وهو فرنسى ، حاملى الرشاشات الجزائريين بإطلاق النار علينا ، فرفضوا !! كانت المفاجأة : عندما رفض الجنود تنفيذ أمر القائد بإطلاق النار ؛ ولم أفهم السبب . ثم علمت ، بعد ، من (مساعد) جزائرى بالجيش الفرنسى ، كان يعمل فى المعسكر : أن **شرف المحارب المسلم يمنعه** من أن يطلق النار على أعزل ! وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الإسلام ، لقد علمنى هذا الموقف أكثر من دراسة عشر سنوات فى

السربون .

أما الموقف الآخر ، الذى يعتبره جارودى الدرس الثانى لالتقائه بالإسلام ، فهو المبدأ الإسلامى السابق فى الدرس الأول ، ولكن من جانبه الإيجابى ، لاالسلبى : مبدأ معاملة العدو المسلح المحارب ، عرفه جارودى عندما التقى بالشيخ البشير الإبراهيمى ، رئيس رابطة العلماء المسلمين الجزائريين ، ووقعت عينه عنده ، على صورة المجاهد الإسلامى الأمير عبد القادر الجزائرى ، عدو فرنسا ، بلد غارودى ، وعرف طرفا من سيرته فى حربه الاحتلال الفرنسى ، كمبدأ إسلامى فى رفض الخضوع لغاصب ، والذى به أصبح واحدا من أعظم أبطال القرن التاسع عشر ، الذين طلبوا الشهادة فى سبيل الله ، مع قلة النصير ، وقوة العدو وطغيانه . عرف جارودى من هذين الدرسين جانبا من حضارة الإسلام الإنسانية ، ومدى مافيها من سمو ، وعزة ، وحياة ، وحركة .. وكيف أن الإسلام عقيدة عملية ، لاتقتصر على الضمائر والمشاعر ، وأن مكانها هو ميدان الحياة

الرحيب !

لقد تفتحت آفاق جارودى الفكرية على عالم جديد ، لم يجد نفسه الوحيد فى الإعجاب به ، وفى تقديره ، لقد وجد (أناتول فرانس) يقول فى كتابه (الحياة الجميلة) : إن أشأم يوم فى حياة فرنسا هو ذلك اليوم الذى تراجع فيه الفتح العربى الإسلامى لفرنسا ، أمام همجية الفرنجة سنة ٧٣٢ فى معركة (بواتيه) . ولما ضمن جارودى هذه الشهادة محاضرة له فى تونس سنة ١٩٤٥ طرد منها ، فقد كان ذلك جرما عند أرباب الحضارة الغربية ! يقول غارودى : إن ذاكرتى ستحتفظ دوما بهذا النص الذى سبب طردى من تونس سنة ٤٥ بذريعة الدعاوة المضادة لفرنسا ، فقد كان من المحظور تأكيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر إلى حد كبير على الحضارة الأوربية حتى القرن الرابع عشر .

ماأشدها من مفارقة ! د . فرج فوده يرى تاريخ الإسلام كله صفحات سوداء ، لاحضارة فيها ، وهو المسلم المعتز بإسلامه ، وأناتول فرانس يرى ماذكره

جارودى !

ولم يكن هذا رأيا فرديا لهذا وذاك ، بل كان رأى الأوربيين عامة عندما التقوا بالمسلمين أولا . يقول (برناردشو) فى مقدمة مسرحية (اندروكلس والأسد) : إن الصليبيين دهشوا عندما وجدوا أن حضارة المسلمين أرقى من حضارة الأوربيين عند ذاك !

لقد طوّف جارودى بجسده وفكره فى البلاد والأفكار ، وجاس خلال كل الأفكار والديانات ، وشـارك | بالجهد والفكر فى الحركات التقدمية ، وعاش نصف قرن يبحث عن الطريق ، فكانت حصيلة هذا الجهد المضنى فى العمر الطويل اعتناق الإسلام دينا ، والإسلام حضارة ، يقول : إننا ندين للعلم العربى ، لقد ظلت كتب الطب العربية ، تنشر وتدرس فى فرنسا حتى القرن السادس عشر ، وفى انجلترا حتى منتصف القرن التاسع عشر .. وفى الوقت الذى غدت فيه أوربا غير قادرة على معرفة القراءة كان المأمون قد افتتح فى بغداد ، بمساعدة جيش من الكتاب والمترجمين مكتبة ضخمة

هى : دار الحكمة ، وكان الخليفة الأموى (الحاكم) قد وضع فى مكتبة (قرطبة) أكثر من مائة ألف مجلد ، بينما (شارل الخامس) ملك فرنسا ، الذى عرف بالعلم والحكمة ، بعد أربعة قرون من عصر الخليفة المسلم فى قرطبة ، كانت مكتبته لاتضم إلا ألف كتاب ! ... ويبقى (ابن خلدون) الذى عاش بين سنتى ١٣٣٢ م ـــ ١٤٠٦ شخصية عالمية فى مجال العلوم الإنسانية ، إلى جانب اتصافه بأنه دبلوماسى ، ومحارب ، ومؤرخ وعالم اجتماع ، وفيلسوف ، وفنان ! لقد ظل كتاب (تذكرة الكحالين) المرجع المعتمد لطب العيون فى أوربا حتى أواخر القرن التاسع عشر ، وظل كتاب الجبر الذى ألفه عمر الخيام ، ووضع فيه أسس الهندسة التحليلية ـــ مرجعا معتمدا فى فرنسا إلى سنة ١٨٥٦ ...

وذكر جارودى فى هذا المجال أنواعا متعددة من حضارة العرب فى الصناعات ، والاقتصاد ، والفلك ، والمخترعات ، والجغرافيا ، والكيمياء ..

ثم يلخص جارودى موقفه ، وفهمه للإسلام بقوله :
إن الإسلام دين الجمال ، والعقل ، والعمل . إن انتمائى إلى الاسلام لم يكن مصادفة ، ولكن جاء من خلال رحلة طويلة ، مرت بالكثير من المنعطفات ، حتى توصلت إلى اليقين .. لقد بقى الإسلام نقيا ، بلا تحريف .. إن أوربا لم تأخذ من علماء المسلمين إلا العلوم التجريبية ، وتركت ميراثهم الفكرى ، وذلك يجر الحضارة الأوربية إلى الإفلاس ؛ لأن السلوك الأوربى فى صنع الحضارة فصل الغايات عن أسبابها ، شعارها : النمو للنمو ، دون إعطائها أى هدف إنسانى حقيقى . إن أعظم إنجازات العلم فى أوربا لم توضع فى خدمة الإنسان ، بينما وفّر سباق التسلح ، لكل إنسان على الأرض الآن أربع أطنان من المتفجرات ، لكن الإسلام لايفرق فى بحثه بين الأسباب والغايات ، أى لايكتفى بالسؤال : كيف ؟ بل يضم إليه السؤال : لماذا ؟ ولذلك ، فإن الحضارة الأوربية على وشك أن تموت ؛ لأنه ليس لها غايات[1] .

---

١ ـ الفيلسوف المسلم جارودى ص٦٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥

هذه الصورة التى عرضها هؤلاء الغربيون لحضارة الإسلام ، هل من الممكن أن تنشأ فى فراغ ؟ هل من الممكن ، فى علوم التاريخ ، والاجتماع ، والنفس ، أن تنشأ ، وتزدهر ، وتبقى فى نظم سياسية ظالمة يحكمها السيف والنطع ، والسياف مسرور ؟ أم أنه الخضوع للهوى ؟ وضعف الربط بين المقدمات والنتائج ؟ ، وهما : خضوع الهوى ، وضعف الربط والاستنتاج ، صفتان بارزتان فى كتابة صاحب السقوط .

* * *

د . جارودى ود . زكى نجيب

عرف جارودى الإسلام دينا ودولة ، ونظاما وحضارة ، وكان إسلامه حصيلة هذه المعرفة ، وثمرة هذا الدرس المتجرد ، للإسلام عقيدة ونظاما ، ودينا ودولة .

ولكن د . زكى نجيب محمود ، عقب زيارة جارودى القاهرة فى ١٨/٣/١٩٨٣م؛ لحضور احتفالات العيد الألفى للأزهر ــ كتب ، فى الأهرام ، متمنيا أن كان إسلام جارودى عن معرفة بعقيدة الإسلام ، لابحضارته .

ولست أرى وجها لهذا التمنى ، بعد أن شهدت نصوص الرجل بمعرفته الإسلام دينا ودنيا ، وعرفه ،

ودرسه ، من جانبيه النظرى والعملى ، ولم يكن هدفه ، من دراسته ، وتطوافه فى أبعاد الأديان ، والأزمان ، والبشر وحضاراتهم — مجرد (النقد) لعصور تاريخية ، ولا مجرد المدح والإشادة لعصور أخرى . إنما كان هدفه استكشاف الطريق المنقذ لنفسه ، وللبشر ، من حاضر ينذر بمستقبل رهيب . وقد وجد ذلك فى الإسلام دينا ، والإسلام نظاما ، فحرص على تقديمه للناس من جانبه النظامى ؛ ليقابل أنظمة الحضارة القائمة .

والدكتور زكى نجيب نفسه قد لحظ هذا الجانب التطبيقى فى حضارة الإسلام ، الجانب الإنسانى ، الضرورى للجانب المادى ، والذى يؤدى فصله إلى الطغيان والفساد . وقايس د . زكى حضارة الإسلام ، من هذا الجانب الإنسانى بغيرها ، وجعله ميزة حضارة الإسلام ، وخاصتها التى تعطيها مزاقها المميز . كتب ذلك فى عدد مجلة العربى ٢٦٠ ، وبعد حين أعاده فى أحاديثه الأسبوعية فى جريدة الأهرام ، قال : لكل حضارة مذاق خاص ، وهذه الخاصة ، المميزة للحضارة

المعينة ، هى التى عملت على نشأتها فى عنفوانها ، وهى علة اندثارها عند ضعفها . والخاصة التى ميزت الحضارة الإسلامية هي أنها أدارت رحاها على محور الأخلاق . تأمل هذه الآيات من سورة الفجر ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد** ﴾ . هذا العدد القليل من الآيات قد أوجز لنا القول ، إيجازا بليغا ، فى ثلاث حضارات ، وهى حضارات تشابهت كلها فى أنها كلها جعلت (الفن) أساسا لصروحها ، فعاد كانت براعتهم فى فن بناء المدن ، وثمود دارت براعتهم على فن النحت ، ثم يأتى فرعون وما اختارته حضارة مصر ، يومئذ ، من فن المسلات والمعابد .

هى إذن حضارات قامت على فنون ، ولم يكن فى ذلك مايعاب ، لولا أنها قرنت فنونها تلك بطغيان .. لم

تدعمه (الفن) بأخلاق التعاطف بين الإنسان والإنسان ، ونمضى فى قراءة سورة الفجر ، فنقرأ أمثلة من أخلاق السلوك ، التى أعوزت حضارات الفنون ، فهم لم يكونوا يكرمون اليتيم ، ولم يكونوا يطعمون المسكين ، وكانوا يأكلون التراث أكلا لما ، ويحبون المال حبا جما . وجاءت حضارة الإسلام لتكون ، أولا وقبل كل شيء ، حضارة أخلاق . للحضارة الإسلامية أن تضيف إلى نفسها فنا ، وعلما ، وما شاءت أن تضيف ، لكنها إذا لم تميز نفسها بركيزة الأخلاق ، فربما بقيت حضارة ، لكنها لن تكون حضارة إسلامية .ا هـ .

وأقول : وههنا التقى الفيلسوفان الكبيران : جارودى وزكى نجيب فى الاهتداء إلى خصيصة الحضارة الإسلامية ، حيث ضلّ عنها صاحب السقوط ، وكفى بذلك سقوطا .

هذه الخاصة الإسلامية الحضارية هى التى افتقدها جارودى فى حضارة (العلم) كما افتقدها نجيب محمود فى حضارة الفن ، وهى هى التى افتقدها من قبلهما

(توبنى) وسجل ذلك فى كتابه (دراسة فى التاريخ) فى لوحتين معبرتين عن تقويمه لحضارة الاسلام وحضارة أوربا ، وكتب عليهما : اشتهر المسلمون بالتسامح ، بينما حفل تاريخ أوربا المسيحية بالاضطهاد الدينى . وهذه لوحة عن محاكم التفتيش والإعدام فى أسبانيا ، ولوحة إسلامية عن علماء المسلمين يناقشون ممثلى المسيحية فى هدوء .ا هـ .

هذه الخاصة الإسلامية التى أدركها هؤلاء العماليق ، من الكتاب ، والأدباء ، والفلاسفة وأدركها جارودى خاصة ، من خلال تجربة ذاتية ، عايش فيها حضارة قومه . هى التى جعلته يركز على حضارة الإسلام ، من غير إغفال لمبادئه .

إن أخص خصائص الحضارة الإسلامية ، وميزتها الجمالية ، هى اهتمامها بالإنسان ، باعتباره إنسانا ، أيّما كان مكانه ، وزمانه ، واعتقاده . ثم اهتمامها به من جميع جوانبه ، وقواه ، ومواهبه ؛ لإيجاد (توازن) بين هذه الجوانب الفردية ، ثم بين الإنسان والإنسان . ثم بين

الإنسان والمادة ، ثم بين الإنسان وكونه وبين (الحقيقة المطلقة) : الله ، الذى منه مبدؤه ، وإليه منتهاه. بحيث تلتقى فى هذا الإنسان وجدانات الشعور ، ومفاهيم العقل ، وقوانين المادة ، ومبدأ الوجود وغايته .

وإن أخص خصائص الحضارة الأوربية ، وميزتها غير الجمالية تكمن فى نظرها للإنسان من جانبه الحيوانى ، فكانت وسائلها ، وغاياتها التسابق إلى إشباع هذا الجانب ، وتوفير رغباته ، ولو على حساب قواه ، ومواهبه الأخرى ، بل على تعمد نسيانها ، أو نكرانها، بل وتسخير قواه العقلية لخدمة الجانب الحيوانى . ثم النظرة الضيقة لمفهوم الإنسانية ، بحيث أصبح مدلولها محليا ، أو قوميا ، أو جنسيا ، وأصبح المخالف ، لأى من وجهات هذه النظرة أقل شأنا عند الناظر بها ، بل لايستحق عنده اسم الإنسانية .

وبسبب ذلك نشأ هذا القلق الذى يعانى منه إنسان هذه الحضارة ؛ لنظرته الداخلية لأقل جوانبه وقواه .

ثم بسبب النظرة الخارجية الطبقية وقعت الحروب المدمرة ، واستغلال الإنسان للإنسان ، الذى لاشبيه له إلا فى مجتمع الغابة ، وفى ظل هذه النظرات نشأت عند أقوام (ثوابت) لاتقبل عندهم الحوار العقلىّ (كمفهوم الطبقة العاملة) (والبرجوازية) (والجنس الآراى) (والشعب المختار) . واتُّخِذت بعض هذه المفاهيم (دينا) وحسب بعضهم أنهم هم وحدهم الذين يملكون الحقيقة ، بوصفهم غربيين ، أو آريين ، وأن الذين ليسوا من هذا الموقع ، أو الجنس همج ، وبدائيون ، وغير قابلين للتقدم بحكم مكانهم أو جنسهم . وعلى ذلك تنكروا لحضارة العرب المسلمين ، وأشعلت الحروب الصليبية لرد (الكفار المسلمين) إلى حظيرة الإيمان . ونهبت ثروات القارات الأخرى ، حتى إن فرنسا ، وقبل احتلال الجزائر امتنعت عن سداد ثمن القمح الذى كانت تصدره لها الجزائر ، والذى كان (باى) الجزائر يمنحه فرنسا نحلة من غير ثمن ، أو مقابل .

وفى ظل هذه النظرة وقعت الإبادة الجماعية لهنود

أمريكا ، التى أبيد فيها منهم عشرات الملايين، وتجارة الرقيق التى أفنت مائة مليون أفريقى . والحرب النازية ، التى هى قطعة من تاريخ أوربا ، وامتداد لجرائم الأمبريالية الغربية جمعاء ، فقضت على أكثر من ستين مليونا من البشر(١) .

وفى ظلها قام النظام (البلشفى) الذى كانت الصراحة فيه أقرب سبيل إلى الهلاك ، وعدم التبليغ عن العواطف المخالفة يفسر بأنه اشتراك فى هذه الجرائم ، ورضا عنها . وفسرت الديمقراطية الحزبية بإفشاء الأسرار الداخلية ، وهتك الحرية المنزلية ، وجعلت هذه الحرمات من العادات العتيقة البالية ، وأحيط كل شيء ، وكل إنسان بالعيون الرواصد ، والآذان المنصتة ، (وبالطبع كان الشرط الأول للاحتفاظ بعضوية الحزب الشيوعى هو أن تكنّ للقادة ولاء لاذبذبة فيه ، وأن يكون ولاؤك ناصعا لاتشوبه شائبة (ستالين) بوجه خاص ، وإنه ليكفى أن يقول عنك فلان ، عن فلان ، عن فلان

١ ــ الفيلسوف المسلم غارودى ص ٩٦ ، ١٧٧

تلميحا خفيفا يفيد (انحرافك) عن جادة الولاء الخالص ؛ لكى تورد موارد الهلاك[1] . وبهذا السبب وبغيره أعدم (ستالين الملايين) ، وضاعت من الإسلام الجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى[2] .

ومازال العالم اليوم ـــ تحت تأثير هذه النظرة الأوربية للإنسان ـــ يتوقع الحرب المدمرة للبشرية وأصبح العالم ، مع ماهو فيه من قلق ، على شفا الهاوية ، وارتدت كل وسائل القوة فى هذه الحضارة إلى أضدادها : انقلبت وفرة وسائل إشباع الرغبة إلى (قلق) ووسائل السيطرة على الطبيعة إلى (تهديد وخوف وتسابق إلى وسائل الفناء) ووسائل توحيد الأرض إلى (مناطق نفوذ) فكرى وسياسى وحربى !

والمخرج هو الإسلام . الإسلام دينا ، والإسلام

---

١ ـــ فكتور كرا فتشنكو : آثرت الحرية . ترجمة محمد بدران ، د . زكى نجيب محمود ص ٢٠٢

٢ ـــ اقرأ تفاصيل ذلك فى كتاب الجغرافية السياسية لأستاذنا د . إبراهيم أحمد رزقانه

نظاما .

شهد بذلك أولو العلم ، وشهد بذلك التاريخ .

ولم تكن شهادتهم للإسلام ، ولا ميلهم إليه ، ولا اختيارهم إياه ناشئا عن الفقر والعوز ، كما يرى صاحب السقوط حين يقول : إذا سألت عن مواقع تركز الجماعات الدينية الإسلامية فى القاهرة فسوف تكون الإجابة : اذهب إلى المرج ، أو عزبة النخل .. وبالقطع لن يذكر لك أحد الزمالك أو مصر الجديدة — فسوف تكتشف أنك تسير فى مناطق شديدة الفقر .. فى هذه المناطق يجد الاتجاه الإسلامى الثورى مرتعا خصبا .. ولا مجال بالطبع للحديث عن التطرف الدينى فى نادى الجزيرة ، أو هليوبولس .. وكم أتمنى أن يتاح للباحثين دراسة الوضع الاقتصادى والاجتماعى لأعضاء التنظيمات .. (ص ١٧٢ — ١٧٤) .

أين إذن الدراسة الاقتصادية والاجتماعية التى قام بها صاحب السقوط، وأسفرت عن نتائجها عبقريته فى قضية عامة، ومطلب عام، اعترف هو بعمومه،

وشموله، فى صفحات ٦٠ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٧٤ .
ولم يجد منه مخرجا ــ بحكم الديمقراطية إلا أن يقول: دعوا المغالطة، فقضية الحكم الدينى ليست قضية أغلبية وأقلية، بل هى قضية اتفاق عام (ص٨٥).

لماذا هى بالذات، أيها الديمقراطى، الغيور على الديمقراطية، الخائف عليها من استبداد الحكم الاسلامى ــ لماذا هى بالذات قضية اتفاق عام؟ .

على أنه إن كان ولابد، فالمواطنون الأقباط، لفهمهم لروح التشريع الاسلامى، لايمانعون فى تطبيق الشريعة، وقد قال البابا شنودة: إن الأقباط يكونون أسعد حالا فى ظل الشريعة الاسلامية. وإن هذا ــ بمقياس العصر ــ ليس بدعة فالدول ذات الأغلبية المسيحية فى أوربا بها أحزاب مسيحية مثل إيطاليا وفرنسا، وأكبر حزب فى ألمانيا الغربية هو الحزب (الديمقراطى المسيحى) وإن وجود هذا الحزب الذى حكم ألمانيا أكثر من ثلاثين سنة لم يتمخض عنه أى مظهر من مظاهر التعصب للفئات

الأخرى فى المجتمع[1] .

فإذا كان الأمر، مع ذلك، أمر إسلام، أصبحت حقوق الأقليّة دينا. وهذا زيادة تأكيد لها، على ماسلف به البيان.

ثم إذا كان الإسلام نظاما هو العامل الباعث لأهل هذه الأحياء الفقيرة على المطالبة به، لأنه يحفظ حقوقها، فإن هذا مما يظهر سمو الإسلام، ويحسب له، لاعليه، ولم يكن الإسلام مخدراً لها عن واقعها الأليم الذى وصفه الكاتب (ص١٧٣)، بل كان باعثالها على المطالبة به تحقيقا لحقها فى مرتفقات الحياة فى عيش كريم. فأكرم بالإسلام دينا ونظاما.

على أن مقتضى التعليل بالفقر على ماوصف الكاتب يستلزم أن يكون هؤلاء أقرب إلى الانحراف اليسارى من عمال شبرا الخيمة، وحلوان، الذين جعلهم الكاتب أقرب إلى اليسار من غيرهم؛ لارتباطه ـ بزعمه ـ

١ ـ حامد سليمان، الصحفى، فى جريدة الشعب ٣٠ إبريل سنة ١٩٨٥م

بمصالحهم، ولكن صرفهم عنه ماحصلوا عليه من مكاسب، فى قول الكاتب.

وأما عدم وجود التنظيمات الدينية فيما ذكر من نوادى اللهو، وأحياء النعمة، فهذا ــ إن صح على عمومه ــ منطقى مع طبيعة النفس، وعلومها، إذ كان الاستغراق فى اللهو، والغفلة بالنعم صارفا عن التفكر فى حقائق الأديان. بل إن النِّعمة والترف من أهم عوامل هدم الدين والخلق، بَلْهَ الدول. قال ابن خلدون: من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل فى النعيم... وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلا عن الملك... ويبلغ بهم الترف غايته بما تبنَّقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان، المحتاجين للمدافعة عنهم، ويُلبسون على الناس فى الشارة والزى، وركوب الخيل، وحسن الثقافة، يموّهون بها، وهم فى الأكثر أجبن من النسوان.

ثم هم بعد ذلك يعودون يستهزئون من أهل الإيمان

والحق والاستقامة بما حكاه القرآن الكريم ﴿ **مانراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ سورة هـود : ٢٧ .

﴿ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ سورة الشعراء : ١١١ .

والحق الذى يشهد به علم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ الأديان ، أن الطبقة الوسطى هى دائما منطقة تقبل حركات الإصلاح ؛ لأن الطبقة الدنيا فى عمه وبلادة بدناءتها ، وسقوط همتها ، وموت شعورها ، وانعدام الشعور بالعزة الإنسانية ... والطبقة العليا فى شغل فاكهون ، بل هم أحرص الناس على حياة الترف ، والزهد فى الدين ، ولا سيما الإسلام ، لما يحرم عليهم من المتع الحرام ، ولما يوجب عليهم من أن تردّ فضول أموالهم على فقرائهم . إن زيادة الدناءة ، وزيادة الترف كفيلان بإماتة الشعور بالفساد والظلم ، وليس الفساد والظلم هم اللذان يثيران الشعوب ، لكن الإحساس بهما هو الذى

يدعو صاحبه إلى الرغبة فى الخلاص. على أن ذلك ليس يمنع من وجود مشاركين للطبقة الوسطى من جانبيها، والواقع، يشهد بذلك، فى قديم التاريخ وحديثه، ولم يكن (بوذا) إلا أميراً، وكان (كسناى) ١٦٩٤ — ١٧٧٤ — كان أكبر من يمثل رجال الاقتصاد فى فرنسا، ومع ذلك كان أحد الذين أسهموا فى تغيير الفكر الفرنسى الذى مهد لقيام ثورتها، وكذلك كان (فلتير) (ورسو)، وقد كان (نابليون) نفسه ابنا لأب من أسرة شريفة، وأم من إحدى بيوتات جزيرة (كورسيكا). دع عنك الأنبياء جميعا، فكلهم كانوا من أسر لها شرفها. وأخيرا يأتى ذكر هؤلاء الأعلام الغربيين الذين سبق ذكرهم، وشهادتهم للإسلام. فهل كان هؤلاء الأعلام، وناشئة الحضارة من فقراء المرج، أو عزبة النخل، أو المنصورية، أو امبابة؟!

أم هى نظرة الكاتب التى تهوى تجزئة الأمر، وتهمل فارق القياس عن عمد، حتى تصل إلى نتائج تتفق وما سبق أن وقر فى القلب، بأكثر مما يتفق والمنطق وواقع

الأمر ؟!

لقد أخذ كاتب السقوط التاريخ من بعض جوانبه، بل أخص من بعض جوانبه، وجعلها أساسا يبنى عليه أحكامه الكلية، الرافضة للتاريخ الإسلامى كله.

والحق، والعلم يقضيان أن تكون هذه الحوادث الجزئية، ليست موضع انطلاق للبحث عن الحكم الكلى، بل موضع دراسة، مع بقية الأحداث، وجملة النتائج العامة لهذا التاريخ، على نحو يهدى إلى الخصائص الجامعة، والسمات الكلية التى اهتدى إليها هؤلاء المنصفون وهم على علم بما ذكر الكاتب من هذا الجانب غير المضىء، بل هم على علم بما كتب كثير من الأوربيين الذين يحركهم الشعور الصليبى المهزوم، فذهبوا يتتبعون العورات، ويستقصون السقطات، ويطمسون الحسنات، ويحجبون الحق و الواقع بحجب كثيفة من رين القلوب. وليس فيما كتبه كاتب السقوط جديد، بل إفك قديم افتراه وأعانه عليه قوم آخرون!

ماينبغى أن تتخذ الواقعة الجزئية منطلقا للحكم على التاريخ كله، وقياس بقية الوقائع عليها، مع إهمال فارق القياس؛ لنقول: (يستحيل أن يكون ماحدث محض مصادفة ... وهو أيضا يستحيل أن يكون شذوذا، بل الأقرب إلى المنطق أن يكون قاعدة، بل قل، غير مبالغ، إنها طبيعة الأمور ص ٣١) (وأنه إذا جاز أن يقال هذا على عهد الراشدين فإنه يجوز أن تقول ما هو أكثر وأكثر حين تتصدى بالتحليل والنقد لعصور لاحقة ص ١٨)

والآن، بكل الحياد العلمى، ثم بكل الأسى على الحق المذبوح، والجور المفضوح، أطلب من صاحب السقوط أن يقيس دراسته ونتائجها، وهو المسلم المعتز بدينه، المعلن لشهادته (شهادة من يدفعه مناخ ردىء إلى رفع شعار الديانة **بديلا**، أو **سابقا لشعار المواطنة** ص ٥١)ـــ بدراسة هؤلاء العمالقة. ثم أترك لدينه، ولضميره، وخلقه، ثم لحق احترام الذاتـــ تحديد مفارقة القياس!!.

ولكى يتحقق لدراسته العمق، والشمول، ولقياسه شروط الصحة، فى أصله، وفرعه، وعلته، وحكمه — أضع أمامه صورة ثنائية. تتم بها المقايسة: صورة للدولة اليهودية، وصورة للدولة المسيحية، بعدما تقدم من الصورة الإسلامية — ولحديثها بقية — فقد قام لكل من اليهودية و المسيحية دولة فكيف كانت تلك الصورة؟

ومن سوف نستشهد عليهما؟

إننى سوف أكون من الإنصاف بحيث لا أدخل رأيى، ولا استنتاجى. سأتبع الأسلوب التقريرى، ليس الأسلوب التحليلى.

* * *

الدولة اليهودية

فى تاريخ اليهود عهود وعصور كثيرة مرت بهم منذ تحركاتهم من أرض بابل إلى أرض كنعان، حيث أطلق عليهم أهلها (العبرانيين). ولعل أهم عصورهم فى أرض كنعان هو عصر القضاة، وعصر الملوك.

أما عصر القضاة، فقد حكم اليهود فيه قضاة من الكهنة، وكان بعض القضاة نساء. يقول الإصحاح الرابع من سفر القضاة: (دَبُورَة) امرأة نبية، زوجة (تفيدوت) هى قاضية إسرائيل فى ذلك الوقت.

وفى هذا العهد بدأت حياة اليهود تتغير رويدا رويدا، فبدءوا ينتقلون من حياة البدو إلى حياة الاستقرار، ومن حياة الخيام إلى حياة القرى الساذجة، وكان الكنعانيون

أساتذة لهم فى الاستقرار، وبناء القرى، والزراعة. كما تأثروا بهم فى عباداتهم تأثرا كبيرا[1].

وأما عصر الملوك، والانتقال إليه من عصر القضاة، وطبيعة هذا العصر الملكى، فيصوره لنا الإصحاح الثامن صموئيل الأول، إذ يقول: لما شاخ صموئيل جعل بنيه قضاة لبنى إسرائيل، وابنه (يوئيل) و(أبِيًّا) كانا قاضيين.. ولم يسلك ابناه فى طريقه، بل مالا وراء المكسب، وأخذا رشوة، وعوّجا القضاء، فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل.. وقالوا له:.. اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب، فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا.. فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب.. لأنهم لم يرفضوك أنت، **بل إياى رفضوا حتى لاأملك عليهم..** وتركونى وعبدوا آلهة أخرى.. ولكن أشهدنّ عليهم، **وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم...** يأخذ بنيكم، ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه، فيركضون

---

١ ــ د. أحمد شلبى: اليهود ص ٦٨ – ٦٩

أمام مراكبه،.. ويأخذ بناتكم عطّارات، وطبّاخات، وخبازات، ويأخذ حقولكم، وكرومكم، وزيتونكم... ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان، وحميركم.. وأنتم تكونون له عبيدا...

وبيّن الإصحاح التاسع أن هذا الملك كان اسمه (شاول)، كان (شاول) المخلص الذى كانوا ينظرونه.

وبعد موت (شاول) قام صراع بين (داود) وابن (شاول) وتغلب داود (وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود) صموئيل الثانى ص٣: ١، ١٠ (.. إشبوشث بن شاول.. وهو نائم نومة الظهيرة، فدخلا إلى وسط البيت.. وضرباه فى بطنه.. وقتلاه، وقطعا رأسه.. وأتيا برأس إشبوشث إلى داود) صموئيل الثانى (ص٣، ٤).

هذا القتل غيلة، وكثرة الدماء، فى عصر داود، أمر مذكور بتفاصيله فى سفر الملوك الأول وصموئيل الثانى.

وجاء سليمان بعد أبيه داود، وبدأ حكمه بقتل أخيه

(أدونيّا) . الملوك الأول ص ٢ كما أوصاه داود عند موته بالخلاص من (شمْعى) الذى كان داود (حلف له بالرب قائلا إنى لا أميتك بالسيف والآن فلا تُبَرِّره؛ لأنك أنت رجل حكيم، فاعلم ماتفعل به وأَحْدر شيبته بالدم إلى الهاوية) الملوك الأول ص ٢ .

هذه وقائع ملكهم من الجانب السياسى .

أما من الناحية الأخلاقية، فقد جعلوا ملوكهم زناة، وقتله بالحيلة والغدر (صموئيل الثانى ص ٣، ص ١١) . وملكهم الثانى فكان له سبعمائة من النساء، وثلثمائة من السرارى (الملوك الأول ص ١١) .

وأما من ناحية الدين والعقيدة، فقالوا بعبادتهم للتماثيل (صموئيل الأول ص ١٩) عند داود . وأما سليمان فقد (أمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، وذهب وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وبنى لهذه الآلهة المعابد (الملوك الأول ص ١١) .

هذا ملك إسرائيل، كما صوره كتابهم : العهد القديم .

وهذه هى نصوصه الكاشفة عن جوانبه السياسية، والخلقية، والعقدية: دماء تسفك، بيد ملوك أنبياء! وملك يورث، ونساء تُميل، وعبادة أرباب متفرقين، وإقامة معابد لها، بأمر النساء! ونبرأ - بحمد الله - من أن نقول هذا أو نعتقده.

فكيف يرى صاحب كتاب السقوط خلافة الإسلام، وملك الإسلام؟!

لم أسرد تاريخا، ولم أستنطق حوادث.. إنما نقلت من كتابهم المقدس!

ولنمض فى الصورة إلى بعدها الحاضر، والقريب:

تصوّر بروتوكولات حكماء صهيون تدبيرهم لإقامة وحدة عالمية، تخضع لسلطان اليهود، وتديرها حكومة يهودية، ومن هذا التدبير:

ــ تثبيتهم الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وجميع من عداهم كفرة، لم يخلقوا إلا لخدمة اليهود وعلى هذا فمن حق اليهود أن يعاملوهم كالبهائم. والآداب

التى يتمسك بها اليهود لايمكن أن يعاملوا بها (الأميين)، فلهم أن يسرقوهم، ويغشّوهم، ويكذبوا عليهم، ويغتصبوا أموالهم، ويهتكوا أعراضهم...

ــ ومن هذا التدبير: تمزيق الأوطان، والقضاء على الأديان، وإفساد نظم الحكم، بإغراء الملوك والحكام باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد..

ــ ومنه: نشر المذاهب المختلفة كالشيوعية، والرأسمالية.. لتتصارع..

ــ ومنه: نشر الإباحية، والفوضى، وتقويض الأسر، وصلات الود.

ــ ومنه: السيطرة على وسائل الإعلام...

ويرسمون طريق تحقيق هذا التدبير: بتحريك نزولات النفس، وبالمال، وإقامة حكام ذوى ماض هابط، يستذلهم به اليهود، والأخذ بكل الوسائل (فعلينا ــ ونحن نضع خططنا ــ ألا نلتفت إلى ماهو أخلاقى.. إن نجاح دارون، وماركس، ونيتشه قد رتبناه من قبل، وإن

الأثر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم، لدى غير اليهود سيكون واضحا)[1]... وعندما نستحوذ على السلطة يجب أن نمحو كلمة الحرية من معجم الإنسانية.. كان الناس ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الآلهة، فأوحينا إلى العامة بحقوقهم الذاتية، وببشرية الملوك، فانساق العامة خلفنا.. وانقلبت السلطة إلى رجل الشارع لقد بذرنا الخلاف بين كل الأفراد، كما بذرناه بين الأمم، ونشرنا التعصبات الدينية... نحن نسخر فى خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب.. لقد خدعنا الجيل الناشىء.. وجعلناه فاسدا[2] .

وعندما قامت دولة إسرائيل أخذت تنفذ هذه السياسة «ففى الوقت الذى راحت إسرائيل فيه — كما

---

١ — هذا مقصود دكتور عبد الغنى الراجحى من حديثه الذى نقله كاتب السقوط ص ٥٩، وسخر منه، وجعل علامة الخطر فيه (أن الحكم على الفكر يصدر أساسا من منطلق دينى). وهذه هى شهادة وثيقتهم، فماذا قوله الآن؟!

٢ — د. أحمد شلبى: اليهودية، تلخيص البوتوكولات من فكرة عن تاريخها ص ٢٧٢ — ٢٨٦

ورد فى تقرير البنك الدولى ـ تنفق أكثر من ٥٠ ٪ من ميزانيتها على تسليح جهازها العسكرى، وفى الوقت الذى أصبح لهذا التسليح هدف معلن... فى هذا الوقت يستشهد الصهيونيون بنصوص التوراة؛ لتبرير التوسع الدائم لحدودهم، بل ولوسائل القتل والإرهاب، التى تتم على مستوى الدولة؛... وفى المرحلة الحالية للتوسع الصهيونى يسهم الخيال لحاخامات الأحزاب الدينية، الداعين إلى الغزو، فى تبرير أعتى المغامرات العسكرية الإسرائيلية، وفى تأييد مطالب أكثر المتعصبين طغيانا، وليس من قبيل المصادفة ماواكب الغزوة الدموية للبنان من تصريحات (بيجن) أعلن فيها أن طائرات العال لن تحلق فى يوم السبت احتراما لذلك اليوم المقدس. وعندما تقوم الحكومة بتقديم مثل هذه الألوان من الإرضاء لغلاة المتطرفين، فإنها تتلقى فى مقابلها الجزاء الأوفى من ناحية التبريرات العقدية، إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينيا..»[١].

---

١ ـ رجاء جارودى: ملف إسرائيل ص ١٩ – ٢١

وفى سبيل تحقيق هذه الآمال وصلت إسرائيل إلى القدرة على إنتاج القنبلة النووية: ذكرت شبكة التليفزيون الأمريكية E. B. B. C أن المفاعل النووى الاسرائيلى، بالقرب من ديمونة، فى صحراء النقب، يمكنه إنتاج قنبلة نووية واحدة، على الأقل، سنويا[1]].

وأصبحت إبادة الشعب الفلسطينى هدفا قوميا (أهرام ١٩٨٥/٥/٣٠م).

هذا، وصاحب السقوط يفزع من الدعوة إلى دولة الإسلام، ويجزع من الدعوة إلى السيف، ويزعم (أن حديث الرحمة فى عالم اليوم أقرب إلى القلب، وأن سبيل **السماحة ألصق** بالوجدان ...) ويقسم بالله، جهد أيمانه، أنه لن يترك التصدى لهذا الأمر!! فهل هذه ولايته للإسلام؟! وهل هذا هو اعتزازه به الذى زعمه لنفسه (وينحنى له تقديرا، وإجلالا، وإيمانا خالصا

---

١ ــ أهرام السبت ٨ / ٦ / ١٩٨٥ م

ص ١٨) ؟!. وهل يطمع أعداء الإسلام، فى حربه بيد أبنائه، فى أكثر من مثل ماقال ونذر؟!.

أى إسلام هذا الأعزل فى عالم (القوة فيه قبل الحجة) ويراه صاحب السقوط فى المسجد، وبعزلة عن السياسة والدولة؟! ليكن هذا الرأى دين غير الإسلام.

ألا ماأشبه دين صاحب السقوط بدين الرومان حين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد، ويسخرون منها فى دور التمثيل. يقول سيسرو (Cicro) : لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتا معناها : أن الآلهة لادخل لهم فى أمور الدنيا كان الناس يصغون إليها، ويسمعونهابكل رغبة.

ويقول الراهب أغسطين : إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد، ويهزئون بهم فى دور التمثيل!.

إنه لمن أشد الهزو بالله أن نعبده فى المساجد، ونردد كتابه فى المحافل، ونلقنه أولادنا فى المدارس، ثم نعزله عن الحياة. إنها الإلحادية المجزئة التى تعترف لله بالخلق، ولا

تعترف له بالأمر. إنها الجرثومة القاتلة التى نقلد فيها أحط عصور التدين. يقول العالم الألمانى المسلم محمد أسد فى كتابه النفيس (الاسلام على مفترق الطرق: إن الفكرة التى كانت تسيطر على الأمبراطورية الرومانية هى **احتكار القوة** لها، واستغلال الأمم الأخرى **لمصلحة الوطن الرومي فقط**، لم يكن رجالها، والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة، أما مااشتهر من عدل الروم، فلم يكن إلا للروم فقط. إن هذه السيرة لايمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة، والحضارة، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى، ولكنها **بعيدة عن جميع القيم الروحية**... وقد آمنوا بأرواح الآلهة محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم، **فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم** العملية، كان لها أن يأذنوا لها أن تتكهن بالغيب ـــ إذا سئلت عن ذلك على لسان الكهان ـــ ولكن لم يأذنوا لها أبداً أن تفرض شرائع أخلاقية على الناس[1].

١ ـــ أستاذنا أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم ص ١٨١

وقد يحسن ألا أترك الحديث عن دولة اليهود حتى أشير إلى طرف من شريعتها، كما وردت فى كتابها المقدس، والمنسوبة عندهم إلى الرب .

جاء فى صموئيل الأول ص١٨ : وقال (شاول) لداود : هو ذا ابنتى الكبيرة (مَيْربَ) أعطيك إياه إمرأة .. وحارب حروب الرب . وكانت (ميرب) ابنة (شاول) أعطيت (لِعَذْرِئيل) المحولىّ امرأة . (وميكال) ابنة شاول أحبت داود ... فقال شاول : .. تقولون لداود ليست مسرة الملك بالمهر بل **بمائة غلفة من الفلسطينين** ؛ للانتقام من أعداء الملك ، وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين ... ولم تكمل الأيام حتى قام داود ، وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتى رجل ، وأتى دواد بغلفهم فأكملوها للملك ، لمصاهرة الملك ، فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة !

وفى سفر الخروج ، فى وصية الرب لهم بكيفية خروجهم من مصر : وقال الله لموسى هكذا تقول لبنى إسرائيل (يَهْوَه) إله آبنائكم ... فيكون حينما تمضون

أنكم لاتمضون فارغين بل تطلب كل إمرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، **فتسلبون المصريين**. الإصحاح ٣ .

وفى الإصحاح العشرين: .. لأنى أنا الرب إلهك إله غيوّر أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ ... اذكر يوم السبت لتقدسه... لاتصنع عملاّما.. لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل مافيها، واستراح فى اليوم السابع.

وفى الإصحاح ٢١ : إذا باع رجل ابنته أمة لاتخرج كما يخرج العبيد ... ومن ضرب أباه أو أمة **يقتل قتلا**.. ومن شتم أباه وأمه **يقتل قتلا**.. وإذا نطح ثور رجلا أو أمرأة فمات **يرجم الثور** ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئا، ولكن إن كان الثور نطاحا من قبل وأشهْد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو أمرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل.

وفى الإصحاح ٢٢ : .. إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم، ولكن إن أشرقت عليه

الشمس فله دم ..إنه يُعوِّض. **إن لم يكن له يُبَعْ بسرقته.. مَن ذبح لآلهة غير الرب وحده يُهلك...**

وفى سفر التثنية، الإصحاح ٢٣ : لايدخل ابن زنى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر لايدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر... [١] لاتقرض أخاك بربا.. للأجنبى تقرض بربا.

هذه نماذج من شريعتهم فى السياسة، والحرب، والمعاملات المالية، ومعاملات الجزاء لاأعلق عليها؛ لأنها لاتحتاج إلى تعليق، ولكن أرجو الأخ د. فرج فوده، ومن آزره، أن يعوها، ثم ليقارنوها بشريعة الإسلام، وفى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد! **﴿وننَزِّلُ من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾** سورة الإسراء: ٨٢

* * *

١ ـ ملحوظة : داود من نسل فارض، كما فى متى ص ١، وفارض ابن زنى كما جاء فى سفر التكوين ص ٣٨

الدولة النصرانية

مضى لنا طرف من حديث الدولة الرومانية الوثنية والمسيحية، وكيف فرقتها المسيحية، وكيف أصابوا المسيحية بعقيدة التثليت الذى كان فى العقائد الوثنية، والتى كانت بعيدة الجذور فى أرض مصر، فى صور وأشكال متعددة؛ كان منها ومن أهمها ثالوث: أوزوريس، وإيزيس، وحوريس. وهو ماانتصرت له الدولة الرومانية، بسلطان الأمبراطور قسطنطين، فى مجمع نيقية، والذى أخذ برأى الكنيسة المصرية.

كان ذلك مما أصاب الإمبراطورية، بسبب اعتناق المسيحية، من الناحية الاعتقادية، وأثرها الاجتماعى والسياسى.

أما من الناحية الحضارية، فيصورها لنا دكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (الصراع بين العرب وأوربا) فيقول، بعدما بين أحوال الأوربيين فى الأمبراطورية من الناحية السياسية والاقتصادية:

وانقسم المجتمع الأوربى إلى غالبية من الفلاحين أنصاف العبيد.. وأقلية من الإقطاعيين، فضلا عن رجال الكنيسة الذين كانوا يتكونون، فى معظمهم، من رهبان جهلة، يفخرون بأنهم لايقرأون، وقليل منهم، ممن يعرف القراءة والكتابة، كانوا يقضون وقتهم فى كشط كتب الأقدمين النفيسة فى خشوع لكى يتوفر لديهم الرقوق الكافية لنسخ كتب العبادات.

حتى اليونان أنفسهم، وهم الذين كان مفروضا فيهم أن يكونوا ورثة العلماء القدامى.. فعلوا العكس تماماً، فقد اعتبروا هذا التراث تراثا وثنيا يجب ألا يلقى أى اهتمام بعد اعتناق المسيحية، وكانوا يفتشون المكتبات والمدارس والخزائن بحثا عما فيها من هذه الكتب ليجمعوها ويكدسوها فى الدهاليز والأقبية، ويحولوا بينها

وبين طلبة العلم، وطلاب المعرفة، وقد أجمع مؤرخو الفلسفة علّى أن اليونانيين، قد طمروا هذه الكتب بعد اعتناق المسيحية..

فى هذا الوقت خرج العرب من شبه الجزيرة العربية لنشر لواء الإسلام... ولم ينقض القرن الأول من الهجرة حتى كان سلطان العرب يمتد من الهند إلى الأطلنطى، ومن القوقاز إلى الخليج الفارسى.. وكان العرب فى هذا النشاط الحضارى مدفوعين بدوافع دينية.. **فلم يعتبروا الدين عائقاً، أو حائلا بينهم وبين المعرفة، حتى ولو كان مصدر هذه المعرفة وثنيا،** كما فعل اليونان أنفسهم بعد اعتناق المسيحية.. **وتميزت هذه الحضارة الجديدة باحترام العلم والعلماء..** ونشر العلم بين الناس، **واحترام العقل.** فى الوقت الذى كان فقهاء أوربا يرفعون شعار: اعتقد ثم حاول أن تفهم.. وقد أطلق ابن رشد هذه الدعوة فى الوقت الذى كان من يتجرأ على الدعوة لتحكيم العقل فى أوربا يربط إلى سارية وسط نيران متأججة، أو تشد أطرافه الأربعة إلى أربعة جياد

ينهال عليها الجلادون ضربا بالسياط..

وعلى نهج العرب سارت أوربا بعد ألف عام. اهـ (صـ١٦ – ٢٠).

ويقول صاحب كتاب (الخالدون مائة: ترجمة الأستاذ أنيس منصور): وإذا كانت العلوم تطورت فى العالم الغربى المسيحى، فليس من المنطق أن يقال: إن المسيحية هى المسئولة عن نهضة العلوم فى العشرين قرنا الماضية، فلم نجد فى شروح رجال الدين المسيحى من يقول: إن المسيحية تدعو إلى التأمل فى الكون، أو الدعوة إلى التفكير العلمى. ومن المؤكد أن تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية قد صاحبه فى نفس الوقت انحطاطا رهيب المستوى للتكنولوجيا، والاهتمام بالعلم. إ هـ .

وتمضى الأيام بالكنيسة المسيحية، وتصبح لها سلطة زمنية، مع سلطتها الدينية، فماذا كان موقفها؟ .

يحدثنا (وليم جيمس) فى كتابه (إرادة الاعتقاد) عن

بعض هذه المواقف، فيقول:

صدر أمر من البابا (إنست الثامن) سنة ١٤٨٥ بقتل جماعة دينية خرجت على تقاليد الكنيسة، وغفر الخطايا الكنسية لكل من يحمل السلاح ضدهم، وبرأه من كل الآثام والذنوب، وأعفاه من كل يمين وعهد، وأباح له تملك كل ماجمع من مال، ولو عن طريق غير مشروع.
فلم تكن هناك مدينة لم يقتل فيها أحد من هذه الجماعة: فمنهم من أحرق حيا وكان منهم من هو فى سن الثمانين. ومنهم من شنق، ومنهم من قطعت أحشاؤه. ومنهم من أخرجت أمعاؤه، ووضع فيها قط، ومنهم من دفن حيا ومنهم من غلت يداه إلى عنقه، وترك على الثلوج ليموت بردا وجوعا، ومنهم من طعن بالسيف، وملئت جروحه بالزئبق، ثم ترك ليموت من الألم. ومنهم من قطع لسانه؛ لأنه وجد يسبح بحمد الله. ومنهم من أدخل الكبريت بالقوة فى لحمه، وفى أنفه، وتحت أظافره، وغطى به سائر جسده، ثم أشعلت فيه النار. ومنهم من ملىء فمه بالبارود، ثم أشعل فيه النار؛ فانفجر وتمزق. وشق جسد

امرأة من الرجلين إلى الصدر، ثم تركت على قارعة الطريق، ووضعت حربة فى أسفل أخرى، ثم حملت عليها. وفى سنة ١٦٣٠ نقص عدد هذه الجماعة مرارا بسبب الاضطهاد المستمر ، ونزل من خمسة وعشرين ألفا إلى مالا يزيد على أربعة آلاف. وفى عام ١٦٨٦ خير دوق (سافيو) ثلاثة الآلاف الباقية منهم بين ترك دينهم وبين الهجرة من البلاد. ولما رفضوا هذا وذاك كان عليهم أن يستعدوا لمواجهة الجيوش الفرنسية، فحاربوا حتى لم يبق من قوتهم المحاربة، من غير قتل أو أسر، إلا ثمانون رجلا، ولما استسلموا أرسلوا جميعا إلى (سويسرا) ولكن عاد منهم ما يربو على ثمانمائة جندى عام ١٦٨٩، ليفتحوا وطنهم ثانية، حتى فقد منهم حوالى نصفهم فى ستة الأشهر الأولى، ولكنهم ثبتوا لكل ماأرسل إليهم من قوى حتى وهبهم فى النهاية دوق (سافيو) شيئا من الحرية، بعد أن نقض عهده، مع ذلك الرجس من الدمار والخراب (لويس الرابع عشر) اهـ[1].

---

١ ــ وليم جيمس : إرادة الاعتقاد ترجمة أستاذنا د . محمود حب الله ص ١٢٣ - ١٢٥

وددت الاكتفاء بما أوجزت من هذه الجرائر، ولكن حمية الحق تثنى ودى، وتغرينى بأن أستكمل الصورة بذكر طرف من تعاون الحكم المدنى والتسلط البابوى؛ لنعلم أن ماكان من تجاوزات (سياسية) فى تاريخ المسلمين هباءة من صحراء الظلام التى أنارها الإسلام. بقية تأتى على لسان مسيحى متخصص فى تاريخها، هو د. إسحق عبيد. أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بجامعة عين شمس، يوجزها متخصص آخر هو د. عبد العظيم رمضان أستاذ التاريخ فى جامعة المنوفية. وكلاهما محقق (ليس بالمقلب ولا بالمنقب ص٢٢)[1]: إذ كل من المقلب والمنقب لايصل إلى التحقيق. يقولان، ولا ينبئك مثل خبير:

أثبت التاريخ أن أشنع الجرائم ترتكب باسم أنبل المبادىء، وعلى يد رجال هذه المبادىء أنفسهم، فقد ارتكبت (جرائم عهد الإرهاب) فى فرنسا على أيدى دعاة الحرية والإخاء والمساواة. وارتكب (بول بوت)

٢ ـــ قبل السقوط

جرائمه فى كمبوديا باسم نفس المبادىء. ويرتكب الحكام السياسيون جرائم اضطهاد الرأى المعارض تحت اسمى: المبادىء الإنسانية، وشعارات حماية مصالح البلاد، بل باسم حماية الديمقراطية.

محاكم التفتيش اسسها البابا (لوسيوس الثالث) ثم (أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥) لاضطهاد المسيحيين المخالفين لرأى الكنيسة، واستمرت فى قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب عدة قرون، واضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لرأى المخالفين لها قديم، يرجع إلى القرون الأولى للمسيحية، ففى سنة ٣٨٥ قبض على المفكر الأسبانى (برتسليان) وأحرق بأمر الإمبراطور (ماكمسيموس) لما أبدى من (الهرطقة) (= الرأى المستقل، أو الاجتهاد الفردى). وكان أول قرار قانونى بعقاب الهراطقة بالموت حرقا كان سنة ١١٩٧ على يد بطرس الثانى ملك (أراغون) بأسبانيا.

ويهمنا هنا أن نظهر أن تصاعد العنف ضد أصحاب الرأى المخالف تواكب مع تصاعد الفساد داخل الكنيسة.

وعرف عن مندوبى الباب (= القاصد الرسولى) أن جيوبهم باتت تحشى بالذهب والفضة فى رحلاتهم التفتيشية، حتى باتوا (يعبدون صنم المال) وقد صاح (روبرت جروستيست) فى وجه البابا أنوست الرابع قائلا: الويل لكم من صنم المال.

ويذكر عن مخازى البابا (إسكندر السادس) أنه كان مغرما بالنساء، وكان يحيط نفسه بالراقصات، وكان له أبناء كثيرون فراخ زنى. واشتهر عنه، مثلما قيل عن سلفه، (سكنوس) الولع بالغلمان، ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه ليرث أملاكه. **ولم يسلم من هذا الجرم علما نىّ أو رجل دين فى روما.**

وأخذت الكنيسة تستعين على ضرب أصحاب الرأى بالمنظّرين القانونيين؛ فقد أقرّ فقهاء القانون الكنسى عقوبة الموت، للهراطقة. وسار على هدى فتواهم كبار الأساقفة، وبعض الملوك. وبرر توما الإكوينى (حجة المسيحية، وحبرها وفيلسوفها فى القرون الوسطى) هذه العقوبة بقياس عقلى، ونص من الكتب المقدسة، كما هى

العادة حتى الآن .

وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش فى جرّ الأب إلى أن يشهد على ابنه، والإبن على أبيه، والزوج ضد زوجته، والزوجة على رجلها. وهنأهم البابا (جريجورى التاسع) على هذا النجاح المنقطع النظير!!

وكانت المحكمة تستعين بالمخبرين السريين الذين كانوا يسافرون إلى الخارج لتعقب الهراطقة الهاربين، وابتدع هؤلاء المخبرون طريقة الانضمام إلى الفئات المهرطقة للتحقق منهم، ومن أسمائهم، ثم الإبلاغ عنهم، والشهادة عليهم أمام المحكمة.

وكانت قاعدة؛ (البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف) هى قاعدة تعذيب المتهمين حتى يعترفوا، فى صور من التعذيب تفوق الخيال.

والمتهم الذى يعترف بإثمه، ويبدى استعداده للتوبة يحكم عليه بالسجن مدى الحياة، فى سجن الموت خير منه، كتب عليه: **دار الآمنين!!**

ويمتد الحكم إلى هدم منازل الهراطقة ونواديهم، بل ذهب البابا (أنوسنت الرابع) فى ١٥ مايو سنة ١٢٥٢ إلى الأمر بهدم المنازل المجاورة لمنزل المحكوم عليهم؛ خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهرطقة.

وقد انتهت محاكم التفتيش فى أوربا، بعد أن أفلحت فى تحقيق أغراضها، **ولكن نفس الفكرة التى قامت عليها، فكرة اضطهاد خصوم الرأى والفكر لم تنته، بل انتقلت إلى أيدى السلطة العلمانية**. إهـ[1]

أقول: ماينبغى أن أنهى هذه الصورة حتى أضعها فى هذا الإطار، وأطرز حاشيتها بذاك الواقع العلمانى من الثورة الفرنسية، التى مازال أهلها، وكثير من الناس، يتخذونها مثلا. أنقله عن الأمريكى: (كرين بريتون) فى كتابه تشكيل العقل الحديث، يقول:

وعد (عصر التنوير) **بجنة على الأرض**، ستأتى عاجلا، يتحرر فيها الإنسان من القوى الشهوانية، ومن

١ ـــ مجلة العربى ع ٢٥٨

الجهد، والعرق، والدم. ولما حدث هذان الحدثان التاريخيان: الثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، ملأهما أمل طاغ فى بناء **المدينة الفاضلة: (يوطبيا). تلك** كانت روح التفاؤل التى سادت الأيام الأولى للثورة، الفرنسية، حتى ذهب كثير من المثقفين إلى أن التاريخ قد توقف، ولن يكون ثمة تاريخ بعد الآن؛ الصراع قد توقف، وانتهت المعاناة. **إن الجنة ليس بها تاريخ!**

ومع ذلك فقد قبض على (كوند ورسيه) العالم الرياضى، والفيلسوف، ورجل الاقتصاد، ورئيس الجمعية التشريعية الفرنسية، الذى دعا إلى المساواة، والتصدى للاستبداد، والتخلى عن الخرافات، وأودع سجنا فى إحدى ضواحى باريس، غيّرت الثورة الفرنسية اسمه إلى: **(مدينة المساواة)!** ص ٢١٤ ـــ ٢١٦.

وقصة العالم الإيطالى (جاليليو) معروفة، تمثل موقف الكنيسة من العلم، فى الوقت الذى أفنى فيه رجالها حياتهم فى جدال عقيم لمعرفة: كم من الملائكة يمكنهم الوقوف على سن إبره!

وقصة العالم الأديب الشاعر الفيلسوف (برونو) الذى ظل يعانى آلام الترشيد ست عشرة سنة، لآرائه المخالفة لما تواضع عليه رجال الدين، فكان مصيره أن أحرقوه فى ميدان الأزهار فى روما سنة ١٦٠٠، ثم فى سنه ١٨٨٩ أقاموا له تمثالاً فى الميدان نفسه[١].

«لقد كان القسيس معادياً للحرية، وحليف الحاكم الطاغي، حماية لأخطائه هو، حتى أوجدوا ماهو معروف باسم: (حق الملوك المقدس)، والذى يقضى بأن الملك إله على الأرض، أو أنه نائبه على الأرض، ومن يعارض إرادته فإنما يعارض مشيئة الرب، وهذا هو الكفر والتجديف[٢].

ومن المعروف أن البابوات عمدوا إلى دعم الكرسى البابوى استنادا إلى (هبة قسطنطين). وكان المفهوم أن وثيقة الهبة تعود إلى الامبراطور قسطنطين، وأنه، حين

---

١ ــ المرحوم الأستاذ على أدهم : مجلة العربى ع ١١٠

٢ ــ كرين برنتو : تشكيل العقل الحديث . ترجمة شوقى جلال من سلسلة عالم المعرفة ص ٦٦، ٢٠٧

غادر روما ليؤسس القسطنطينية نصب البابا خليفة له فى روما، وأعطاه حق الولاية المباشرة للأراضى المحيطة بروما، والتى عرفت باسم: (ولايات الكنيسة). ظل الأمر كذلك إلى أن تمكن (فالا Valla) من إثبات أن الوثيقة مزورة !!(١).

أما شريعة الدولة المسيحية، فأساسها شريعة التوراة، التى أسلفتُ طرفا منها عند الحديث عن الدولة اليهودية، فالمسيح جاء مؤيدا لشرائع العهد القديم، وليس مبطلا لها (لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لأنقض بل لأكملّ، فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل). (متى ص ٥).

وكان، مما نسب إليه، من التكميل:

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من

---

١ ــ المرجع السابق ص ٤٢

يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم.. ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم... فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم.

وقيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى. ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى...

سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا...

سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى

مبغضكم (متى ص ٥).

«لاتكنزوا لكم كنزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ.. بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء... لاتقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وتشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون... فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفى اليوم شره». (متى ص ٦).

«لاتعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دركم قدام الخنازير..» (متى ص ٧).

«لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض. ما جئت لألقى سلاما بل سيفا، فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنّة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته» (متى ص ١٠، ولوقا ص ١٢: جئت لألقى نارا على الأرض..)، (ولوقا ص ١٤).

«وقدّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت فى

زنا.. وفى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول؟. قالوا هذا ليجربوه. قال لهم من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر. (يوحنا ص٨).

هذه صورة مجملة لدولة الديانتين الكبريين قبل الإسلام. ونشأت الديانات السالفة عليهما فى أحضان دول، كديانة المصريين القدماء.

كان موسى يخرج بقومه من مصر إلى أرض يقيمون فيها حكما غير حكم الدولة التى خضعوا لها، وعقيدة غير عقيدتها، فكانت دولة، بعدُ، على صورتها التى وصف كتابها، وشهد حاضرها.

وجاء عيسى متمما للناموس، فكانت الدولة على ماشهد به أبناء دينها فى كل زمان فمن أراد أن يهدم دولة الإسلام فعليه أولا أن يهدم دولة جميع الأديان، وأن يمحو تاريخ بنى الإنسان، إن كان ذلك فى المستطاع. وماهو بالمستطاع!

* * *

دولة الإسلام

جاء الإسلام والأديان على ماسلف مما وصفت، وما بقي من دولها على مابينت! .

جاء الإسلام والإنسانية تعانى عوامل الفناء، وتحتضن أسباب التخلف...

جاء الإسلام ليخرج الناس من عبادة بعضهم بعضا إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا، حيث احتكرها الأقوياء، والعلية من الطبقات، إلى سعة الدنيا، التى وسع الله فيها المؤمن والكافر، والبار والفاجر. ورسم لهم فى ذلك منهج الله الذى يخرجهم من هذه المآثم، ويأخذ بأيديهم إلى حياة طيبة تقوم بأيديهم وجهدهم وجهادهم على

مبادىء هذا المنهج. منهج إلهى يتحقق بجهاد البشر، وجهدهم، ومشيئتهم. جهدهم وجهادهم لافى وضع المنهج، ولكن فى الأخذ به، وتطبيقه. منهج هو عقيدة، ونظام أساسه العقيدة. أما العقيدة فحكمها فى الإسلام الاختيار ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ ﴿**فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا**﴾ وهذا غاية السمو فى تقرير حرية الإنسان!!

أما «النظام» فإنه فرضُ مَن اختار العقيدة. ومن التناقض أن يختار العقيدة ويرفض نظامها. ومن التجزئة، سيئة الأثر، هذا التفريق.

بالنظام يتحقق الإنسانَ الملتزمُ. وبالعقيدة ونظامها ينسجم الإنسان مع نفسه، ومع كونه، وبالعقيدة ونظامها يوجد الإنسان الحر الملتزم. وهذا هو الإنسان حقا.

هذه صورة الإسلام مجملة، سوف يأتى بعض تفصيلها.

هذه صورة الإسلام بعد صورة الأديان، والناس قبله.

هذه صورة الإسلام التى ظلمها الدكتور فرج على فوده، وطلاها بغير طلائها، عندما نعتها بنعوت الكهانة، والحكم الإلهى، إلى غيرها من أوصاف ماكان للديانات قبل الإسلام، على ماسلف به البيان. ثم ظلمها ظلماً آخر عندما جعل تصرفات بعض الناس حاكمة عليها، وانطلق منها رافضا نظام الإسلام، مقدما على عقيدته عقيدة القومية المحلية التى هى الأخرى من واردات الفساد الدينى، ووافدات عداوة جور الأديان، مساويا بين أديانٍ قامت لها دولة، فراجت بها عبادة الأوثان، ودينٍ غلب الأوثان وحرر الإنسان. وبذلك أصبح لازما له - وإن لم يرد - رفض الإسلام فى عقيدته ونظامه معا. واختلط عليه، فى هذا الرفض ماهو مِن العَقيدة ونظامها، وماهو من الاجتهاد فى شريعته، والاجتهاد فى نظامها، وحمل على الإسلام خطأ الإنسان، وإن حاول أن يتخلص منه من غير مخلص.

أرجو أن يكون فى هذا مقنع للدكتور فرج فوده؛ ليعلم أنه ظلم تاريخه، وظلم دينه، وخدع قارئه، وطمس وجه الحق. والرجل الحر حقا تأبى عليه حريته أن يرى الحق مظلوماً، بَلْه أن يظلمه.

وددت لو أن الدكتور فوده أنصف تاريخ الإسلام، ودونة الإسلام، ولو كان له على بعض حكامها مآخذ.

ووددت له أن يرتفع إلى الأفق الذى ارتفع إليه الدكتور نظمى لوقا، وهو المسيحى، حين أخذته الغيرة على حق الإسلام، ونبى الإسلام.

يقول الدكتور نظمى لوقا، فى كتابه: (وامحمداه) على إثر ظهور كتاب: محمد الرسالة والرسول، يقول: سؤال وجواب: أما السؤال: فيم اهتمامك - وأنت المسيحى - بالدفاع عن رسول الإسلام؟ والجواب... لباب المسيحية دعوة المحبة، تَعُمُّ بحبها العدو والصديق، فواجب المسيحى حقا أن ينطوى على الحب، وأن يدافع عن المظلوم، والمفترى عليه... وبهذا الاعتبار، كان

الأخلق أن يعجب المتعجب من منتسب للمسيح (كفئة المستشرقين) يفتات على صاحب رسالة اهتدى بها الملايين... وإنى لأربأ بنفسى أن يكون الذى يفتات، أويتواطأ على مثل ذلك الافتئات اللئيم... معاذ المروءة... شرف كل صاحب رأى، وفضل كل معتقد انما هو فى نقاء إخلاصه للرأى والعقيدة منزها عن المصلحة الذاتية أو الطائفية فكلاهما مطيه الهوى، والتعصب المغرض.. وتلك هى الخيانة لأمانة الحقيقة، وليس للشريف ذى المروءة حقا، أن يتستر على ذلك الافتراء الوضيع، ولو كان المفترى عليه خصيمه فى الرأى، أو مخالفا له فى العقيدة... ومن لم يشعر بالتأذى لفرية تصيب خصيمه، أو المخالف له، فماذا يبقى له من معنى الشرف والمروءة؟!...

ومتى تكون الغيرة فى موضعها الصحيح، إن لم تكن على سمعة هاد من هداة البشر، طالما نال منه المفتاتون، بلا تورّع ولا حياء؟ فأى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من (أبى القاسم) الذى حوّل الملايين

من عبادة الأصنام الموبقة. إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال، إلى السمو والإيمان. اهـ ص١٣-٢٣.

* * *

حقائق إسلامية

هنا طائفة من الحقائق، لها صلة بالإسلام، ودولته، كما أن لها صلة بالمسلمين.

هناك ماهو دين، وهناك ماهو سياسة، وهناك ماهو سياسة الدين.

الديـــن

أما ماهو دين فهو ماااتصل بالتعريف بالله وصفاته وأفعاله، وكيفية عبادته. وما يتصل بالغيب عامة، وما يتصل باليوم الآخر... وكل مالا يستقل العقل بتفصيله،

والاهتداء إليه، مما يرقى بالإنسان مادة وروحا[1].

وليس فى ذلك، فى الإسلام، مايصادم العقل أو الفطرة، أو العلم اليقينى.

وقد أجمل الإسلام الحقائق الجامعة للدين فى ثلاثة، وأخبر أنها القاسم المشترك بين المتدينين وإليها الاحتكام: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** سورة البقرة: ٦٢

أرأيت عدلا بين الأديان فوق ذلك العدل؟.

أرأيت دينا وحّد الحكم بينها مثلما فعل الإسلام؟.

أرأيت دينا وحّد أصول الأديان، مما يساعد البشرية

---

١ ــ راجع فى تفصيل معانى كلمة دين عند المسلمين وغيرهم: فريد وجدى: الإسلام دين عام خالد، والمدنية والإسلام. والشيخ مصطفى عبد الرازق: الدين والوحى والإسلام. والسجستانى فى غريب القرآن. والراغب فى مفردات القرآن

على وحدتها، كما فعل الإسلام؟. ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده..﴾ سورة النساء ﴿شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾... ﴿فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لاحجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ سورة الشورى. لاحجة (لاخصومة).

﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله* فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ آل عمران.

ليس فى شىء من ذلك مايأباه العقل، بل كله مما يؤيده العقل، ويطمئن الضمير.

ودور البشر هنا التفكر فيه، وتدبر معطياته وآثاره، واستكشاف روابطه فى العقل والوجدان، ثم الاستمساك به، وتحويله إلى عمل صالح يعمر الحياة بالنفع، كما عمر القلب باليقين.

وليس فى الإسلام (دين) يقتصر على الضمير، ويتوقف عند حدود المسجد.

وليس فى الإسلام (دين) لايثمر أقوالا طيبة، وأعمالا صالحة.

وليس فى الإسلام (دين) يقتصر على الدراسة الفكرية، والأبحاث النظرية، وثقافة المعرفة.

وقد تجد فى (الدين) فى الإسلام مالا يدرك العقل- على التفصيل- حكمته، وإن أدركها على الاجمال. ذلك: كعدد ركعات الصلاة، وتنوّعها على الوجه المعروف. ومثل أنصبة الزكاة. ومثل عدد أشواط الطواف. لكن ينبغى أن نتنبه على أن هذا النوع- وإن لم يدرك العقل حكمته، أو علته على التفصيل- فإنه

لايرفضه؛ لأنه لايتناقض وضرورة من ضرورات العقل، وبديهة من بديهيات الفكر.

وههنا سؤال يوجهه بعض الناس بحثا، أو استشكالا، وهو سؤال مرفوض عقلا؛ **لأنه سؤال دائر**. ذاك السؤال هو: لماذا كانت الصبح ركعتين، والمغرب ثلاثا؟ لماذا كان الطواف سبعا؟ وأمثال هذه الأسئلة عن علل بعض **أشكال العبادات**.

أقول: هذا سؤال دائر؛ إذ لو كانت الصبح ثلاثا، والمغرب اثنتين، لبقي السؤال، ومادام كذلك فهذا وذاك يستويان فى العقل. وبقى الترجيح للشرع، ولا ضير على العقل فى ذلك. وهذا مناط من مناط الاعتقاد، ولا ضير على العقل من التسليم بأحد مايستوى عنده طرفاه، إذ لا حجر فيه على العقل فى شىء، فإن أجهد العقل نفسه، وحملها مالم تُحمّل، واستنبط لذلك حكما وعللا، فليس فى الشرع الإسلامى مايمنعه، أو يحجر عليه، وتاريخ الفكر الإسلامى حافل باجتهادات العقل فى أخص الميادين الدينية، وأعضلها: الذات الإلهية، ومالها

من صفات، وما يجب لله، وما يجوز، وما يستحيل. والنفس والروح. والحياة والموت. والبرزخ والبعث والجزاء. واتسع الإسلام لذلك، وما ضاق به، وما جعله حكرا على أحد، وحجرا محجورا على غيره، مادام الباحث صحيح القصد، مستأهلا للبحث.

وههنا أمر يُلفَت إليه، هو أن بعض أشكال العبادات هذه، التى لايدرك العقل عللها، لابد أن تكون ثابتة النسبة إلى الشرع بسند موثوق به، مقطوع بصحته، مسلم عند العقل طريقه. وهذه من خصائص دين الإسلام؛ إذ ثبت بالسند المتصل، المدروس، المعروفة حلقاته. وفرّق علماء الإسلام فيه بين ماثبت بالسند المتواتر، والمشهور، والآحاد. وليس فى أديان الناس مثل ذلك، ولا قريب منه! لذلك قبل العقل ثمرته ومتنه، وقُبل عنده بثلاث عقليات: ثبوت سنده، وصحة متنه، وعدم تناقضه مع حقيقة عقلية أو علمية. وتلك أيضا خصيصة إسلامية. هذه خاصة للإسلام دينا، يطمئن إليها الإنسان عقلا وشعورا، ولا تفرض عليه إيمانا يناقض

عقله، ويقلق وجدانه.

التقيت براهبة فاضلة، رغبت أن أحاورها بالحق، فقلت لها: إذا تدبرنا عقائد الإسلام لانجد فيها مايرفضه العقل. بينما إذا طبقنا ذلك على المسيحية وجدنا فيها مايناقض العقل، بل نجد مايجزم العقل باستحالته، إذ لا نجد نسقا رياضيا سويا يقبل القول بأن الثلاثة ثلاثة، وفى الوقت ذاته واحد!

قالت: هذا صحيح.

قلت: فكيف نقبل عقيدة شأنها ذلك؟

قالت: لأننا نعتبر غاية الإيمان أن نؤمن ونحن غير فاهمين.

قلت: هناك فرق بين عدم الفهم، وفهم التناقض، فكيف نؤمن بما يفهم العقل تناقضه؟ وإن خاصة الإنسان: عقله، كيف نهملها؟

قالت: سوف نفهم يوم القيامة!

قلت: أنقضى حياتنا نخاطر بأهم شيء: العقل، والعقيدة، والمصير؟

فكيف لو تبين لنا يوم القيامة أن مااعتقدناه غير صحيح ؟

قالت : تريد الإجابة بصراحة ؟

قلت : هذا مااتفقنا عليه .

قالت : ليس عندى ، ولا عند غيرى جواب .

شكرتها ، وانصرفت .

نعم ، ليس عندها ، ولا عند غيرها جواب ، وهى المتخرجة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وكلية اللاهوت فى فرنسا .

نعم ليس عندها ولا عند غيرها جواب ، لأنه لاجواب .

وهذا مابرأ الإسلام منه العالمين ، ودعاهم إلى احترام عقولهم ، ورفض التقديس لما لاعقل ، ولا علم فيه .

* * *

الدولة والدين

الدين الإسلامى يحترم العقل، ويستلزم العمل، ويراعى المصلحة، ويحافظ عليها. وحفظ المصلحة يكون: بإيجادها، ودرء الخلل عنها بعد وجودها.

وأوجبُ هذه المصالح، وأشدُّها ضرورة، وألزمها لحفظ الحياة، ونَفْى فَوْتها: هو الدين. ولذلك كان على الدولة المسلمة حراسته والمحافظة عليه، والجهاد فيه، والدعوة إليه. كما أن ذلك واجب أفراد هذه الدولة وجماعاتها. وهى من هذه الجهة تسمى: دولة دينية. ليس بمعنى أن حاكمها إله، أو أنه معصوم من الخطأ، طاعته فرض مطلق فى كل مايأمر وينهى... إذ ليس فى الإسلام حاكم بهذه الصفات، حتى رسول الله ﷺ.

ولما كان الدين واجبا على هذا النحو، ولازما حفظه على ذلك الوجه كلفنا: بالإيمان لتحقيق الدين، وكلفنا بالدعوة والتصدى للفساد، وكلفنا حفظ الوطن.

* * *

الإيمـان

أساسه، فى الإسلام، شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

ومعناها اللفظى: نفى أن يكون فى الوجود معبود بحق إلا الله، الإله الحق الواحد، الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فاطر السموات والأرض ومافيها... وإثبات أن محمداً رسول الله، ختم به الرسالات، وأكمل به الأديان، ليس بدعا من الرسل، ليس بإله، وليس بملَك، إنما عبدالله ورسوله.

وحقيقتها المعنوية، ومعناها الشيئي وماهيتها: البراءة من العبودية لغير الله، وخلع كل صفة من صفات التقديس عن كل شيء سوى الله. ونظم كل ماعداه فى

سلك واحد تستوى فيه جميعا بالنسبة له سبحانه، فكلها له عبد. وتستوى هى فيه بنسبة بعضها إلى بعض، من حيث هذه العبودية..

ومع هذا البراء ولاء لله وحده بالعبودية الكاملة، والطاعة المطلقة، وخشيته فى الغيب والشهادة، ومراقبته فى السر والعلن، واليقين بأن المبدأ منه، وأن المصير إليه، وإيثاره على النفس وهواها، وعلى الحياة ومتاعها..

ومع هذا البراء والولاء فناء فى مراد الله عن كل مريد ومراد؛ ليكون الإنسان سَلَما لله، قائما عند أمره ونهيه، آخذا بمنهجه، واقفا عند حدوده، كما أبلغه عنه رسوله، محمد عليه السلام.

معناها الحركى: سعى الإنسان نحو خالقه، حنيفا مسلما، مقبلا عليه، معرضا عما سواه: (لا إله إلا هو). وقربٌ من الله للعبد، للإنسان، وأخذ بيده إلى منهجه، وعون له على التعرف على المنهج والعمل به، وإيضاح لهذا المنهج فى صورة قريبة من الإنسان: (محمد رسول الله) وثمرة كل ذلك:

أن يتخلص الإنسان من الوثنية الداخلية، فى وجدانه وفكره. فلا طاعة لهواه ولا لشهوته. وأن يتخلص من الوثنية الخارجية. فلا قداسة مطلقة لموروث، ولا تقليد يلغى العقل والعلم، ولا جبت يحجر على الفكر، ولا طاغوت يُشرك فى الطاعة والعبادة. ولا ظلم، ولا رضابه. ولا استبداد ولا تسلط. ولا ذلة ولا دنية، حتى الانحناءة، لاتكون إلا لله. ولا اشتراع لما يخالف ماشرع الله...

وبذلك لانجد فى دولة الإسلام وثنية سياسية، يستبد فيها الحاكم بالمحكوم، ويتقبل فيها المحكوم كل أمر ونهى، وكل فعل يهبط عليه من السلطة...

ولا نجد فيها وثنية المال، فلا تجد المال فيها دولة بين الأغنياء، يستحوذ عليه كل قادر بالحق والباطل، ويصبح المال قيمة فى ذاته، والوفرة قيمة فى ذاتها، ويترك انتفاع المجتمع للتلقائية التى تأتى تبعا وتابعا غير مقصود لنهمة الجمع والاستحواذ والاكتناز. إنما هو فى دولة الإسلام نعمة من الله، والإنسان مستخلف فيه، له نصيبه منه؛

كما أنه موظف فيه وظيفة اجتماعية، فليس المال خارجا عن الإنسان كلية، ولا هو مستبد به استبدادا. إنه فيه بين المالك والموظف.

ومن تلك الثمار التخلص من الطبقية. فلا استعلاء بلون، ولا جنس..

ويتحقق بتلك المعانى، وهذه الثمار: الإنسان المسئول، المكلف، الحر، المريد وتتحقق المساواة التى تزيل المانع، وترفع العقبات، وتطلق المواهب، فيستبق بنو الإنسان إلى غايتهم، على معارج الكمال، ومدارج السمو..

ويتحقق التعاون الاجتماعى على حدود منهج مرسوم ﴿**الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ سورة الحج.

وبكل ماتقدم يتحقق للإنسان مبرر وجوده فى هذه الحياة، وتتضح له معالم رسالته فيها، ويعرف: من أين؟

وإلى أين؟ ولماذا؟

وهى الأجوبة الثلاثة التى بفقدها يفقد الإنسان انسجامه، ويجهل حقيقته، ويستبد به القلق، بين فقدان التوازن، وجهل الحقيقة.

* * *

الدعـــوة

بعد أن يمكّن الله لدولة الإيمان، أوجب الإسلام عليها، كما أوجب على الأفراد الذين عرفوا الإيمان، وذاقوا حلاوته أن يعلنوا الإيمان، وأن يُعْلموا به، ويعلّموه، ويدعوبنى الإنسان إليه، خروجا من الأثرة، وإخراجا للناس من الظلمات إلى النور، ونشرا للخير، وقياما بحق الله فى حياة الإنسان.

وقد جعل الله للدعوة مراتب بحسب حال الناس معها:

ـــ فالمستجيب القابل الذكى، الذى لايعاند الحق، ولا يأباه– يدعى بالحكمة.

ـ والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر - يدعى بالموعظة الحسنة. وهى الأمر والنهى، المقرون بالرغبة والرهبة، وآثارهما فى مشاهد الخلق. فهى نوعان: عظة بالمسموع من الهدى والرشد، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل، وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بقول كل ناصح أمين عارف فى مصالح الدين والدنيا. وعظة بالمشهود: بما يراه ويشهده فى العالم، من مواقع العبر، وأحكام القدر، وما يشاهده من آيات الله، الدالة على صدق رسله.

ـ والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن، مالم يحدث فتنة: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ سورة النحل ١٢٥.

أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنه، ووصف الحسن لها ذاتى وأما الموعظة فقيدها بوصف الحسن إذ ليس كل موعظة حسنة. وكذلك الجدال، قد يكون بالتى هى أحسن، وقد يكون بغير ذلك.

ووصف الجدال بما يوصف به من الحسن وضده يشمل أمرين: حال المجادِل: من الغلظة والحدة، أو اللين والرفق. فيكون مأمورا بالمجادلة بالحال التى هى أحسن. كما يشمل صفة مايجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التى هى أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

ـــ وأما المعاندون الجاحدون، الذين يأبون الجدال بالتى هى أحسن، ثم يفتنون الناس عن الحق، ويحولون بينهم وبين حريتهم فى الاختيار الحر، سواء فى ذلك بالإعلام المضلل، أو القلم المزور، أو السلطة الجائرة.. هؤلاء، مع إبائهم الجدال بالتى هى أحسن تعلن لهم قوة الدولة، تلويحا بها لعلهم يرجعون عن فتنة الناس، والحيلولة بينهم وبين حريتهم، فإن لم يجد ذلك فلهم القتال ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ سورة البقرة: ١٩٣

فالأمر بالجدال لاينافى الأمر بالقتال، فلا نسخ. وكلّ

من الجدال والقتال ينفع حيث لا ينفع الآخر.
واستعمالهما معا أبلغ فى إظهار الحق، وحماية الدعوة، وإعزازها، وأخضد لشوكة الباطل المعتدى. فالمواطنون غير المسلمين، ومن لهم عهد، والمستأمن والمسالم لايجاهد بالقتال. وأما الظالم المعاند، الذى لايطلب العلم، بل يصد عنه، ويحجر على حرية الناس فى الاختيار فلا يجادل بل يجالد أما طالب علم الإيمان، ولم يظهر منه ظلم العناد، سواء كان قصده الاسترشاد، أم كان يظن أنه على حق فهذا يجادل بالتى هى أحسن(١).

والناظر فى حروب المسلمين أيام الراشدين خاصة وجدها كانت لدرء الخطر عن دولة الإسلام فكانت حماية للدعوة ودولتها من حكومات تتربص بها الدوائر، فلما زال خطرها ترك لشعوبها حرية الاختيار. وبذلك حمت دولة الإسلام نفسها، وحمت الناس من استبداد حكامها. وهذه رسالة دولة الإسلام لأهل الأرض: إما أن يفيئوا إليه، وإما أن يسالموه. وعلى ذلك فدفاع

١ ــ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . جـ ١ صـ ٦٦

الإسلام عن نفسه ليس دفاعا محليا، ولا إقليميا .. إنما هو دفاع عنه في سيره إلى الناس في كل مكان يدعوهم، ويعرض عليهم نفسه، وموقفه من الناس على حسب موقفهم من دعوته، فمنهم من يدعى بالحكمة، ومنهم من يوعظ بالحسنى، ومنهم من يحاور، ومنهم من يقاتل.

ومن يَلُم الإسلام فى الأخيرة، ويحاول أن يغمزه بها فهو غير فاهم لرسالة الإسلام العالمية أو غير فاهم لطباع الناس. وهو فى هذه وتلك يريد أن يسلب الإسلام قوته الخبيء فى نفسه!.

وهذه هى المرحلة الأخيرة من مراحل علاقة المسلمين بالمشركين أيام الرسول ﷺ، التى لخصها ابن القيم تلخيصا جامعا فى كتابه زاد المعاد، تلك هى أن القتال كان ممنوعا على المسلمين ثم مأذونا فيه بسبب مالحقهم من ظلم، ثم مأمورا به لمن بدأ بالقتال، ثم مأموراً به أمراً عاما. وهذا لمن عاند، وأبى الجدال بالتى هى أحسن.

هذا هو المعنى الصحيح لآية الدعوة من سورة النحل.

وأمّا استنزالها على طبقات الناس فى مناهج الاستدلال، وأقسام الحجة، فمنهم من لايقنع إلا بالبرهان اليقينى المقدمات، ومنهم من يسلم بالمقدمات من غير استيقان، بل ينظر فى النتائج؛ ليرى هل هى من حصيلة هذه المقدمات المسلمة. ومنهم من يأخذ بالمقدمات المشهورة.. كما فعل الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود فى عدد مجلة العربى ٢٦١. فهذا تفسير للآية على ضوء المنطق وتقسيمه لأنواع الحجة، ومواد الأقيسة، التى منها: اليقينيات، وغير اليقينيات ثم هو مع ذلك لم يعتمد من اليقينيات إلا مايدرك بالحس قال «فإما أن تجد أن آخر الشوط إنما هو مجرد فرض فرضناه، وهاهنا تعلم أن السلسلة كلها ظنون. وإما أن تجد أن آخر الشوط هو لقطة بإحدى الحواس من ظواهر الكون المحيط بنا. وعندئذ تعلم أن الأفكار هى من ذوات المضمون الحقيقى الذى يجوز الركون إليه..». مع أن علماء المنطق يقسمون اليقينيات إلى ستة أنواع(١).

١ ـ راجع تحرير القواعد المنطقية للرازى، شرح الشمسية للقزوينى =

قال الإمام ابن القيم فى مدارج السالكين(١) : وأما ماذكره بعض المتأخرين أن هذه (آية النحل) إشارة إلى أنواع القياسات، «فالحكمة» هى طريقة البرهان. «والموعظة الحسنة» هى طريقة الخطابة، «والمجادلة بالتى هى أحسن» طريقة الجدل. فالأول بذكر المقدمات البرهانية لمن لايرضى إلا بالبرهان،.ولا ينقاد إلا له، وهم خواص الناس، والثانى بذكر المقدمات الخطابية التى تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة، وهم الجمهور. والثالث بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذى يندفع بالجدل، وهم المخالفون – فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليونانى واصطلاحهم. وذلك باطل قطعا..إهـ

هذا، والداعى، فى كل حال، بصير بما يدعو إليه، ومن يدعوهم، وبطريقة الدعوة، وذاك هو البصيرة فى

=وحاشيته للشريف الجرجانى. راجع الإشارات والتنبيهات لابن سينا شرح الطوس تحقيق أستاذنا د. سليمان دنيا – القسم الأول

١ ـ جـ ١ صـ ٤٤٦ تحقيق الأستاذ محمد حامد الفقى. وله مفتاح دار السعادة ص ١٦٧ تحقيق أستاذنا محمد ربيع

قوله ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى اللهِ على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾ سورة يوسف : ١٠٨

وسواء كان الوقف (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله) والابتداء (على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أم كان (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) وقوله (ومن اتبعنى) معطوف على الضمير فى (أدعو) فالمعنيان متلازمان، (والبصيرة) قاسمهما المشترك.

* * *

المرتـــد

لأن الإسلام دين ودولة حمى دولته وطنا ومنهجا وحكومة: دافع عن حدوده، وحمى دعوته، وردعنها الفتن الداخلية والخارجية منذ كان للإسلام حكومة لها أمتها، وأرضها، وشريعتها، ورئيسها، وجيشها، ونظمها المالية والإدارية، ولها سلطة التشريع، والقضاء، منذ عهد الرسول ﷺ، ثم عهود من تبعه ما كانت لهم خلافة أو ملك.

لهذا كان للارتداد عن الدين أحكامه، وكان للدولة نظامها فى تنفيذ هذه الأحكام.

ما الردة؟

مادتها: الردّ. وهو: صرف الشيء بذاته، أو صرفه

عن حال هو عليها إلى حال كان فيها . من الاول ، وهو الرد بالذات قوله تعالى ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ الأنعام ٢٨ . ومن الرد عن الحال إلى الحال التى كان عليها قوله ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ آل عمران ١٤٩ . وقوله فيها ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتو الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ ١٠٠ . أى يرجعونكم إلى حال الكفر بعد أن فارقتموه .

فالارتداد ، والردّة : الرجوع فى الطريق الذى جاء منه . لكن الردة تختص بالكفر . والارتداد فى الكفر وغيره : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾ البقرة ٢١٧ ، ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾ الكهف ٦٤ [١] .

ومن بيان أصل المادة ، وتعريف الردة يظهر أن من نشأ من أبوين مسلمين ، حتى إذا بلغ أشده واستوى أراد

١ ــ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ج ٣ تحقيق العلامة الشيخ محمد على البخار

اليقين؛ فتشكك وأخذ يبحث ويدرس ويسأل لايسمى مرتدا، ولا يكونه؛ لأنه لم يكن كافرا ثم أسلم، ثم عاد إلى حاله التى كان عليها بعد ماأسلم.

وبهذا تسقط وسوسة الشيوعيين لبعض الشباب بأن الإسلام دين تقليد، يحجر على الفكر والحرية. وحكم هذا داخل فى مراتب الدعوة وأنواع الناس منها. الذى سلف بيانه.

كما يظهر من التعريف ومادته أن المرتد هو من لم يكن مسلما ثم اختار الإسلام حرا، ثم عاد عنه إلى ماكان عليه. وهذا إما أن يكونوا جماعة، أو فرداً:

فإن كانوا جماعة يخشى منها الفتنة كان واجب الدولة قتالها. ومن ذا الذى يلوم دولة تركت الناس أحراراً فى اختيار عقيدتها، فدخلوا فيها أحراراً ثم ارتدوا عنها، ويشغبون عليها– أن تحمى نفسها من هؤلاء.

لقد سوت الشيوعية بالأرض مدنا، ودحرت جيوشا... لأنها أرادت لنفسها نوعاً من الحرية فى إطار

المذهب الشيوعى نفسه.

وأطارت الرأسمالية جيوشها آلاف الأميال بعيدا عن حدودها، وإلى خارج قارتها لنصرة مذهبها، وكبْت حرية الناس هناك! فمن عجب أن تلام دولة الإسلام على ماهو دون ذلك بكثير، مع ماأعطت من ضمانات: إذ تكفل حرية الاختيار، ولا تنقب عن الأسرار، ولا تشق عن القلوب!

وإن كانت الجماعة المرتدة ليست ذات خطر ولا فتنة، بل سالمت معكوفة على نفسها جاز عدم قتالها لقول الله ﴿**فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**﴾ سورة النساء ٩٠. وهذا في حكم الفرد المرتد أولى بالقبول، وأحق بالأخذ.

فهل فى مذاهب الناس عدل يقارب ذلك؟ إنه عدل الإسلام وحضارته قام به أهله ودولته. بل ذهب الفقه الإسلامى فى ذلك، بتوجيه الشريعة، إلى فوق مايتصور البشر: فذهب بعض الشافعية إلى أن من انتقل من ملة غير الإسلام، إلى ملة أخرى غير الإسلام يقتل أيضا

عملاً بظاهر الحديث «من بدّل دينه فاقتلوه» !

وذهب الحنفية إلى أن هذا الحديث مخصوص بنهى الشريعة عن قتل النساء، فإذا ارتدت المرأة فلا تقتل !

ومن العلماء من ذهب إلى عدم قتل (الفرد) المرتد، ويحاور ويستتاب أبداً(١) .

* * *

١ ــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار جـ٧ صـ١٩٣ – ١٩٥

حـــوار

ودونك هذا الحوار الحضارى الذى جرى بين المأمون ومرتد تعرف منه: حرص الدولة المسلمة على الدين، وحرصها فى الوقت نفسه على حياة الناس ودمائهم، وفهمهم لطبيعة الخلاف وأحقيته، وحرصها على ضمانات القضاء والحكم والرأى، وحرصها على كرامة الإنسان... سجّل هذا الحوار الجاحظ فى كتابه: (البيان والتبيين)، قال:

مجادلة المأمون للخراسانى المرتد. ولما دخل عليه المرتد الخراسانى، وقد كان يحمله من خراسان حتى وافى به العراق. قال له المأمون: لأن أستحييك بحق أحب إلىّ من أن أقتلك بحق، ولأن أقيلك بالبراءة أحب إلىّ من أن

أدفعك بالتهمة. قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا، وكنت فيها أتْيَح (=أيسر، وأكثر حركة) وأيامك أطول. فاستوحشت بما كنت به آنسا، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافراً. فخبرنا عن الشيء الذى أوحشك من الشيء الذى صار آنس لك، من إلفك القديم وأنسك الأول. فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به. والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة، وإن أخطأك الشفاء، ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت، ولم ترجع على نفسك بلائمة. فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة. أو ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزم.

قال المرتد: **أوحشني كثرة مارأيت من الاختلاف فيكم.**

قال المأمون: لنا اختلافان:

أحدهما: كالاختلاف فى الأذان، وتكبير الجنائز،

والاختلاف فى التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، ومأأشبه ذلك. وليس هذا باختلاف، إنما هو تخيير وتوسعة، وتخفيف من المحنة. فمن أذّن مثنى، وأقام مثنى لم يأثم. ومن أذّن مثنى وأقام فرادى لم يَحُب (=لم يأثم). لايتعايرون، ولا يتعايبون. أنت ترى ذلك عيانا، وتشهد عليه تبيانا.

والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر. فإن كان الذى أوحشك هذا، حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقا على تأويله، كما يكون متفقا على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف فى شىء من التأويلات، وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لاختلاف فى تأويل ألفاظها. **ولو شاء الله أن ينزل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه، وورثة رسله لايحتاج إلى تفسير لفعل. ولكنا لم**

نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضل. وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن الله واحد، لاندله ولا ولد، وأن المسيح عبده، وأن محمدا صادق، وأنك أمير المؤمنين حقا.

فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فِرُوا عليه عرضه (=احفظوه)، ولا تبرّوه فى يومه، ريثما يَعْتقُ إسلامه (المراد: تمرّ عليه مدة)؛ كيلا يقول عدوه: إنه أسلم رغبة، ولا تنسوا بعدُ نصيبكم من بره وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه!

ماأشبه موقف د. فوده من اختلاف المسلمين، واختلاف علمائهم بموقف هذا الفتى الخرسانى المرتد. وما أفهم المأمون لحقيقة الدين، وطبائع الناس، وطبيعة اللغات. هذا الفهم الذى غاب عن الفتى، فعاب به الإسلام وأهله، حتى زين له المروق منه.

لقد سبق المسلمون- بدينهم وأفكارهم- دول الحضارة الحديثة إلى مزية: (تعدد الآراء) التى لم تعرفها أوربا إلا منذ (عصر التنوير). وعرفها المسلمون منذ فجر الإسلام، منذ قرر القرآن ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ هود: ١١٨-١١٩ وإذا كان هذا فى العقائد، فهو فى الفروع أولى وأقصد.

لقد حسب الدكتور فوده أن فترة زمنية واحدة تستوعب علل التاريخ كله، كما تستوعب حكمه وأحكامه، وتفرغ منها على نحو يقبل قياس مابقى من الزمان عليها قياسا دائما، بحيث لايقبل المراجعة أو التعديل، بل يسرى حكمها على التعميم. ثم عاد فانتقى من هذه الفترة بعض حوادثها ليجعلها مقياس الزمن كله. وليس هذا بمنهج، وما هو بإنصاف وإنما هو الهوى المحض فى تمحيص الحقائق على كر الغداة ومرّ العشى. والرسول يقول: مثل أمتى كمثل الغيث لايدرى أوله خير أم آخره. ويقول: لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لايضرهم من خالفهم...

سياســة الديــن

إذا سلمنا أن الإسلام دين ودولة– ولا مناص من ذلك التسليم بهذه القضية، لشهادة حقائق الإسلام، وواقع التاريخ– فلابد أن يكون للإسلام سياسة تقوم عليها دولته، ويحكم بها مجتمعه وهذا ماأعنيه (بسياسة الدين).

لم يكن الإسلام (مجرد دين) يوجه الضمير، ويقدم الوعظ، ويحض على العبادة، ويدعو إلى الزهد في الدنيا، انتظارا لنعيم الآخرة. إنما كان الإسلام الدين الذى حدد معالم العقيدة، وسمابها الرقى العقلى والوجدانى، الذى سما بالإنسان فكرا ووجدانا وعملا ونتائج وكان الإسلام الدين الذى شرع القوانين لحياة الانسان العامة والخاصة،

وجعل الالتزام بها دليل سلامة العقيدة وكمالها. كما جعلها الشهادة للملتزم بها بالإسلام كما جعل تقبلها بالرضا والتسليم علامة الإحسان ﴿**فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ سورة النساء: ٦٥ فأقسم: أنهم لايؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه. فالتحكيم: فى مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: فى مقام الإيمان. والتسليم فى مقام الإحسان.

ورفض رفضا قاطعا للريب التفرقة بين الدين وسياسة الدين. بين العقيدة والشريعة. ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت...**﴾ سورة النساء: ٦٠ «والطاغوت: كل ماتجاوز به الإنسان حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع. **فطاغوت كل** قوم: من يتحاكمون إليه، غير الله ورسوله، أو يعبدونه

من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لايعلمون أنه طاعة الله. فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت. وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت. وعن طاعته، ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته. وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم فى الطريق والقصد معا..» (الإمام ابن القيم فى (إعلام الموقعين جـ ١ صـ ٤١).

وأيضا رفض رفضا قاضيا على التردد— قبول بعض الشريعة وترك بعضها الآخر، لتعلة الزمان أو المكان، أو التطور.. إلا ماكان من قبيل الضمانات، والشروط المنوطة بتنفيذها، والعلل المرتبطة بأحكامها **﴿.. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما**

تعملون﴾ سورة البقرة: ٨٥.

وبين المقابل لحكمة، وهى مقابلة تقتضى الالتزام بالشريعة، ورفض مايقابلها، مما يخالفها: **﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك... أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾** المائدة: ٤٩ — ٥٠.

فحكم الله يقابله حكم الهوى والجاهلية. وعند هذه المقابلة تكون النتيجة: من أحسن من الله حكما. ولكن لايعى ذلك، ولا يدرك مكنونه إلا (قوم يوقنون).

والإسلام، فى سياسته الدينية، لم يقف عند نوع معين، يختص به جانبا من الإنسان، أو الحياة. بل وضع (السياسة الدينية) التى تشمل الإنسان وحياته، ابتداء من (أدب قضاء الحاجة) إلى (نظام الدولة) وشريعتها الداخلية ونظمها وعلاقاتها الخارجية. (قيل لسلمان: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة. قال: أجل...)

نيل الأوطار جـ ١ صـ ٩٣ .

ومن ذلك: مايجمله ويضع قواعده العامة، التى يمكنها - بحكم صياغتها غالبا - أن تستوعب الصور التفصيلية، التى تتجدد، وتختلف باختلاف الزمان والمكان، والأحوال.

ومن ذلك مايفصله، كقواعد المعاملات. ثم يفتح مجال الاجتهاد فيها، ومجال الاجتهاد فى القياس عليها، لكل مايتجدد.

ومن ذلك مايفصله تفصيلا، يقل فى مجاله الاجتهاد، ويكثر فيه شح النفس وهواها، كأحوال الأسرة والمال.

وهو فى كل مايجمل أو يفصل - يحيطه بسياج مكين من العقيدة ومراقبتها، ومبادئه الأخلاقية، التى هى الأخرى شريعة واجبة الامتثال، لما تظهره مما فى الإسلام من جمال.

ولفقهاء الشريعة، فى كل هذه المجالات، اجتهادات، وتفريعات، وتطبيقات - شهد بدقتها، وشمولها،

وعمقها، وسْبْقها فقهاء أعلام، من أئمة الفقه، وعلماء القانون، من المسلمين، وغير المسلمين.

فمن (سياسة الدين) وشريعته مايتعلق بالقانون الأساسى لدولة المسلمين: كوجوب نصب الإمام (رئيس الدولة) واختياره، وقيامه بأمانات الحكم، وإقامة العدل، وأداء الحقوق. وكالطاعة فى المعروف. والشورى. وحرية إبداء الرأى، ورد الاختلاف فيه إلى أصول هذا القانون الأساسى: القرآن والسنة. ومثل الكفالة الاجتماعية، والتكافل الأدبى لنشر الخير، وكف الشر، وحراسة الدين، وإصلاح الدنيا...

هذه المبادىء الرئيسه والأساسية، فى الإسلام (دينٌ) من جهة أن الإسلام أمر بها، ولا ينبغى الخروج عنها، والخارج عنها يجب على الجماعة رده إليها، قويا أو ضعيفا، غنيا أو فقيرا، حاكما أو محكوما. والسكوت عن الخروج عليها سكوت على منكر، تتحلل به الجماعة، وتفقد هويتها.

وهذه المبادىء (سياسة) من جهة تعلقها بقيادة الأمة، وتحقيق مصالحها.

ومما هو من (سياسة الدين) مايتعلق بالقوانين التشريعية التى تنظم علاقات الجماعة فى الملك، والمال، والزراعة، والتجارة... وسائر المعاملات، والآداب التى تزينها، والأخلاق الإسلامية التى تجملها.

وهذا النوع، أيضا، دين، من حيث ورود نصوص الشرع به، ووجوب التزامها، وجوبا تشريعيا، أو وجوبا أدبيا. وهو سياسة من جهة تنظيمه الجماعة، وقيامه بمصالحها.

ومجال العقل الإنسانى فى هذين النوعين– واسع وفسيح؛ إذ ترك الشرع له ردّ الجزئيات المتجددة إلى أصول الشرع، وقواعده، وروحه.

والفقه الإسلامى، وغزارته، ونموه على مراحل الزمان– شهيد على ذلك.

وقد وضعت له قواعده، وضوابطه. وكلها ضوابط

عقلية، استنبطها العلماء من نصوص الشرع. وكانت من مفاخر العقل الإسلامى. ولما كان الإمام الشافعى صاحب الجهد الأكبر فى هذا الميدان، وكان له فضل تأسيسه علما مدونا– قيل عنه، بحق: إنه فعل للفقه الإسلامى مافعله أرسطو للمنطق اليونانى.

وبموقف الشريعة من الجزئيات المتجددة، وإفساحها للعقل مجال الاجتهاد فيها، والاجتهاد فى القياس عليها، والقياس هو حكم العقل– اتسعت شريعة الإسلام، وسياسة دينه؛ لتستوعب الزمان والمكان والأحوال. وتقضى مصالح البشر بما يتفق وحاجاتهم المتجددة، فى إطار من سياسة الإسلام وشريعته، وروحه التى تدرك من اتجاهات نصوصه، وقواعد السلوك فيها.

كما اتفقت عقيدة الإسلام والعقل والفطرة...

وكما اتفقت قوانينه الأساسية مع قيم الإنسان وكرامته...

— اتفقت شريعته مع احتياجاته ومصالحه، ويتجدد

فيها الاجتهاد، ماتتجدد الحاجات والمصالح.

فأى دين، أو فكر، علا بالإنسان فوق هذه المنزلة، أو مايساويها، أو إلى مايدانيها؟! (ايتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين).

* * *

الحســنة المقلــوبة

هذه الحرية الفقهية الفكرية المقننة، بما لم يسبق له ضريب فى التشريع– لم يوجد فى ظلها (عشرات وعشرات من الفقهاء، ممن كان شغلهم الشاغل ترجمة أمانى الخلفاء، إلى أحكام فقهية، بل والعياذ بالله إلى أحاديث مختلفة تنسب إلى الرسول) كما قال صاحب السقوط ص٢٧ . ولم يوجد فى ظلها فقهاء (يجدون لكل شيء مخرجا، ولكل خروج على الدين تأصيلا) السقوط ص١٩ كما لم يوجد فى ظلها من يجعل (الرأسمالية من الإسلام، ومن يجعل الاشتراكية هى الإسلام) ص٦٤ .

إنما وجد ذلك فى ظل الاستبداد السياسى القديم والحديث، وفى ظل الدولة المدنية التى عاصرها كاتب

السقوط، والتى يدعو إلى دوامها والاستمساك بها- وجد ذلك فى ظل هذا القهر من بعض النفوس الضعيفة، وليسوا من أئمة العلماء، ولا ممن يقتدى بهم، بل ليسوا من أوساطهم- كما يصور الكاتب. والاستبداد، والتحريف كلاهما قد حرمه الإسلام: حرم الاستبداد بكل ألوانه وصنوفه، عندما كان أساسه الأول توحيد الإله وتساوى البشر. وحرم تحريف الكلم عن مواضعه، والكذب على الشرع، عندما وصف من قبلهم بقوله: ﴿**سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه...**﴾ سورة المائدة: ٤١.

فهل إذا زاغ زائغ، واستخدم خصيصة (سياسة الدين وشريعته) فى إفساح المجال للعقل والاجتهاد والقياس لهواه تحمّل وزره الإسلام، واتّخذ زيغه برهانا على رفض الإسلام دولة؟! أم يكون الواجب حماية الإسلام دينا ودولة من زيغ الزائغين من المنتسبين إليه. كوجوب حمايته من زيغ الزائغين عنه المطالبين بعزله عن

الحياة، والحجر عليه فى الصوامع والزوايا.

وهذا وذاك أمر ميسور إذا صدقت النوايا، وصحت العزائم، ومن سبله وضع الضمانات التى تحمى الحكم الاسلامى من الاستبداد، الذى يتحمل وزر كل ماذكر الكاتب من زيغ وجرائر. والتى نشارك الكاتب التنديد بها، من غير أن نشاركه جعلها قاعدة للحكم الكلى على تاريخ الإسلام كله، وإبتناء خيالات عليها، لاتمت إلى المنهج العلمى بنسب أصيل أو زنيم.

والكاتب هنا قد وقع فى (تداعيات خيالية) سببها تجاهل حقيقة علمية:

أما التداعيات الخيالية، فهى كثيرة فى كلامه، كتداعيات تطبيق حد الزنا: من إغلاق شارع الهرم، والرقص.. صـ٥٣. ومثل تداعيات إذا أدى دوره على عهد السلف، إذ يقول: (المسجد إذا عاد إلى أداء دوره فى عصر السلف الأول سوف يكون ذلك مدعاة إلى اختلاف وفتنة. وليس إلى ائتلاف وتوحد) ويدلل على

ذلك بتخيل إمام مسجد حدائق القبة معارضاً معاهدة السلام مهدداً للحاكم.. (وبالمقابل سوف يرتفع صوت إمام آخر فى مصر القديمة مؤيدا لما أعلنه كبار علماء الأزهر... من أن معاهدة السلام نصر للإسلام... ليس هذا فحسب، **بل إن تصورا منطقيا** (هكذا) يتوارد إلى الذهن، مضمونه أنّ الصدفة قد تدفع بعض شباب مصر القديمة إلى الصلاة فى مسجد حدائق القبة، فيرتفع صوتهم بالمعارضة... وتنقسم القاهرة ومساجدها فهذه مساجد للسلام، وهذه مساجد للحرب..) ص ٣٨-٣٩.

ويحكم على هذا بقوله: (**لست مبالغا أو مستندا إلى خيال مريض**) (**بل تصور منطقى ص٣٩**) ومن تداعياته الخيالية: (ماإن يبدأ تطبيق الحدود.. حتى يصبح منطقيا أن تتوالى التداعيات الجزئية، بادئة بمنع السفور، ومنتهية بمنع الفجور، وهى عبارة مطاطة قد يراها المعتدلون فى المعازف، وقد يراها المتشددون فى ملابس لاعبى الكرة، وينتهى الأمر بقيام الدولة الدينية فى

مصر) (تستند إلى الحكم بالحق الإلهى الذى لايعترف بالقوانين الوضعية، ولا يرى مصدرا إلا الكتاب والسنة، ولا يعرف من الأحزاب إلا حزب الله وحزب الشيطان. وحزب الله ممثل فيمن يحكمون بإسم الدين. وحزب الشيطان اسمى ليس له وجود ملموس. وفى حد الحرابه مساحة لمن يطلق عليهم «المفسدون فى الأرض» وهو تعبير يتسع لكى يشمل كل مخالف لحزب الله) ص٦٣.

وكذلك يتسع القرآن– فى رأى صاحب السقوط– فيكمن الخطر كذلك فيه (وكل ذلك يدفع إلى تأكيد حقيقة هى أن القرآن لكونه كتابا مقدسا أنزل لكل العصور لايمكن أن يضيق بمرحلة من مراحل التاريخ.. وهنا يكمن الخطر الشديد؛ لأن الأمر سوف يتوقف على رؤية من يفسره) ص٦٤. وهنا يعيد الاستشهاد بالموقف من معاهدة السلام، ثم يبنى عليها أن (التاريخ الإسلامى بعد الراشدين ملىء بمثل هذه المواقف. ويستشهد بفتنة خلق القرآن (فكم من دم أريق، وكم من أرواح أزهقت) ص٦٨!!.

(إننى أريحك وأتجاوز شطحات الخيال السابق التى أرى لها عن خطأ أو صواب سندا من واقع الحال أو احتمالاته) ص ٤١ .

مرة ينفى أن يكون ذلك خيالا مريضا، ويحكم عليه بأنه تصور منطقى، وأخرى يحكم عليه بأنه شطحات خيال، لها سند لايقطع به.

وليت شعرى أى أسلوب علمى هذا، الذى يزعم لنفسه المنطقية والعقلية التى يعتز بها؛ لأنها منة الله للإنسان، حلل بها التاريخ (وخرج بحقيقة واضحة أمام المحلل الهاوى الذى استخدم أعظم نعم الله عليه، وهى نعمة العقل والمنطق) ص ٢٧ .

وأى حقائق مادية فى هذه الشطحات الخيالية، التى رأى أنه لابد منها فى تحليل وتعليل مايصيب الدولة من شدائد وأهوال، بعيدا عن التعليل بمشيئة الله ص ٢٢ فليس من المقبول عنده تعليل هزيمة سنة ٦٧ (بأن الله قد تخلى عنا حين تخلينا عنه ص ١٦٩).

وليس من المقبول عنده أن مايصيب الأمم من كوارث ابتلاء واختبار، إنما ذلك جائز عنده فى الأفراد صـ ٢١ - ٢٢.

ألا فليدلنا على الحقائق المادية، والعلمية، والمنطقية فى هذه الشطحات الخيالية، والتداعيات الذهنية!

إنها نسْج على منواله الذى تخيل فيه تاريخ الإسلام وجها واحداً (يستحل فيه الخلفاء القتل فى غير حق، والظلم بلا راع، ويدخلون على المؤانسة أبوابا لوسمع بها الصدر الأول لعجز عن أن يدخلها فى باب من أبواب الجاهلية) ص١٨.

وعلى منوال هذا الخيال ماتخيله من كثرة الدماء المراقة فى فتنة خلق القرآن، التى لم يرق فيها دم واحد، وترك المأمون الناس فيها أحرار، ولم يؤذ فيها الإمام أحمد إلا بعد موت المأمون سنة ٢١٨. والحركة فى جملتها وتفصيلها كانت حماية لدولة الإسلام ودستوره من فتنة يهودية نصرانية أرادت أن تأخذ من القرآن حجة على ألوهية

المسيح! إذا أخبر عنه بأنه كلمة الله: فإن كانت كلمات الله قديمة فالمسيح قديم إله، وإن كانت كلمات الله حادثة فالقرآن حادث مخلوق. فأرادت حاشية المأمون أن تدفع تلك الشبهة باجتهاد عقلى، وأراد أحمد الالتزام بعدم وصف القرآن بما لم يوصف به (تاريخ المذاهب الفقهية للشيخ أبو زهرة).

وقامت فى ذلك مناظرات، إن انتهى بعضها إلى إيذاء جسدى، فقد كانت فى إبانها متعة فكرية، ودليلا واقعا على صدر الإسلام، وفكر دولته الرحيب. ووزرا لضيق الإسلام منه براء.

وتنقل لنا المصادر التاريخية المناقشات الدائرة بين الامام أحمد وبين اسحق بن إبراهيم القاضى، يتدخل فيها ابن أبى دؤاد أحيانا تدخلا سافرا، وفى كل مراحلها تدخلا خفيا، يظهره مايبديه مناظرو الإمام أحمد من آراء وحجج. من هذه المناظرات:

القاضى اسحق: أليس الله قال: (الله خالق كل شىء)

الإمام أحمد: وقال الله: (تدمر كل شيء) فدمرت إلا ماأراد الله.

القاضى عبد الرحمن بن اسحق: أتقول إن القرآن مخلوق.

ابن حنبل: القرآن كلام الله، لاأزيد على هذا.

القاضى: ماتقول فى كلام الله؟

ابن حنبل: ماتقول فى علم الله؟

القاضى: أكان الله ولا قرآن؟

الإمام أحمد: أكان الله ولا علم؟[1].

السؤال الآن: لماذا ترك صاحب السقوط هذا الجانب الفكرى ودلالاته الحضارية، وسقط على التجاوزات السياسية؟

لماذا يترك الحقائق الواقعة، ويأخذ بتداعى المعانى الخيالى؟

ففى أى ميزان من موازين العقل والحق والتاريخ هذه

---

١ ــ معجم أعلام الفكر الإنسانى: ترجمة أحمد بن أبى دؤاد

الشطحات ؟!

إنه الرفض المسبّق لحكم الإسلام. والتأثر القديم بموقف مستورد من الدين، طلبت له التعلات، ولو كانت خيالات. أما الحقيقة العلمية، التى يعرفها الكاتب - ويتجاهلها - فهى:

أن الحكم الشرعى شيء، واجتهاد المجتهدين شيء آخر. ولم يقل أحد - لا فى القديم، ولا فى الحديث - إن اجتهاد المجتهد هو حكم الله، الذى من خرج عليه خرج على الحكم الإلهى. فيكفرّ أو يفسّق. ومحنة خلق القرآن التى استشهد بها الكاتب، وجعلها أوضح مثال على فساد دولة الإسلام، وشاهد صدق - عنده - يرد قول المتشدقين بازدهار الحضارة العباسية - هذه المحنة، لم يُرْم فيها أحد بفسق أو كفر، ولم يدع فيها أحد من الخلفاء أو حاشيتهم أن كلامهم فيها حكم إلهى تلقوه من الله. وهاهي ذى مصادر هذه المحنة تشهد بذلك.

كما تشهد بأن مصدر المحنة أولا لم تكن الدولة، بل فريق من المجتهدين العقليين الذين تصدوا للدفاع عن

الإسلام ضد الهجمات الفكرية التى حقدت عليه وعلى دولته على نحو مانشاهد نحن فى هذه الأيام. ثم استغلت هذه الطائفة قربها من الحاكم، وزينت له مازينت، على نحو مايقع فى كل عصر وأوان.

وهذا الاختلاف فى الاجتهاد تقرير عملى من مناهج الإسلام فى إقرار حرية العقل، وهو فى المناهج الفقهية توسعة ورحمة- استقرت فى أمة الإسلام بجانبها العقلى والفقهى ، منذ فجر الأسلام.

فهذه الحسنة الإسلامية، فى إفساح المجال للعقل البشرى، فى مجالات البحوث الفكرية النظرية، ومجالات التشريعات الفقهية، ودلالاتها الحضارية، وشهادتها بسبق إسلامى عالمى- أهذه الحسنات تقلب فتجعل من سيئات المسلمين؟ ويبنى عليها تداعيات خيالية للوصول إلى رفض حكم الاسلام؟!!

هذه المجالات العقلية والتشريعية، التى اصطرع فيها الفكر الإسلامى حرا طليقا فى جميع مجالات الحياة، والتى يعترف بها الكاتب- ضمنا- عندما تخيل خلافات

أئمة المساجد. هذا الاصطراع الذى كان من ثماره هذه الذخائر من فقه السياسة والمال والمعاملات والأسرة، والحرب والسلام... كل ذلك يقلب عند كاتب السقوط ليكون مدعاة سخرية واستهزاء.

كيف يوفق لنا صاحب السقوط بين تقديسه للقرآن وقوله إنه صالح لكل زمان وبين جعل هذا نفسه مكمن الخطر لأن العلماء هم الذين يتولون الشرح والتفسير ص١٩.

القرآن يتسع بنصوصه لكل عصر (هذا كلامه).

وتفسيره فى كل عصر يحدث فيه الاختلاف (هذا مراد كلامه).

والاختلاف خطر يفضى إلى الاضطهاد باسم الدين (هذا كلامه).

وإلى التفسيق والتكفير والقتل وإراقة الدماء... (هذا كلامه).

ماالنتيجة المنطقية لهذه المقدمات؟

أراها فى غاية البداهة. إنها ترك القرآن!!

وبذلك عادت المعجزة منقصة يكمن فيها الخطر، وعادت الحسنة سيئة، وقلبت على وجهها.

كيف يتفق ذلك مع دعوى الإيمان؟

كيف يمكن قبول الإسلام عقيدة، ورفضه حكما وقيادة ص١٨ - ١٩؟

كيف يمكن قبول الإسلام مصحفا، ورفضه سيفا وحكما ص١٨ - ١٩، وعلى غلاف الكتاب: (نعم للمصحف والدين. لا للسيف والحكم).

كيف يخدم الإسلام فصله عن السياسة والحكم، وتحويله إلى عظات واحتفالات ص٢٣، ٤٣؟!

كيف يفهم أن القرآن يؤيد الشيء ونقيضه، فيتخذه كلٌّ من المختلفين حجة لهم؟!

كيف يتفق مع الإيمان أن تكون شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله مسبوقة بشعار المواطنة؟!

وكيف يتفق مع هذه الشهادة رفض مافى القرآن من

آيات الحكم والتشريع، والخوف على المعازف، وأنواع الرقص، وشارع الهرم– أن تزول؟!

إن هذا الشطر بين الدين، وسياسة الدين هو ماأراده للمسلمين أعداؤهم.

أنا لاأتهم، ولكن أدعو إلى مراجعة النفس بهذه المقابلات التى نقلتها من غير تحليل ولا استنباط!!

ثم يبقى من جانب المقابلة شيء مهم، بل أشياء:

ينتهى د. فوده من عرض عصر الراشدين إلى استخلاص ست نتائج، هى:

١ ــ أن المجتمع المثالى أو اليوتوبيا لم يتحقق على مدى التاريخ كله، ولا فى عصر الراشدين والخلافة كله.

٢ ــ هناك فرق بين الإسلام الدين والإسلام الدولة، والأول يقدس، والثانى تجد فيه النقد الكثير.

٣ ــ الدعاة إلى الإسلام يقعون فى خطأ التجزئة، ويهملون فارق القياس.

٤ ـــ ينكر على الدعاة أن يروا فى الكوارث انتقاما إلهيا جزاء مفارقة منهجه، يرجع إلى إرادة الله..

٥ ـــ فصل الدين عن السياسة يخدمهما معا.

٦ ـــ استقراء التاريخ الإسلامى يدل على أن أئمة الفقه كانوا أكثر من عانى من الحكم السياسى المتسربل بالدين.

(المجتمع المثالى لم يتحقق على مدى التاريخ الإنسانى كله)

(وبالتالى على مدى تاريخ الخلافة الإسلامية كله)

مجازفة بالغة بالجزم بالحكم الكلى الذى يلزم لاستنتاجه الاستقراء العلمى، والكامل للتاريخ وهو أمر جد عسير من جهة النظر، وجدُّ مستحيل من جهة الواقع.

مثلهما فى المجازفة قوله (قد حفل التاريخ الإسلامى كله بالمزايدة فى الدين صـ٥٧).

إن القرآن – الذى يؤمن به صاحب السقوط، والذى هو عنده فى القلب – قد أثبت مدينة فاضلة بقوله ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس

لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ سورة يونس: ٩٨.

وأخرى فى قوله ﴿**لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور**﴾ سورة سبأ: ١٥.

وللتاريخ فى مملكة سبأ، وإنتاجها، واقتصادها، وجناتها، وحكمها، وسياستها.. تفاصيل تفوق الحصر، وتفوت الأمل.

ومن الممكن أن أذكر غير هاتين، ولكن أكتفى؛ لأن القضية السالبة الكلية كقوله: (أمر لم يتحقق على مدى التاريخ كله) تنقض، ويظهر خطؤها بقضية واحدة موجبة جزئية بلْهَ قضيتين: قوم يونس، ومملكة سبأ.

وقوله (حفل التاريخ الإسلامى كله بالمزايدة فى الدين) قضية موجبة كلية ينقضها، ويبطلها قضية سالبة جزئية. وصاحب السقوط لاينكر أنه لم تحدث مزايدة فى الدين فى حكم الصديق، ولم تحدث مزايدة فى الدين فى

عهد عمر، فضلا عن عهد الرسول. وهو لاينكر أيضا أنه لم تكن مزايدة فى الدين فى عهد عمر بن عبد العزيز. والذى كان عهده دليلا عمليا على قدرة الإنسان على تغيير مجرى التاريخ، وإصلاح اعوجاجه. عبرة للمتشائمين، والمتشككين والمشككين!.

ومثل ذلك قوله (الدولة الإسلامية التى استمرت ثلاثة عشر قرنا لم تعرف حديث المعارضة داخل المسجد إلا فيما لم يزد عن واقعتين يتغنى بهما الركبان) صـ ٤١.

ومبدئيا: ينقض قوله هذا قوله فى الصفحة نفسها (بل قل إن التأييد فى أغلب الأحوال لم يكن يأتى إلا بالسيف) فإذا كانت المعارضة موجودة على الأغلب؛ والسيف يقهرها، فالذنب للسيف، والفضل للمبدأ أن يكون غالبا على التاريخ مع وجود السيف.

وتاليا: روى مسلم، والبخارى أن مروان بن الحكم أراد أن يخطب خطبة العيد قبل صلاته، فأخذ أبو سعيد الخدرى يجره نحو الصلاة، ثم قال له: الابتداء بالصلاة، غَيرّتم والله. فقال له الأمير: قد ذهب ماتعلم، فقال:

ماأعلم خير مما لاأعلم. فقال الأمير الأموى: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبلها.

فهاهنا معارضة فى المسجد موثقة فى أصح مصادر التاريخ الإسلامى: البخارى ومسلم. ولكن عذر صاحب السقوط قائم حين لايعلم مافى الصحيحين!

ثم إن قول الأمير: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة: معناه وجود معارضة جماعية فى المسجد، وليس مجرد معارضة فردية.

الكاتب يقصد بالمعارضتين اليتيمتين: معارضة المرأة فى رغبة عمر فى تحديد المهر، ومحاورة أحد المسلمين له فى ثيابه الطويلة.

هل نسى الكاتب قول الرجل لعمر: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بالسيف، ويحمد عمر الله لذلك؟

وهل نسى معارضة بلال لعمر فى قسمة أرض العراق؛ حتى إن عمر يرفع يديه ويقول: اللهم **اكفنى بلالا وأصحابه**. انتبه من فضلك: وأصحابه.

نبئنا ياحافظ تاريخ الإنسانية كله بمثل تاريخ الإسلام:
عبدٌ غريب، فى أرض عصبية، أصبح بالإسلام يعارض عمر. وكفى به مثلا. وبلال هذا هو الذى قال عنه عمر: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا. وبلال هذا هو الذى اعتقل خالداً بعمامته، وكفى به مثلا، ليحاسبه على ماكان عنده من مال المسلمين، بعد أن تهيّب حياءً أبو عبيدة من مساءلته!!

ومعارضة علىّ لعمر عندما همّ عمر بتولى قيادة الجيش فى فتح العراق.

ومعارضة عمر للصديق فى حرب الردة، ومانعى الزكاة.

ومعارضة السعْدَيْن للرسول فى مصالحة عطفان أيام حصار الأحزاب.

ومعارضة الأصحاب والتابعين لمعاوية فى أثناء خطبته مرات.

ومعارضة المصرى لعمرو بن العاص، حتى نَفّقه عمرو، ولما شكى المصرى إلى عمر، حكم عمر على

عمرو بأن يرد عليه المصرى كلمته على أعين الناس .

ومعارضة الناس لعثمان مرات فى المسجد .

أويكفى هذا ياصاحب السقوط لنقض قضيتك .

إنها الجرأة على التاريخ ! !

أما حديث التجزئة ، ومفارقة القياس ، فقد عرضت له مرات ، مبينا أنه قد حصر نظره ، عامداً على فترة تاريخية ، بل على بعض وجوهها . تاركا المحصلة الكلية للتاريخ الإسلامى التى وجهت العالم كله غير وجهته ، وصححت مساره بشهادة أصحاء القلوب .

ثم هو قد قاس جميع عصور التاريخ الإسلامى كلها على تلك الوقائع التى انتقاها ، فأى مفارقة للقياس أبعد من ذلك ؟ !

بل الأبعد من ذلك فى المفارقة أنه قاس الإسلام نفسه تاريخا ودولة على بعض التصرفات السياسية . ليخرج بحكم دائم بضرورة إبعاد الإسلام عن الدولة ، لحتمية الرجوع إلى هذه التصرفات لوعاد الإسلام الدولة . مخالفا

بذلك النظرية الماركسية فى الجدلية التاريخية المادية . فهل يعذر فى هذه كعذره فى الجهل بما ذكر الصحيحان ؟!

ولكن ماعلينا من كل هذه المقابلات والتناقضات، على أهميتها، فهى أمور تتعلق بمنهج التفكير، ولنأخذ مثلا من استنتاجاته، الذى يتعلق بالموضوع لابالمنهج.

يقول : إن من يصورون للشباب الغض أن قيام حكم دينى سوف يحول المجتمع كله جنة فى الأرض (يوطوبيا) يسودها الحب والطمأنينة، ويشعر فيها المواطن بالأمن، ويستمتع فيها الحاكم بالأمان، ويتخلص فيها الأفراد من سوء القصد، وحقد النفوس، ونوازع الشر– إنما يصورون حلما لا علاقة له بالواقع، ويصورون وهما لأساس له من واقع التاريخ، ولا سندله من طبائع البشر.

استحلفك بالله الذى تقول إنك تؤمن بدينه، وتحفظ كتابه فى القلب، وتأخذ بدينه (كأحد أسس تكوين الضمير فى المجتمع– وتتركه كأساس لبناء الدولة) مَن مِنَ الدعاة صور المجتمع جنة إذا قام فيها حكم الدين، ونفذ فيه سياسته؟

قل ولا تعرض عن ذكر الأسماء (حتى لايتصور أحد أنك تبنى موقفك الفكرى على عداء شخصى له صـ ٥٧).

قل مهما (كان حكم المفارقة، وحجمها بين مناصب هؤلاء المصورين وبين الحلم الذى صوّروه).

قل فإنك قد صرّحت غير مرة باسم الشيخ صلاح أبو إسماعيل، واعترفت له بأنه عندما وصفك بأنك كالملح إذا وضع على النار. وشرحتها بأن معناها أنك تنفجر، وأنه أصاب فى وصفك كبد الحقيقة صـ٩٩. وأغلب الظن أنك كتبت كتابك وأنت فى زئاط هذا الانفجار الإسماعيلى فعدوت الحق، وحرّفت الكلم من بعد مواضعه.

وأنت أيضا صرحت باسم إبراهيم مصبح، والدكتور الراجحى رغم مازعمت من تعففك عن ذكر الأسماء ليكون حكمك موضوعيا لا شخصيا.

إن الفكر السليم لايتناقض، وإنما يتناقض الفكر المنفجر.

قل الأسماء، ولا تخش لائمة، لكن على أن تكون أسماء حقيقة، ليست إيهاما كما فعلت فى نقلك عن كتاب الدكتور زكريا البرى.

قل لنزيد معلوماتنا، أو نصححها.

فإنا نعلم أن الذين صوروا هذا الحلم (اليوطوبىّ) هم أفلاطون فى جمهوريته. والمعلم الثانى فى مدينته، وسير (توماس مور) فى يوطوبياه!

ومع ذلك فقد فات صاحب السقوط أن مؤلفى هذه (اليوطابيا) ماعدا الفارابى كانوا ذوى نزوع استبدادى، يؤمن بالإذعان الكامل للسلطة، ولم يدركوا تغير العلاقات البشرية، كعملية مطردة، فضلا عن التطور. على الرغم من أنهم، ومعهم كارل ماركس، سطروا على الورق فكرة تلاشى الدولة وزوالها، كمثل أعلى نهائى.

وهذه المدينة على مافيها، مما وصف صاحب السقوط كانت عقيدة إنسان (العصر الفكتورى)، والذى تمنت رئيسة وزراء الإنجليز اليوم العود إليه. (وخلاصة هذه

العقيدة، لإنسان العصر الفكتورى: الإيمان بمبدأ التقدم، الذى يقضى بأن الناس جميعا، فى نهاية الأمر، إخوة أحرار متساوون، ولا حاجة إلى الشرطة، ولا الضرائب. والعمل طوعى. ممتع للنفس، ولن يكون هناك فقراء، وسوف ينتهى العنف بكل أشكاله.

وعلى الرغم من أن هذا المجتمع المثالى بعيد جدا من حيث الزمان، إلا أنه يقينى (سوف يتحقق من خلال التربية والتعليم، وتوسيع نطاق الديمقراطية تدريجيا ...(١).

هل فى الدعاة إلى دولة الإسلام من قال ذلك أو قريبا منه، أو حلم به؟

أم أنه نقل التهم التى قالها غيرهم وإلصاقها بهم؟ كنقل القول بالحكم الإلهى من عصور أوربا المظلمة، وما ترتب عليه من الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة – نقل

١ ــ كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث:صـ٥١، ٢٥١ من سلسلة عالم المعرفة

ذلك إلى الإسلام وإلصاقه به، وبأهله؟!

إذا كانت (سياسة الدين الإسلامى) تقضى بقانون أساسى يحمى الدولة، وقانون تشريعى يحمى المجتمع- فكيف يتأتى القول بجنة على الأرض بلا آثام؟

وهب الدعاة قالوه، فلماذا لم نردَّ قولهم إلى الكتاب والسنة؟ وهما بينا أن المجتمع تقع فيه آثام، ووضعا لها علاجا؟ أم أن الحديث (سياسة فى سياسة) لاتجد فيه آية ولا حديثا؟ (قوله)[1] والأهم الآن:

هل عندما فصلنا الدين عن الدولة منذ أواخر القرن التاسع عشر، الذى شهد صراعا حول هذه القضية، فيما ذكر كاتب السقوط، وحسم الصراع لصالح الدولة المدنية، واختيار النظام الأوربى على يدى محمد على إلى يومنا هذا- هل أصبحت حياتنا جنة بلا آثام، تسوّغ لنارد الحكم الإسلامى، والاستمساك بالنظام الأوربى،

---

١ ـ ومع هذا ستشهد بالحديث (إن الدين «وعر» وهكذا..) صـ٥٨.
ونفيه الاستشهاد صـ٣٣

أم أصبحت آثاما بلا جنة؟!

إن الإسلام لم يأت للقضاء على الطباع، وتبديلها كلية، بل جاء لإعلاء الغرائز، وتوجيهها، وتكميلها؛ ليصل بالإنسان إلى أقصى مايمكنه من كمال حجبه عنه نظم فاسدة، وديانات حرّفت. فأقام له الدين، وشرع له سبيل الترقى. يتقاسمها أفراده، وجماعاته، فتوجد فى مجموعهم- وإن لم توجد فى جميعهم فضائل الإسلام. ولولا الدين، وسياسته لما وَجدت هذه الفضائل سندها الشرعى، ولا بواعثها الشعورية.

إنه مما ينبغى أن يعلم أن اللهَ تعالى بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الناس على غاية مايمكن من الصلاح، لالتبديل نوعهم، فإن هذا ممتنع فى الطبيعة الإنسانية، كما هو ممتنع فى طبيعة (سياسة الإسلام) التى وضعت حدوداً وعقوبات. ففيم كانت، إذن، تشريعاتها لوزعمت تغيير الإنسان. ولهذا قال الله ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء..**﴾ سورة البقرة: ٣٠.

ولذلك قال: ﴿فاتقوا الله ماستطعتم..﴾ سورة التغابن: ١٩.

فليست القضية، إذن، قضية جنة على الأرض، تحققها دولة الإسلام، لكنها قضية منع الفساد إلى أقصى حد تستطيعه طبيعة الإنسان، وتحقيق الخير بأقصى طاقة للإنسان. مع فتح باب الترق للأفراد يتسابقون فى الخير، بحيث يجوز، لمن تبلغ به همته، ويبعد به مناط العزم أن يصل إلى درجة العصمة. فلا هو مفضل بالميلاد، ولا هو وارث خطيئة بالميلاد!

ولا ريب أن انفصال الانسان عن الدين عامة، وعن الاسلام خاصة قد هبط به عن تلك الغاية، وحرمه هذا السبق الحميد. ولا ريب أن انفصال الاسلام، خاصة، عن دولته قد قضى على أمته، ووصل بها إلى حالها الآن، مما لايسر صديقا، أو مخلصا لدينه وأمته.

إن صورة المجتمع التى تحققها سياسة الاسلام ليست الصورة الخيالية التى يرسمها خيال فيلسوف مثالى النزعة،

ميتافيزيقى التفكير. ولاهى الصورة التى يرسمها أحد من الناس. إنما هى الصورة التى يوضحها القرآن، وتفصلها السنة:

صورة المجتمع الإسلامى

فى سياســة الدولة :

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا * يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول..﴾ سورة النساء: ٥٨ – ٥٩ **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾** (سورة آل عمران: ١٥٩).

(إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها) حديث شرف فى الولاية ومنصب الحكم.

فى العلاقات الخارجيـــة :

﴿ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ سورة المائدة : ١

﴿وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ ... ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ..﴾ سورة الأنفال : ٦٠ — ٦١ ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ النساء : ٩٠

فى علاقة المخالف فى العقيدة :

﴿لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ ... ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا

إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم..﴾ سورة الممتحنة: ٨،١-٩.

فى القضـــاء :

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا -هو أقرب للتقوى..﴾ سورة المائدة: ٨.

فى المــــــال :

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ سورة البقرة: ١٨٨.

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾ سورة النساء: ٥.

وآيات ثلاث فى تفصيل المواريث هى: (١١-١٢، ١٧٦ من سورة النساء).

وفى الدَّيْــــن :

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينْ إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ ... ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة﴾ سورة البقرة: ٢٨٢ – ٢٨٣ .

فى المرأة والأســـرة :

﴿لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ سورة آل عمران: ١٩٥ ﴿فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ ... ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم..﴾ سورة النساء: ٣، ١٢٩ ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة..﴾ سورة البقرة: ٢٢٨ .

فى المجتمع وآدابه وسلوكه :

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين

إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب إرحمهما كما ربيانى صغيرا * ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيرا * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مسئولا * وأفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا * ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا﴾ سورة الإسراء: ٢٣ - ٣٩.

وأساس كل هذه التشريعات والآداب فى المجتمع المسلم، وذروة سنامها هو توحيد الله. لاحظ آيات سورة الإسراء افتتحت به، واختتمت: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه... ولا تجعل مع الله إلها آخر**﴾:

﴿**قل هو الله أحد الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد**﴾ سورة الإخلاص.

هذا المنهج فى وضوح جماله، وجمال وضوحه هو الذى حققته دولة الإسلام، واتصف به المسلمون فى

مجموعهم، لافى جميعهم، إن فات بعضهم بعضه أدرك غيره، وإن قَصُر أحدهم دون بعضه، بلغ فى الآخر شأوه، وتحقق جميعه فى مجموعهم، ولم يكن حلما عابرا لحالم، ولا خيالا شاردا لشاعر، ولا ضربا بالغيب من كاهن. شهدت به الدنيا، وقام به فى فم الزمان ناعق، وأذن به على قمة المجد مؤذن. لايرغب عنه إلا من سفه نفسه.

وهو هو الذى يزحف اليوم فى العالم. برغم ماعليه المنتسبون إليه زوراً وبهتانا، والمدّعون الاعتزار به رثاء الناس – من تخلف لايغرى بالقبول، بل يكون حجة لمن رفضه. عمن لايعلم حقائقه. يزحف الإسلام بحقائقه الذاتية، وحيويته الخاصة. يؤمن به من أهل الحضارة المسيطرة على العالم اليوم، ولا يحملون عليه آثام تاريخ أهله، ولا مآسى حاضرهم ولا يزعمون لأنفسهم وحضارتهم مايزعمه لها صاحب السقوط، إذ يرى الحوار الحر، غير العنيف لايتحقق إلا فيها، بينما لايتحقق إلا بالسيف فى دولة الإسلام!! صـ٢٧ والرزق الواسع

أيضا لايكون إلا فيها صـ ٣٢ !! وحفظ الأرواح لايكون إلا فيها صـ ٤٠.

هذه هى سياسة دين الإسلام، تحققت على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان على تفاوت من قرب الحكام وبعدهم عن الإسلام وعلى الذين يزعمون أن سياسة الدين تتحقق مع غيبة السلطان أن يعلنوا أنهم هم أصحاب (اليوطوبيا)، والقائلون بأحلام الخيال وخيال الأحلام.

إن فصل الإسلام عن الدولة، قضاء على الدولة والإسلام معا، شهد بذلك التاريخ (ولا ينبئك مثل تاريخ) وماذل المسلمون، وما ضاع عزهم إلا منذ ضاع من يدهم سلطان الدين، ودين السلطان.

عندما هاجمت جيوش (هتلر) روسيا، لم يجد قادتهم غناء فى (دين الماركسية) فنفخوا فى روعهم (دين الوطنية). ولما كان (نابليون) فى (امبابه) وقبل معركتها نفخ فى روح جنوده (دين القومية) وقال لهم: إن أربعين

قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام!

ولا باعث كالإسلام، ولا إسلام بغير سلطان!

والتاريخ والحاضر شاهدان عدلان!

فما بالنا نهجوه ونهجره، ونقطعه إربا إربا، بينما ندعو إلى (دين الغرب) وحضارته؟ ولم يجد أصحاب هذه (الحضارة الأصل) مايجده الدعاة إليها منا، أصحاب (الحضارة التقليد). وأصحاب الأصل شهدوا للإسلام، ومازالوا يشهدون:

نقل د. يوسف إدريس فى أهرام ١٠/٦/١٩٨٥ عن الأديب والفنان السويسرى (دور يماث) والذى سيزور القاهرة فى نوفمبر القادم قوله: (أنا حقيقة مواطن فى دولة أوربية ولكنى دائم التتبع لما يحدث فى عالمكم. أنا أعرف الكثير عن أمريكا اللاتينية، وأفريقيا والشرق الأوسط حين كنت فى أمريكا صدمت تماما بما رأيته فى مستوطنات اليهود الحمر، ولدرجات الفقر غير الانسانى التى يعيشها الهندى الأمريكى هناك. وقد جعلتنى تلك

التجربة أغيّر كثيرا من أفكارى حول التقدم، ومفهوم الحضارة، ودور أوربا وأمريكا. أنا لم أقرأ كثيرا فى تاريخ الشعوب الإسلامية والإسلام، ولكنى شديد الإعجاب بالحضارة الإسلامية فى العصور الوسيطة، وما استحدثه العرب والمسلمون من اكتشافات فى علوم كالرياضة والفلسفة إلى درجة أن كثيرين من الأكاديميين الأوربيين كانوا يعرفون العربية، ويدرسونها ويتعلمون منها منطق أرسطو وفيثاغورس وأفلاطون دون أن يلموا بالإغريقية نفسها.. وكثير من التراث الإغريقى وصل إلى أوربا عن طريق ترجمته من اللغة العربية وليس الإغريقية.. إن تأثير الفكر الإسلامى العربى كان قويا على أوربا...اهـ.

وأعلن د. يوسف سعادته لهذه الشهادة من الأديب والفنان العالمى. وهو قد سبق له إعلان هذا الاعتقاد فى أثر الحضارة العربية الإسلامية فى أوربا، وأعلنه قبلا فى أهرام ٦/٥/٨٥ وسبق اقتباس عبارته.

ولكنه فى أهرام الأثنين ١٧/٦/١٩٨٥، وأهرام الاثنين ٢٤/٦/١٩٨٥م تساءل منكرا على دعاة تطبيق

الشريعة: أية شريعة هذه التى ينادى بها المنادون..؟ هل هى شريعة الخمينى..؟ هل يعنى تطبيق الشريعة أن نتبع نظام البيعة.. فيجتمع ستة وأربعون مليونا من المصريين، أو مائة مليون وعشرون من العرب ليختاروا إماماًيحكم حكما مطلقا، حتى الشورى لاتكون بالنسبة إليه أمرا ملزما.. أهذا هو الوقت المناسب لنجعل من تطبيق الشريعة قضيتنا؟ هل قطع يد السارق، وجلد الزانى سيوقف سيل الدماء فى حرب إيران والعراق؟ أليس أعداء الإسلام قد أفلحوا فى أن يشغلونا بقضية الشريعة..؟... إن الإسلام الذى سيطبق هو إسلام الميكروفونات إسلام الإرهاب.. ومانفعل بملايين الأقباط إذا هم أصروا على تطبيق الشريعة المسيحية...؟ اهـ.

ألا ياقوم للعَجب العجيب

وللغفلات تعرض للأريب!!

لست أدرى أمن توارد الخواطر اتفاق هذه الأسئلة وما أثارة صاحب السقوط؟ أم ماذا؟ وهل كان يصعب على مثيريها إجاباتها لو آمنوا بتطبيق الشريعة؟

كيف نسعد بالحديث عن حضارة المسلمين السالفين، ونعلن إيماننا بها، ثم نعارض دولتها؟ وما تلك الحضارة إلا ثمرة من ثمارها، ماكان لها أن تكون جنى دانيا إلا فى دولتها؟

هل نلغى الشريعة للاجتهادات الفقهية فى تفسيرها؟ مرة أخرى أعيد كلمة المأمون للمرتد الخراسانى: ينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لاختلاف فى تأويل ألفاظها..

وينبغى علينا أن نلغى القوانين والدساتير لاختلاف القضاة، والمحاكم بدرجاتها فى تفسيرها!

إن إقامة الحدود لن توقف دماء المسلمين المقتتلين، ولكنها ستوقف هذه السرقات، والاختلاسات.. كما ستقضى على أسبابها الاجتماعية التى تدفع إلى ارتكابها. أما دماء المسلمين المراقة فلها تشريع آخر شرعه الإسلام، لو التزمه المسلمون لحفظت دماؤهم.

والشريعة ليست هى الحدود، هذه غفلة، أو تغافل. إنما هى الصورة التى قدمت من القرآن الكريم ـ على

إيجاز - التى كون بها الإسلام المجتمع الإسلامى.

وكما تكون هناك محكمة دستورية تقطع الخلاف فى تفسير القانون - تكون هناك، كذلك محكمة، أو هيئة من فقهاء الشريعة، والقانون والاجتماع.. لحسم الخلاف. وقديما عرف الفقه الاسلامى هذه المشكلة، ولهم فيها عبارتهم المعروفة، وهى: حكم الحاكم يقطع الخلاف. وإلى عهد ليس بالبعيذ كان قانون الأحوال الشخصية يعتمد على مذهب أبى حنيفة، ولـم تعرف فى ذلك مشكلة، ولم يدع أحد إلى وقف قوانينها لاختلاف أئمة الفقه فيها.

ياسبحان الله. الإسلام الذى سيطبق هو إسلام الميكروفونات، وإسلام الإرهاب! من قال ذلك؟

إن هذا الذى ينكره، وننكر معه بعضه إنما هو التنفيس عن الرغبة المكبُوتة فى عدم تطبيق الإسلام والتى يجد كبتها سندا من القوة على عهود متوالية.

إن مشروعات التطبيق، وتنفيذها، لن تكون إلا

بأيدى ذوى خبرة ودراية وتخصص. هذا هو الإسلام (إن خير من استأجرت القوى الأمين) (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم).

كما أن مشروعات القوانين الاسلامية يقوم بها من هم أحق بها وأهلوها، كذلك تنفيذها. يكون، فى كل موقع لأهله. لم يقل أحد إنه للأصوات الهاتفة، والعقائر المرفوعة. ولا لعالم الدين لمجرد أنه عالم دين. فى كل مجال من اجتمع له العلم بطبيعته والقوة على تنفيذه فهو له، لايقضى عالم الدين لأنه عالم دين، ولا يقدم لعمل لمجرد أنه عالم دين. كلا ليس هذا ولا ذاك فى الإسلام. والزعم بأن تطبيق الإسلام ينتهى إلى قيام حكومة دينية يتولاها (رجال الدين) الذى يحتكرون تفسير الكتاب والسنة — زعم غريب، ليس من الله ودينه فى شيء، إنما هو على حد المثل: (رمتنى بدائها وانسلت) وأشد منه غرابة الزعم بأن الإسلام إذا طبق لن يكون إلا إسلام الهاتفين!

على أن كثيرا من هؤلاء ليسوا أقل شأنا من كثير (من

أهل الثقة) الذين تولوا الكثير من المناصب الخطيرة، والدكتور يوسف بذلك، وبآثاره جد خبير.

إنه لمن أعجب العجب أن نختلف على تطبيق الإسلام ونحن مسلمون!!

لو بغير الماء حلقي شرق

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

لمـاذا الآن ؟

سؤال يجلب الأسى، ويجرح المشاعر.

وهل سؤال مردود بمثله: ولماذا ليس الآن؟

لماذا الآن؟ لأننا وأنتم مسلمون. ولأنه واجب فورى لاتراخى فيه. ولأنه واجب الأمس قبل الآن، فلا نزيد إثم التراخى.

لماذا الآن؟ لأنه– كما قال د. يوسف فى رده على الأستاذ خالد محمد خالد: وهذه الطريقة فى (الحكم

الإسلامى) هى الطريقة الجديرة حقا بإسلام له أربعة عشر قرنا، يعلم الناس علم التفكير وقيمة العقل، والأخذ بأسباب التحضر. ولو كان الحكم الإسلامى سيطبق بالطريقة التى أوجزتها **لكان شيئا أعظم بكثير من كل المذاهب الدنيوية المعاصرة**. لكان الجنة على الأرض... اهـ.

حسنا، تعالوا نتعاون على هذا الذى أعجبكم. بل كونوا أنتم القادة، ونحن الأتباع. كونوا أنتم المفسرين للشريعة عن علم، والمنفذين لها عن قوة وأمانة، ونحن المحكومين بها على أيديكم. ولو أن المراد من سؤال : لماذا الآن؟ التأنى فى التقنين والتروى فى التنفيذ، حماية للحق، ورغبة فى العصمة، وبعدا عن فورة الحماس... ففى ظنى أن أحدا لايمانع فى ذلك، ولا سيما أمور لايؤمن فيها الفور الكامل مثل النظام الاقتصادى ولكن الخوف أن يكون سؤال لماذا الآن سؤال تسويف. وكاتب السقوط يقول مرة فى معارضته تطبيق الشريعة : (التطبيق الفورى) صـ٦٣، صـ٧٠، صـ٧٣، وأخرى يطلق

المعارضة من غير تقييد بالفورية صـ٢٣. وههنا موضع الخوف فلنفرغ من التقنين، ولنرتب الأولويات، ثم لنبدأ بالتنفيذ.. وعند ذلك لاعذر لحماس، ولا متحمس!

إن الاحتجاج بالوسوسة الخارجية يقطعه قيامكم أنتم بحق الإسلام. فلماذا إلا تفعلون ذلك الآن؟

هل تعوقه القضايا الخارجية؟

ومتى شغلت أمة بقضاياها الخارجة عن قضاياها الداخلية؟

إن الداخل ظهير الخارج، يقوى بقوته، ويهن بوهنه.

ثم إن (الحكم الإسلامى) إذا نفذ سوف يحل أولى قضايانا الخارجية: قضية فلسطين ومأساتها فى ظل التفرق العربى والاسلامى، وتبعية دوله للشرق أو الغرب.

ثم هو كذلك يحل أولى قضايانا الداخلية: الديمقراطية المطلوبة فى بلاد العرب بين الوعد والتنفيذ

تعالوا نفذوا ونحن من ورائكم.

وإلا، فتعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

أما التعلة بالأقباط فعله مردودة بما قدمت، فالمسلم المطبق للإسلام يرى حق القبط دينا. أما قول د. يوسف: ماذا نفعل بملايين الأقباط إذا هم أصروا على تطبيق الإنجيل؟

فنقول: أهلا وسهلا! فليطبقوه والتوراة. وقد أسلفت صورة موجزة من تشريع التوراة والإنجيل. فليطبقوه علي أنفسهم ﴿**وَلْيحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه**﴾ سورة المائدة: ٤٧. ليحكموا، ثم لينظر د. يوسف أذاك مستطاع؟ وليحكموا به كله بما فيه من البشارات. ماأسعدنا إذا طبق المسلمون القرآن، والأقباط الإنجيل!

* * *

الدولـــة المدنيـــــة

يرى الدكتور يوسف ألا ننشغل بما وسوس لنا به أعداء الاسلام والمسلمين: بقضية تطبيق الشريعة عن قضايانا الخارجية!

ونرى أن القضية الخارجية الأولى التى أذ كاها التمزق العربى هى فلسطين. نراها كذلك برؤية الواقع، ثم برؤية الأستاذ (الفقيه البصرى) الزعيم المغربى البارز وأحد المؤسسين التاريخيين لجيش التحرير المغربى والاتحاد الوطنى للقوات الشعبية- كما عرفت به صحيفة الأهرام فى عددها يوم الخميس ٢٧/٦/١٩٨٥ إثر مقاله المنشور بها، الذى يقول فيه: كثيرة هى القضايا التى يتشعب حولها المأزق العربى الراهن. غير أننى أعتقد

بضرورة التركيز على ثلاث منها . تشكل – برأيى العقدة الرئيسية فى المأزق .. وهى القضية الفلسطينية فى ظل حال التبعية الذى تعيشه معظم الأنظمة العربية . وقضية الديمقراطية .. ثم قضية عودة مصر .

ونرى أن حل هذه القضية ، بما يذكيها يكمل فى عوامل ، إن لمن يكن الاسلام أولها ، فهو روحها ، الذى يبعث فيها الحياة ، ويمنحها فاعليتها .

فى عدد الأهرام السابق نفسه يقول الزعيم الفلسطينى ، والكاتب المعروف : (أحمد صدقى الدجانى) : (ولانغفل عن التناقض الرئيسى القائم بين الإخوة العرب مجتمعين وبين عدوهم الذى يحتل أراضيهم .. وكل مادونه تناقضات ثانوية . ولكم تأثرت حين سمعت عددا من المسئولين وهم يذكرون بهذه الحقيقة فى اجتماع فلسطينى بينهم .. كان الحديث يدور مع زائر قادم من الوطن المحتل .. قال : .. إننى الآن أكثر ميلا لتوطين النفس على فكرة الصراع الطويل .. وسؤالى هو : كيف نحدد العوامل التى تمكننا من الانتصار فى هذا

الصراع؟ قلت له: تداعى إلى خاطرى حديث شيخ حكيم.. تعود هذا الشيخ، الذى ناهز الثمانين كلما التقينا فى أكاديمية المملكة المغربية التى تجمعنا عضويتها أن يسألنى عن قضية فلسطين، وفى آخر لقاء، قبل شهرين، علق على إجابتى قائلا، وهو الذى شغل منصب الرياسة الأولى فى بلده سنوات: صراعكم طويل المدى، وقضيتكم معقدة، ولكنها ستحل فى يوم من الأيام. لقد عاشت بلادى صراعا من هذا النوع، وجاء وقت توافرت فيه لها ثلاثة عوامل أوصلتنا إلى النصر: العامل الأول: رجال دين نجحوا فى شد الشعب إلى عقيدته. الثانى: رجال فكر سياسى تميزوا بالثقافة، وأقاموا صلات صحيحة بالعالم الخارجى. والعامل الثالث: رجال عسكريون آووا إلى قمم الجبال، وتابعوا المقاومة بلا كلل ولا ملل ولا فتور، وكانوا قدوة لشباب معطاء التحق بهم، قال ابن الوطن المحتل: العوامل إذن هى: العقيدة أولا. والنضال العسكرى ثانيا. والنضال السياسى ثالثا. اهـ

نجحت دولة المغرب فى قضيتها بهذه العوامل. شهادة مجرب خبير، ولا ينبئك مثل خبير.

ويرى صاحب السقوط أن نعدل عن دولة الإسلام إلى نظام الدولة العلمانية الأوربية، التى اختارها شعب مصر من أيام دولة محمد على، وأنه فى ظل هذه الدولة يتحقق فى ظلها أننا (نتحاور ولا نتصارع بالسيف، ونقبل بهزيمة الرأى أمام الأغلبية عن رضا) صـ٢٧، صـ٦٨. ويتحقق الرزق الوافر من التكريم وحرية إعلان الرأى. ولك أن تقارن (قصص التاريخ، بل مآسيه إلى واقع اليوم، وأن تقارن مايحصل عليه علماء الدين من تكريم وإجلال ومنابر إعلام.. وبين ماحدث لأئمة الفقه.. الذين لايدعى أحد من المعاصرين أنه يطاولهم..) صـ٣٢.. وحفظت فيه الأرواح ولم يرفع سيف (وكل هذا مرهون بإطار الدولة المدنية..) صـ٤٠.

لست أدرى من الحالم ؟

أحكم الإسلام، والإسلام الدولة هو الذى يستحل

دم المخالف (بينما الأمر على العكس من ذلك تماما فى ظل مانعيشه من فصل بين الدين والسياسة...)؟

كم وددت- والله- أن يكون الأمر كذلك. ولكن ماالحيلة والحقيقة تصرخ بأندى صوت بغير مايصور الكاتب؟!

(محمد على)- الذى رأى الكاتب أن عصره حسم الصراع بين الاتجاه إلى الحكومة الإسلامية والحكومة المدنية، والذى كان اختياره بلسان الزعامة الشعبية التى كان على رأسها عالم الدين المتصوف السيد: (عمر مكرم).

فماذا كان جزاؤه؟

بعبارة شيخ مؤرخى العصر الحديث، عالم الدين: الجبرتى: «أخذ محمد على يدبر تفريق جميع الشيوخ، وخذلان السيد عمر.. وهو الذى قام بنصره.. وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه، ويرى أنه إن شاء فعل نقيض ذلك» ثم كان جزاؤه النفي. ولولا أن محمد على كان

يحسب حسابا كبيرا لمكانة السيد عمر مكرم لكان عقابه القتل أو السجن؛ لذلك اكتفى بنفيه، وعزله من نقابة الأشراف. وكذلك كان جزاء أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية (عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على).

وما خبر مذبحة المماليك بالقلعة منكم ببعيد، والتى قتل منها بالقلعة، غدرا، أربعمائه وسبعون، لم ينج منهم إلا واحد. وعقب هذا الذعر نزلت جماعات من الجنود إلى المدينة، فاقتحموا بيوت المماليك، وأخذوا يفتكون بكل من يلقونه فيها، وينهبون ماتصل إليه أيدهم. ولم يكتفوا بقتل من يلقونه من المماليك، بل تجاوزوا بيوتهم إلى البيوت المجاورة. ثم نبه محمد على على الجنود بقتل كل من يلقونه من بقايا المماليك.

هذه صورة من صور الحكم المدنى الذى ارتضاه كاتب السقوط، والذى يستمسك به، ويدعو إليه.

ويجب أن ننبه على أن هذه المأساة الانسانية- مهما قيل فى تسويغها- لم يقتصر أثرها على المماليك، وخصوم

محمد على السياسيين، بل امتد أثرها إلى نفوس الشعب عامة. حيث زرعت فى القلوب الرعب، واجتثت منها الأمن، وقضت على الشجاعة، وأثمرت الخوف والجبن. ولسان حال كل مصرى يقول: (انج سعد فقد هلك سعيد) فلم تكن، إذن، كارثة محدودة بحدودها، بل كانت كارثة قومية، قضت على الصفات النبيلة، التى هى من ضرورات قيام الأمم. ثم كانت كارثة سياسية، إذ قضت على بذرة الديمقراطية، والمراقبة الشعبية التى كانت تحتمى بالسيد عمر مكرم، والتى كان يرعاها بشخصيته الفذة. وغرست مكانها فسيلة الاستبداد السياسى، التى أرواها خلفاء محمد على. فلم يكن من الغريب أن يقول أعضاء (مجلس شورى النواب) للخديو إسماعيل: (نحن عبيد أفندينا). ولا أن ينفى، فى عهد توفيق، الشيخ جمال الدين الأفغانى، موقظ الشرق، وأن يذاع، فى تسويغ نفيه، بلاغ رسمى ملؤه الكذب والبهت والجرح. كما كان النفى والمحاكمة جزاء كل صوت معارض، وتعطيل صحف المعارضة. واستعظم توفيق مطالب

الشعب التى تقدم بها عرابى. ولننظر فى كلماته، ولنوازنها بما أورد كاتب السقوط مما نسبه إلى الخليفة المنصور: قال الخديوى: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وماأنتم إلا عبيد إحساناتنا (مذكرات عرابى صـ ٢٣٦. انظر الثورة العربية. عبد الرحمن الرافعى).

والليل موصول الظلام. فهذا كبير فقهاء القانون: عبد الرازق السنهورى. يقود طائفة من الرعاع إلى مقره بدار القانون والعدالة، وميزان التعادل بين الشعب والحكومة أحد رجالات الحكم المدنى للاعتداء عليه؛ لما أبدى من رأى. وأخرج من منصبه، **واجتمع فقهاء القانون المدنى وأصدروا فتوى بشرعية عزل شيخهم.**

وهذه مانسيتها منذ علمتها: (الميثاق المقدس)، والذى كان (الإيمان) به شرطا مكتوبا لصحة عضوية الهيئة السياسة الوحيدة. والذى قال عنه أحد (الكبار): نصوصه مقدسة! وقال عنه آخر (على الهواء): لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقال عنه ثالث فى

حفل جامع بنادى المعلمين بالإسكندرية، فى قصيدة (عصماء):

لو جوّز التنزيل بعد محمد

لاستبدل الميثاق بالقرآن!

وأعوذ بالله من النار.

وإن ننس لاننسى (الرأى الحر المعبر عنه بخمس التسعات ٩٩٫٩٩٩).

وسجون القلعة، والسجن الحربى، وكتاب مصطفى أمين عن سنوات السجن الذى ذاقه. وعهود طويلة طويلة (تشهد) بما زعم كاتب السقوط من «أن الحكم المدنى، المفصول عن الدين نختلف فيه فى الرأى، ولا يتعدى ذلك حد الحوار وأما الإرهاب فكان من الأيدى المتوضئة»!

ولولا فضل الله ورحمته لما طلعت شمس، ولا ذر شارق.

هذه شهادة التاريخ. وتلك شهادتك. فيالك من شاهد عدل، ومؤرخ خلدونى، وزعيم مستقبلىّ!!

لم أرد أن أتتبع التفاصيل، وأستكشف سجلات الأضاليل، ولم أشأ أن أتجاوز إلى أوربا، (مهد الحضارة الأم) : حضارة المدنية، ومنبت الدعاوى القومية، فأذكر (حروب السبعين). ولا قولة لويس الرابع عشر: (أنا الأمة) ولا سجن الباستيل، ولا موقف رجال ثورة فرنسا. عندما زحفت جيوش أوربا على فرنسا، حتى سقطت فى أيديهم (فرادن) مفتاح باريس فى ١٧٩٢/٩/٢١ فاستولى الرعب والجزع على رجال الثورة، فأرسلوا عصابات مسلحة طافت بالسجون، وأعدمت من فيها من الأشراف، ورجال الدين، وبقى هؤلاء الجلادون يزاولون عملهم الفظيع وكلما تعبوا قدمت لهم المرطبات. حتى إذا استعادوا قوتهم عادوا إلى عملهم الذى كان يسميه **الثوار تحرير فرنسا**. وكان نساء باريس الشريرات يشاهدن ذلك بالتهليل، ويحملن الطعام إلى أولئك الجزارين... وكانت الملكة لاتزال مع ولديها فى سجن (التأميل) فصدر قرار لجنة الأمن العام فى يوليو ١٧٩٣ بأن يفصل عنها ابنها، وحاولت الملكة

عبثا أن تستبقيه، ولكن يد القوة انتزعته منها غصبا وعهدت به إلى رجل اسكاف يدعى (نسيمون).. ومكث الولد طريحا فى حجرته ستة أشهر لم يخلع فيها قميصه.. ونقلت الملكة إلى سجن آخر، ولم يسمح لها بغير ثوبين باليين.. ثم سيقت إلى الإعدام، وقد شد وثاقها، وجزّ شعرها.. وقد ظلت جثتها ملقاة فى العراء أسبوعين لاتجد من يعنى باحتفار حفرة توارى فيها[1].

ولا أذكر مآسى الحربين العالميتين، والثالثة المتوقعة، التى تهدد العالم كله بالفناء الماحق ولا الملايين التى حصدتها البلشفية، **ولا حرب الأسماء**، التى تقوم بها (بلغاريا) اليوم لتجبر المسلمين فيها على تغيير أسمائهم الإسلامية.

يالها من حرية، فى ظل حكومة مدنية...

لاأريد أن أستفيض، حتى لايطول حديث ليل السرى بالعجائب!

---

١ ــ محمد الحسينى رخا: الثورة الفرنسية وعهد نابليون ط ١٩٣٨ - مقرر معاهد الأزهر صـ ٣٩ - ٤٦

لكن أذكر كاتب السقوط بإشارة، لعلها أبلغ من العبارة، تذكره فى سؤال (ظاهره سذاجة وباطنة حجة): ماهى «ثورة التصحيح»؟ وضد من؟ ولماذا؟

وماهى (انتفاضة الحرامية)؟
ومن هى (مارى انطوانيت مصر)؟
سؤال برىء، براءة الأطفال فى عينيه!!

ومن الذى قال: أنا كبير العائلة؟ وأنا توليت منصبى بإرادة الله؟ ومامقدار الشبه والمفارقة بينها وبين مازعم عن المنصور (أنا الإسلام والإسلام أنا) صـ ٢٨ !! أحقا قال المنصور ذلك؟ أم هى قولة لويس الرابع عشر محرفة، كتحريف النقل عن كتاب د. زكريا البرى؟

أكان الحكم حكما دينيا استلزم هذا؟

وسؤال آخر، وليس بالأخير: ماذا حققت الحكومة المدنية، فى ظل الحكم المدنى والقومية المحلية، التى نذر الكاتب حياته لها؟ الحكومة المحلية فى أى بلد عربى؟

لندع الجواب للدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم

الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، ورئيس الشئون العربية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

والمنظمة العربية استشهد بها الكاتب على كيفية تطبيق الشريعة بالسودان.

قال فى أهرام الأربعاء ١٢/٦/١٩٨٥م:

هناك خمسة أنواع من التحديات عجزت عنها مؤسسة الدولة القطرية (القومية المحلية) عن التصدى لها بنجاح، وهى:

١ ـــ العجز عن حماية الاستقلال الوطنى.
٢ ـــ العجز عن التنمية الاقتصادية المستقلة.
٣ ـــ العجز عن إقرار العدالة الاجتماعية.
٤ ـــ العجز عن التجديد الحضارى والثقافى.
٥ ـــ العجز عن توسيع دائرة المشاركة السياسية الشعبية.

ويرتبط بالعجز فى مجال التنمية الحقيقية عجز مماثل فى مجال إقرار العدالة الاجتماعية ونعنى بالعدالة هنا ثلاثة

أشياء محددة، هى: تكافؤ الفرص، والاتساق بين معايير الأداء فى العمل، ومعايير المشاركة فى الثروة الوطنية، وإشباع الحاجات الأساسية لأغلبية المواطنين... وكانت النتيجة هى: «التشوه، والتفتيت فى البناء الحضارى والثقافى للأمة... المفارقة المأساوية.. أنه كلما اشتد عجز المؤسسة القطرية عن الوفاء بوظائفها الأساسية.. تعاظم استئسادها على مواطنيها... يفوق أى قهر تعرض له المواطنون فى أحلك عهود الاستعمار.. والحريات الأساسية تكاد تكون معدومة تماما... فالدولة القطرية... عجزت عن القيام بوظائفها... فلا هى حافظت على الاستقلال الوطنى، ولا هى أنجزت تنمية اقتصادية حقيقية، ولا هى أقرت عدالة اجتماعية، ولا هى حافظت على أصالة حضارية، ولا هى سمحت بمشاركة سياسية. ومع اخفاقها فى هذا كله.. تحولت الدولة القطرية إلى مؤسسة قمعية..» اهـ

والذى نفسى بيده ليس هذا كلامى، بل هو كلام أمين المنظمة التى اعتز الكاتب بتقريرها.

ومن أجل هذا كله نريد حكم الإسلام. فمن ذا الذى يأبى علينا أن نبتغى الخير لأمتنا، برجوعها إلى الدواء. الدواء الذى صحت به قرونا «لقد كنا ولسنا شيئا مذكورا حتى أعزنا الله بالإسلام فإذا ذهبنا نلتمس العز فى غيره ذللنا» عمر بن الخطاب.

لقد فارقنا الحكم الإسلامى إلى الحكم المدنى، منذ عهد محمد على، فى مصر بزعم الكاتب، ومنذ الحرب العالمية الثانية، منذ أن قُضى على الخلافة سنة ١٩٢٤ فى العالم الإسلامى رسميا فارقناه بزعم الاصلاح والتقدم... بأسلوب الغرب، فماذا كان؟

وكنا نستطب إذا مرضنا

فصار الداء من قبل الطبيب!!

* * *

ليس إلهنا معزولا

يقول صاحب السقوط- منكرا أن يكون لله فى الأمم والدول ابتلاء-: إذا كانت هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧م. غضبا إلهيا فما القول فى نصر إسرائيل؟ هل هو رضا من الله فى المقابل؟. وإذا كان تدهور مستوى المعيشة فى بلادنا سخطا من الله لترك شرعه الصحيح فما القول فى ارتقاء مستوى المعيشة فى دول الغرب؟ص ٢٢، ص ٥٢

ثم يقول: دفعت هزيمة ١٩٦٧م العقل المصرى، بل العقل العربى كله إلى مراجعة مع النفس... وفرض حجم الهزيمة إعادة طرح الاختيارات التى كان المعتقد أنها حسمت فى نهاية القرن التاسع عشر. وعلى رأسها الاختيار بين نظام الحكم الإسلامى السلفى ونظام الحكم

الأوربي. وهو الاختيار الذى تمخض عن الأخذ بالأسلوب الثانى بصورة تدريجية.. بدءا باختيار المصريين، بقيادة عمر مكرم لحاكمهم ممثلا فى (محمد على) وانتهاء بالاتصال الوثيق بالحضارة الغربية فى عهد إسماعيل، وبعد الهزيمة برز اتجاهان: أولهما: يدعو إلي مواجهة إسرائيل بمزيد من التأقلم مع حضارة العصر.. وثانيهما: يرى أن الهزيمة كانت لتبنى المصريين للاختيار الغربى. وأن حجم الهزيمة لايمكن تبريره إلا بمقولة: إن الله تخلى عنا حين تخلينا عنه. وأنه من الضرورى أن يجتمع (المسلمون) فى أنحاء الأرض لمواجهة (أعداء الدين)، ولتحرير (بيت المقدس) أولى القبلتين... ورفعت شعارات (القومية الإسلامية) (حيث يكون المسلم يكون الوطن) (لا من أجل وطن خرجنا... نحن جند الله) (يادولة الإسلام عودى).

ثم يقول: لهذا السبب أهمية كبيرة.. لكون معالجته أحد بدائل الحلول الممكنة للخروج من أزمة تنامى التيارات السلفية.. للعلاقة العكسية بين القومية الإقليمية

وبين نمو التيارات السياسية الإسلامية.. ودعاوى الارتداد السلفية (ص٥٢، وص١٦٨ - ١٧٢).

قبل بيان سنة الله فى الأمم والدول نصحح الأخطاء التاريخية فى أقوال داعية السقوط:

لم تكن حكومة محمد على رفضا للحكم الإسلامى، واستحبابا للنظام الأوربى عليه. بل كان نظام هذه الحكومة والبعثات العلمية التى ابتعثها أخذا بسنة الإسلام الصحيحة. يدل لذلك: أن البعثة العلمية الأولى كان بها عدد من الطلاب (المشايخ). وأن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، الذى صار أنبه رجال البعثة ذكرا، وأرفعهم شأنا - أرسل ليكون (إماما) للبعثة، ومرشدا لها لتحافظ على قيمها الإسلامية. وأن الشيخ عمر مكرم لم يكن منفذا للنظام الغربى! بل كان منفذا للنظام الإسلامى فى اختيار الحاكم عن طريق الأمة، التى هى، فى الإسلام، مصدر السلطة السياسية.

ولم يكن اختيار (محمد على) حسما لقضية (اختيار بين نظامى حكم) بل ظلت الدعوة إلى وحدة المسلمين،

وعودهم إلى النظام الإسلامى الكامل فى الدين والدنيا قائمة منذ كان يدعو إليها الشيخ الزبيدى، والشيخ حسن العطار، والشيخ المؤرخ الجبرتى، ثم جمال الدين الأفغانى، ومن بعده، وبتوجيهه الشيخ محمد عبده، ثم تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ثم تحولت هذه الدعوة القولية والكتابية إلى واقع عملى على يدى الشيخ حسن البنا!

وكان الاختيار **الرسمى** للنظام الأوربى، والقضاء على الخلافة الإسلامية. فى مارس ١٩٢٤ ومع هذا الإلغاء الرسمى ظلت مطلبا عاما للأمة الإسلامية يقول (أحمد شفيق باشا) المؤرخ الذى كان يسجل أحداث تلك الفترة: لقد كان فى مصر إجماع على وجوب بقاء الخلافة، ويقول الدكتور (محمد حسين هيكل) الذى كان رئيس تحرير جريدة السياسة، فى كتابه (مذكرات فى السياسة المصرية): فى هذه الأثناء – أى عام ١٩٢٥م أخذ حديث الناس يكثر فى أمر كانوا من قبل ذلك

---

١ — لم يكن إذن التوجه إلى النظام الأوربى اختيارا مصريا حراً، بل كان اجباراً أوربياً ...

يتناولونه بالحديث أحيانا.. ذلك: أمر الخلافة الإسلامية. فقد أراد الحلفاء، وأرادت انجلترا بنوع خاص، بعد أن انتهت الحرب الكبرى، أن تقطى على السلطنة العثمانية التي قامت بأمر الخلافة الإسلامية قرونا عدة- قضاء مبرما. ثم قال: «وعند ذلك- أى بعد إلغاء أتاتورك الخلافة- قامت فى الهند، وفى غير الهند من البلاد الإسلامية هيئات تريد أن تجعل الخلافة فى دولة إسلامية قديرة على الدفاع عنها..».

ولم يكن اتجاه إسماعيل إلى أوربا اختيارا كاملا له، بل كان سياسة مفروضة عليه من الأجانب، وخاصة انجلترا لإحكام قبضتهم على مصر، وللتمهيد للاحتلال العسكرى الذى كانت تنافس عليه فرنسا مثل حملة نابليون. يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه: (الثورة العرابية) صـ٣١: تقلد محمد توفيق مسند الخديوية يوم الخميس ٢٦/٦/١٨٧٩ ومصر إذ ذاك تجتاز مرحلة من أدق المراحل.. فالشعب يئن من المظالم والضرائب الفادحة، التى عاناها فى عهد إسماعيل،

.ويتطلع إلى حكم جديد ينتهى فيه عهد الإسراف والمظالم، والخواطر ساخطة على التدخل الأجنبى فى شئون مصر، وماتعدد من مظاهره، وتلاحق من أشكاله ووسائله.. وقد بدأت ثورة الأفكار، والتطلع إلى الحرية، .. فى أواخر عهد إسماعيل، وتأصلت فى نفوس الطبقة المثقفة، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق... فالبلاد، إذن، كانت تتطلع إلى نظام جديد يضع حدا للإسراف والنفوذ الأجنبى.. اهـ.

لم يكن اذن التوجه إلى النظام الأوربى اختيار مصريا حرا بل كان إجبارا أوربيا.

ومن المناسب للمقام أن نذكر أبيات الشاعر، والسياسى، والقائد العسكرى المعاصر لهذه الفترة: محمود سامى البارودى فى تهنئته لتوفيق بتولى منصبه، قال:

وَصَفَتْ موارد مصر، حتى أصبحت
بعد الكـدورة، شرعة للورَّد

سَنَّ المشورة ، وهى أكرم خطة
يجرى عليها كل راع مرشد
هى عصمة الدين التى أوحى بها
رب العباد إلى النبى محمد
هيهات يحيا الملك دون مشورة
ويعزّ ركن المجد مالم يُعمَد
فحباك ربك بالجميل كرامة
لجزيل ما أوليت أمة أحمد .

هذه شهادة زعيم معاصر، وتلك شهادة شيخ مؤرخى العصر، وكلتاهما تدفع زعيم كاتب السقوط باستحباب المصريين النظام الأوربى، وطرح الفكرة الإسلامية، وكلتاهما شاهد عدل على أن كاتب السقوط يجازف فى إلقاء أحكام التاريخ، كما كان قبل كالصيرفى المزيف لايختار إلا الزيف، ولا يروج عنده إلا المغشوش!

ذلك قول كاتب السقوط فى التاريخ، وسنة الأمم.

أما الله فإنه يقول :

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض

فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ سورة آل عمران: ١٣٧ **﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وماكنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾** سورة القصص: ٥٨ــ٥٩. ويقول الله **﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾** سورة الرعد: ١١ **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾** سورة الأنفال: ٥٣.

قال الله تعالى، وما كذب الله. حاشا لله. وماكذبت عليه رسله، تقدس الله، وصدقت رسله. أثبت لهم أن نعمه منوطة، ابتداء ودواما، بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها. فإذا غيروا مابأنفسهم من تلك العقائد، ومما يترتب عليها من كريم الأخلاق ومحاسن الأعمال. غير الله مابهم من نعمه.

فالله، سبحانه، قد وضع للأمم سننا متّبعة، ثم قال:

﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ فمن تنكب عن تلك السنن من الأمم سقطت من عرش عزها؛ لأنهم غيّروا مابأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم، ولعدولهم عن سنة العدل والاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة فى الشهوة، والحمية على الحق، والقيام بنصرته، والتعاون على حمايته، فأخذهم الله بذنوبهم(١). ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا**﴾ الكهف : ٥٩ .

هكذا جعل الله بقاء الأمم ، ونماءها فى التحلى بالفضائل ، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها – سنة ثابتة لاتختلف بإختلاف الأمم .

عرف سنة الله هذه فى الأمم أولو بقية من عقل وحكمة، كما عرفها علماء الاجتماع، بعد تقرير القرآن لها بقرون .

---

١ – الإمام الشيخ محمد عبده فى العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى – وراجع تفسير المنار جـ٩ – ٢١، ج ١٠ صـ ٤١

عندما التقى الشيخ محمد عبده بالفيلسوف الانجليزى (هربرت سبنسر) بمدينة (بريتن) يوم ١٠ / ٨ / ١٩٠٣م قال للأستاذ الإمام: مُحى الحق من عقول أهل أوربا، واستحوذت عليها الأفكار المادية، فذهبت بالفضيلة. وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا، فأفسدت الأخلاق، وأضعفت الفضيلة، ثم سرت عدواها منهم إلى الانجليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك، وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض، وتنتهى إلى حرب طاحنة..

قال له الأستاذ الإمام: إنى آمل أن يحول دون ذلك همم الحكماء مثلكم، واجتهادهم فى تقرير مبادىء الحق والعدل ونصر الفضيلة.

قال الفيلسوف: وأما أنا فليس عندى مثل هذا الأمل؛ فإن هذا التيار المادى لابد أن يبلغ مده غاية حده. اهـ.

ومن يطلع على كتب الدكتور (غوستاف لوبون) فى علم الاجتماع يجد فيها شواهد كثيرة على هذه السنن الاجتماعية، التى سبق إليها القرآن. ومن كلامه فى تأثير

الأخلاق فى ترقى الأمم وتدليها، وقوتها وضعفها قوله فى كتابه (روح الاشتراكية) فى الفصل الثالث: «وأذكر هنا ماأشرت إليه كثيرا فى كتبى الأخيرة، وهو أن الأمم لاتنحط وتزول إذا تناقص ذكاء أبنائها، بل إذا سقطت أخلاقها. هذه سنة طبيعية جرت أحكامها على اليونان والرومان، وأخذت تجرى فى هذه الأيام أيضا، **ولا يزال كثير من الناس لايفقهون هذا القول ويجادلون فى صحته** ...» إهـ.

هذه أقوال الأعلام من العلماء والفلاسفة، أتممها برأى بعض السياسيين الأوربيين: ذكر السيد رشيد رضا فى رحلته الأوربية التى نشرت فى المجلد الثالث والعشرين من مجلة المنار جـ٨، قوله: إننى ذاكرت، فى معانى آراء (سبنسر) سياسيا أوربيا فى (جنيف) فرأيته يعتقد اعتقاد (سبنسر) بل أخبرنى أن كثيرا من عقلاء أوربا يعتقدون أن فساد الأخلاق بالترف الذى أهلك الأمم الكبرى كالرومان واليونان والفرس والعرب— قد أوشك أن يقضى على أوربا، وستهلك بالحرب التى تلى هذه

الحرب، وماهي ببعيد، ونصح لنا بألا نقلد أوربا في مدنيتها المادية، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله، وأن نجمع كلمتنا، ونجعل الزعامة فينا لأهل الرأى والفضيلة منا ...».

ماأجمل أن يراجع صاحب السقوط آراءه، وأن يزن أقواله بأقوال هؤلاء وآرائهم، إن كان حقا ينشد الخير، ويبتغي الصواب.

هذا هو معنى التخلي عن الله الذي قال عنه الدعاة، ويقولون. وهذا هو معنى الرجوع إليه. وهذا هو الذي غاب عن كاتب السقوط. ولم يغب عن دعاة الحق من كل ملة وأرض!

ليس التخلي عن الله إلا ترك ماأمر، ومخالفة ماشرع، وعدم الاعتبار بما أخبر من وقائعة في الأمم والجماعات، والغفلة عن أيام الله، وسنته في تحقيق عز الدنيا وسلطانها، والفوز بالآخرة.

وليس العودة إلى الله تهويمات متناوم في الذكر، ولا

خفقات وسنان فى التلاوة. إنها إيمان يعمر القلب، وعقيدة تشعل الهمم، وتشحذ العزم، وتنفى رقدة الكسل عن النفس الأبية، وتصغر لها كل مأرب، ولو كان بين أطراف الأسنة، وقصف المدافع... وتكلف بها الأيام ماليس يوهب، وتحبب لها فى سبيلها كل الذى تلقى. غايتها إحدى الحسنيين الموعودتين من الله وعدا حسنا. ومن أوفى بعهده من الله: النصر أو الشهادة.

عقيدة تدفع إلى عمل الخير، وخير العمل..

وعلى مقدار التخلى عن هذا المنهج الإلهى بشطريه المعنوى والمادى تكون سنة الله فى الخذلان.

وعلى مقدار التحلى بهذا المنهج بشطريه تكون سنة الله بالعون ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ سورة محمد: ٧.

وعلى مقدار فئتين تلتقيان من هذا المنهج بشقيه يكون الفلْج، ومقدار النصر.

هذه حقيقة قرآنية، وسنة الله الكونية الاجتماعية،

كتلك السنن الطبيعية التى استنها الله فى الكون. كل يجرى بمقدار، ويتحقق بأسباب.

وهى هى التى شهد بها التاريخ، وقررها القرآن سنة عملية فى غزوة أحد. لم يمنعهم وجودُ الرسول بين المسلمين، أصحابه من المهاجرين والأنصار، من الهزيمة، عندما خالفوا أمرا يتعلق بالنظام المادى للمعركة، فتخلى الله عنهم، وحقق سنته، وأصابهم الكفار **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾** سورة آل عمران: ١٥٢ **﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون* وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾** سورة الأنفال: ٤٥ – ٤٦.

ذاك بعض تفصيل، ذكره الله، لبيان سننه فى النصر والهزيمة. لما خالفه المسلمون فى أحد أصابهم الكفار.

فهل يقال، فى المقابل، إن الله كان مع الكفار؟!

إنها سنة الله التى لاتحابى ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ۚ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ سورة النور: ٥٥.

تلك سنة الله. وهذا وعده. ولكن ذلك يغيب عن ذهن الذين اتخذوا أيمانهم جُنه.

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم.

وإن يقولوا تسمع لقولهم.

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله لووا رءوسهم.

﴿**أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا**﴾.

ومن سنن الله ، التي يعلمها الدعاة أن الله ماأرسل من رسول يدعو الناس إلى الهدى الذى بعثه به ، والكتاب الذى أنزل عليه . ولا نبى يدعو قومه إلى هدى رسول سابق عليه وكتاب سبق إنزاله عليه – إلا إذا تمنى كتاب الله ، وقرأه على الناس ألقى الشيطان فى أمنيته ، بلسان المترفين ، المغرورين بمالهم ، ومكانهم ، ومكانتهم ، يحرفون كلام الله ورسوله عن مواضعه ، والتقوّل عليه بما لم يقل ، واتباع المتشابه منه ابتغاء الفتنة ، وتفريق جماعة المؤمنين .

وماتمنى رسول ، ولا نبى ، وأخصهم خاتمهم عليه السلام أمنيته بإسلام قومه ، وأمله فى هدايتهم إلا وضع الشيطان ، بأيدى حزبه ، فى طريق رغبة الرسول والنبى العقبات ، وألقى العثرات ، وأثار الشبهات ، وسخر من السنن والآيات . واستخدم فصاحة الكلمات ، وبلاغة العبارات (مغترا بالسلامات ، ومارفع له من علامات .. وهكذا سجعات فى سجعات) مع الاعتذار إلى صـ٨٤ من قبل السقوط .

ويُفتتن بهذا الزيغ فى التأويل والتقوّل، ويُصرف بهذه العقبات والعثرات. أصحاب القلوب المريضة، والعقول المفتونة بما عندها من العلم. ثم تغلب سنة الله، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، ويمحو ماألقى الشيطان. وتكون كلمة الله هى العليا ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايُلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم* ليجعل مايلقى الشيطان فتنه للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد* وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ ﴿**صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾ ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض**﴾ .

وعلى سنة الله فى دعوة الرسل والأنبياء يسير الدعاة، يؤمنون بسنة الله، ويؤمنون بأن العاقبة للمتقين، وأن

أصحاب الأيدى الآثمة يخزيهم الله فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ويعلى كلمته بتلك (الأيدى المتوضئة)- مع الاعتذار مرة أخرى إلى صـ١٠٧ !!

* * *

السياسـة

قصدت (بالدين) كل مايجب اعتقاده شرعا. سواء ماهو عام بين الأديان، وهو الإيمان بالله، واليوم الآخر، والوسائط بين ذلك من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل. وماهو من دين الاسلام خاصة من التوكيد على توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية. والإيمان بالقرآن، وبرسالة محمد خاتم النبيين.

وقصدت (بسياسة الدين) ماشرعه الله فى الإسلام، مما نزل به القرآن، أو شرعه الرسول وحيا؛ لضبط حركة العباد الاختيارية، وجعلها موافقة لما شرع.

فمبنى (سياسة الإسلام) وشريعته على التعريف بمواقع رضا الله وسخطه فى حركات العباد

الاختيارية (١).

ولا أقصد من لفظ (السياسة) فى هذا التقسيم المنهجى فى هذا البحث، المقابل لكلمة (الدين) و (سياسة الدين) معناه العام الذى هو: القيام المطلق بتدبير شئون الأمة العامة. والتى هى، بهذا الإطلاق، قد تتفق والإسلام، أولا تتفق. وإن كان هذا المعنى المطلق سيرد فى البحث.

إنما قصدت (السياسة) مقيدا بقيد (الإسلامية)

والسياسة الإسلامية هى: تدبير الشئون العامة للأمة، بقوانين ونظم تكفل تحقيق مصالحها ودفع الضرر عنها، فيما لمن يرد فيه نص جزئى مباشر، **من غير تقيد بكيفية معينة فى هذه القوانين والنظم، ولا باجتهاد معين.**

قال أبو الوفاء بن عقيل: السياسة ماكان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، **وإن لم يضعه الرسول، ولا نزل به وحى**. ومن قال: لاسياسة

---

١ ــ راجع مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص ١٧١، ١٧٤، ٣٢٨

إلا ماوافق الشرع. إن أراد به: لم يخالف مانطق به الشرع فصحيح. وإن أراد به: لاسياسة إلا مانطق به الشرع فغلط، وتغليط، للصحابه [1]

قال ابن القيم [2]: وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام. وهو مقام صنك، ومعترك صعب، فرّط فيه طائفة، فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لاتقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له.. ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع. ولعمر الله إنها لم تناف ماجاء به الرسول. وإن نافت مافهموه من شريعته باجتهادهم... فلما رأى ولاة الأمور ذلك، وأن الناس لايستقيم لهم أمر، إلا بأمر وراء مافهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا من أوضاع سياستهم شرا طويلا...

---

١ ــ الطرق الحكيمة لابن القيم، بتحقيق الشيخ محمود عرنوس ط أولى سنة ١٩٥٣ ص ٢٣ – ٢٤

٢ ــ المرجع السابق

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة، فسوغت من ذلك ماينافى حكم الله ورسوله. وكلتا الطائفتين أوتيت من تقصيرها فى معرفة مابعث الله به رسوله، وأنزل به كتابه؛ فإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض، **فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه، بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه...** بل قد بين الله بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط. فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهى من الدين، ليست مخالفة له؛ فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هى جزء منه... اهـ.

أرجو أن يكون فى كلام هذين الإمامين مقنع لطائفتين من الناس:

الأولى: من يرفضون كل جديد انطلاقا من قاعدة: كل مالم يرد فى الشرع مرفوض.

الثانية : من يتعلقون بهذا القول : ويحسبونه على الاسلام نفسه، فيقبلونه عقيدة، أو يتظاهرون بقبوله عقيدة؛ لأن رفضه كذلك يضعف موقفهم. ويرفضونه دولة، استنادا إلى ظلم قديم، أو غلو وتنطع حديث، فيقع الاسلام بين ظلمين : محب مفْرِط ومبغض مفَرط

ظلمته ألسنه تؤاخذه بكم
وظلمتوه مفرّطين كسالى!

من سياسة الإسلام ماهو مرتبط بنصوص **كلية مباشرة** : كالنص على الشورى، أمراً، ومدحا. والعدل، أمراً وغاية. وأداء الأمانة، أمراً وتعظيما. والدعوة إلى الله، أمراً، وتقريراً. وجدال المخالف. وجلاد الفاتن. واعتزال المسالم. وإعداد القوة. والحرب. والسلام. والمعاهدات... وكل مانصت عليه الشريعة من القواعد الكلية، التى يتخذ تنفيذها وتطبيقها الزمانى والمكانى صوراً متعددة، وكيفيات مختلفات ترك للعقل، والتجربة اختيار أحسنها فى زمانه، وأنسبها إلى أهله.

ومن السياسة مالم يرتبط بنص كلّىّ مباشر، مثل

تعبيد الطرق، وشق الترع، وإجراء الأنهار، وغرس الأشجار، وإقامة المرافق، وتدوين الدواوين، وتنظيم الهيئات. وكل مايتصل بالشئون العامة للدولة، وتتطلبه حياتها من نظم دستورية أو مالية، أو تشريعية، أو قضائية، أو تنفيذية. وما يتصل بشئونها الداخلية، وعلاقاتها الخارجية عامة، إجمالا وتفصيلا.

فتدبير هذه الشئون، والنظر فى أسسها، ووضع قواعدها، بما يتفق وأصول الشرع هو من السياسة الشرعية.

وهذا النوع يلزم ربطة بتحقيق مصالح المسلمين. سواء المنافع الدينية والدنيوية؛ ودفع المضار كذلك. لأن الإسلام راعى الدين والدنيا.

وتعرف المصلحة فى هذا النوع من السياسة بقياسها إلى أغراض الشريعة التى جاءت لتحقيق مصالح العباد.

ويكون هذا التعرف بالرجوع إلى نص عام مثل ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾

﴿ماجعل عليكم فى الدين من حرج﴾.

وما من أمر شاق إلا وجعل الشارع للمكلف منه مخرجا، فإذا توخّى المكلف الخروج من المشقة، على الوجه الذى شرع له كان ممتثلا لأمر الشارع، آخذا بالحزم فى أمره. وإن لم يفعل وقع فى محظورين: أحدهما: مخالفته لقصد الشرع. والثانى: سدّ أبواب التيسير عليه (١).

أو يكون بالرجوع إلى توجيه نص مثل تقديم دفع المفسدة الأكبر، على جلب المنفعة الأقل، أخذا من قوله **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾** مع الأمر بالاجتناب فى قوله **﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾**.

ومثل دفع الضرر العام بتحمل الضرر الخاص أخذا من تحريم الاحتكار.

---

١ ــ الموافقات للشاطبى جـ ١ ص ٣٤٦

درجـــات المصـــالح

ومصالح الناس التى قصد الشارع إلى تحقيقها، تختلف درجاتها، من جهة حاجة الناس إليها:

فمنها ماهو ضرورى، تفوت الحياة بفوته، أو تجرى مصالح الدنيا على غير استقامة، بل على فساد وتهارج. وفى الآخرة فوت النجاة والنعيم.

وهذه الضروريات هى: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، (=النسب=العرض).

ومن أجلها حرمت المحّرمات لخمس فى قوله ﴿**قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به**

سلطانا، وأن تقولوا على الله مالا تعملون﴾.

ومن أجلها شرع كثير من (سياسة الدين) كالدعوة إلى التوحيد، والقصاص، وتحريم الخمر وكل مسكر، وتحريم السرقة، والإسراف والتبذير، وأخذ المال بغير عوض صحيح، وأمر بالسعى على الرزق.. وحرم الزنا، وشرع النكاح. وأصول ذلك كله فى القرآن.

ومن المصالح ماهو حاجىّ، وهو مايحتاج إليه من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدى فى الغالب إلى الحرج والمشقة التى تمنع سعادة الناس بالحياة.

ومن أجل هذه المصالح:

شرعت الرخص فى العبادات، كالقصر والجمع. والتيمم. وإفطار المريض والمسافر، والصلاة من قعود لغير القادر.

وفى المعاملات: شرع القراض، والمساقاة، والإجارة، والرهن.

وفى العادات: أباح الصيد، والتمتع بالطيبات مما هو حلال مأكلا ومشربا وملبسا ومسكنا ومركبا.

وفى الجنايات: شرع القسامة، وضرب الدية على العاقلة، وتضمين الصناع إذا أفسدوا...

ومن هذا النوع - الحاجيات - ماشرع احتياط لأصل من الأصول الخمسة الضرورية: كأخذ الحذر من العدو، والنظرة المحرمة، والخلوة، والتحذير من إثارة الفتن، والشبهات. ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأداء الدَّين.

النوع الثالث من الحاجات: التحسينيات:

ومعناها: الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنِّسات، التى تأنفها العقول الراجحة. مثل: ستر العورة، وإزالة النجاسة، والنظافة فى البدن والثوب والمكان. ولبس الجديد فى الأعياد. وآداب التحية والحديث، وسائر الآداب السلوكية والاجتماعية، مما يجمعه: مكارم الأخلاق. فهذه الأمور راجعة إلى محاسن

زائدة على أصل المصالح الضرورية، والحاجية؛ إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضرورى ولا حاجىّ وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين (١).

ومصالح العباد لاتخرج عن هذه الثلاثة: الضروريات، والحاجات، والتحسينات. وهى موجودة فى القرآن على الجملة، وفى السنة مع التفصيل وزيادة البيان والشرح (٢).

ونجد أن مجال العقل والتجربة فيما ارتبط بمبدأ عام كالشورى، والعدل، وتولى الحكم بالعدل والحق، وأداء أماناته. وفيما لم يرتبط بهذا النص العام ولكنه ارتبط بتحقيق المصلحة - نجد أن مجال العقل والتجربة فيه أوسع مدى، **فى موضوعه** حتى يشمل الكون كله. **وفى منهجه**، بحيث يتحقق للفكر حريته، وللحس تجاربه. وليس لذلك من قيد إلا أن يكون محققا للمصلحة، وغير متعارض تعارضا حقيقيا مع نص قطعى. وليس فى

١ ـــ الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ٥ - ١٢

٢ ـــ المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٧

الشريعة مايتعارض مع صحيح العقل، وثابت التجارب.

وبذلك نجد أن حركة العقل ثابتة - إسلاميا - فيما هو دين، وماهو من سياسة الدين، وماهو سياسة إسلامية. على ماسبق بيانه فى كل منها.

وأنها - حركة العقل - كلما اقتربت من سياسة الدين، والسياسة الإسلامية اتسع مجالها الموضوعى والمنهجى، حتى لايحدّها قيد إلا قيد هو **عصمة** لها وقيد هو **توجيه** لها نحو غاية إنسانية. وبهذا وذاك سلمت مما أصاب سائر الحضارات الأخرى، مما سلف به البيان المستفيض.

ومن البدهى أنه كلما اتسع مجال العقل فى المنهج والموضوع كانت احتمالات الاختلافات، وتعدد الاجتهادات أقوى من حيث النظر، وأكثر من حيث الواقع.

وبذلك تتفاعل الأفكار، وتتلاقح العقول. وتسير بذلك التفاعل، وهذا التلاقح حركة الحياة فى تطور يخدم

الإنسان، ويخدم الدين على سواء ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون﴾ ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وهذا غرض مقصود للإسلام.

فماذا فى هذا من عيب؟!

إن الذين يعيبون تاريخ الإسلام بعيدون عن معرفة هذه الأصول والأسس الإسلامية.

والذين يرفضون الإسلام دولة، لأخطاء فى مواقع مجالات التجربة والعقل والمنهج – إنما يلزمهم – أرادوا أم لم يريدوا – الحجر على الفكر، وقتل التجارب، والجمود، من حيث يدعون الاعتداد بالعقل والتجارب والتحرر، ويرمون علماء الإسلام (بحركة الارتداد السلفية) وسحب مصر للخلف بتزيين حياة السلف. (صـ ٨٤)، ثم مطالبتهم بصب العقول والأفكار فى قالب واحد لتخرج منهجا (مجمعا عليه منهم. صـ ٧٦).

وأشد من هذا ضلالة عن الحق زعم أنه لايمكن الانتهاء إلى رأى واحد فى جميع القرآن، بزعم أن فهمه يتوقف على (رجال الدين) وهم لم يتفقوا، وما يتفقون على رأى واحد فيه.

عجب لتلك قضيةً، وإقامتى
فيكم على تلك القضية أعجب

لايفهم القرآن إلا بالرجال
والرجال لايتفقون على رأى واحد
إذن .. لايفهم القرآن على رأى واحد

لا يفهم القرآن إلا بالرجال
والرجال لا يفسرونه إلا بالهوى
إذن .. لا يفهم تفسير القرآن إلا بالهوى

لايفهم القرآن إلا من خلال رجال الدين
ورجال الدين لايفسرونه إلا بالهوى
والهوى يمالىء الأستبداد
إذن .. القرآن يمالىء الاستبداد

لايفهم القرآن إلا من خلال رجال الدين
ورجال الدين لايفسرونه إلا بالهوى
والهوى يجب تركه
إذن .. القرآن يجب تركه

أرأيتم إلى هذه القضايا (القزحية. العلوية. الفُودِية. السقوطية)[1].

أرأيتم إلى هذه القضايا ولوازمها، التى اهتدى إليها صاحب السقوط، حيث ضل عنها المسلمون أربعة عشر قرنا من الزمان!

أمّا الله، منزل القرآن، فإنه يقول:

﴿أفلا يتدبرون القرآن. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ سورة النساء: ٨٢ **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** سورة محمد: ٢٤.

---

١ ـــ مع الاعتذار إلى صـ ١٠٨ (مصر مسلمة قبطية عربية فرعونية إفريقية بحر متوسطية).

هكذا يريد الله، ولكن صاحب السقوط يكتفى به تلاوة (ويسعد بأن يتعلم أولاده أصول الدين، وأن يحفظوا كتاب الله، وأن نستمع جميعا إلى آيات الله تتلى.. صـ٢٣).

ورحم الله الحسن البصرى: (أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم تلاوته عملا)!

قال ابن الجوزى: يعنى أنهم اقتصروا على التلاوة، وتركوا العمل به،،[1].

وقال الدكتور يوسف إدريس: الإسلام دين كفاح، ونضال وثورة. جاء ثورة على العالم القديم كله. وروحه محشودة بالآيات التى تحض على قتال الأعداء، وكأنها أوامر عسكرية يومية كان يصدرها المولى سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين؛ كى يحاربوا أعداءهم المفسدين الذين كانوا يمثلون قمة الجشع، والإجرام، والوثنية، والجاهلية ﴿**وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة**﴾ أليس هذا أمرا

---

١ ــ تلبيس إبليس صـ ١١٢

عسكريا واضحا. كل مافى الأمر أننا حين حولناه إلى أنغام يقرؤها مقرئون، ويتمايلون على وقعها- فقد مضمونة الحق، واستحال إلى شكل قرآنى غنائى، لايمكن أن يتبين معه المؤمن المقصود بمعناه، ومحتواه..،، (أهرام الأثنين ١/٧/١٩٨٥م).

مرة أخرى :

ألا يا قوم للعجب العجيب
وللغفـــلات تعـــرض للأريب

يعاضد الدكتور الأديب الأريب صاحب السقوط فى ترك دولة القرآن!

ويعارض قيام دولة الإسلام؛ (لأن إسلامها لن يكون إسلام الأستاذ خالد محمد خالد، ولا إسلام محمد عبده، ولا جمال الدين الأفغانى. بل إسلام الميكروفونات) أهرام ٢٤ / ٦ / ١٩٨٥ م.

لماذا (إسلام الميكروفونات) بهذا الجزم؟

ولماذا لانعمل جميعا متعاونين على تحقيق الإسلام

الصحيح؟

ولماذا لانبحث عن دافع الغلو، ونقف عند رد الفعل؟

ثم هل يتحقق الإسلام على ماوصف الدكتور يوسف دون دولة؟

الإسلام دين كفاح .. آياته كأنها أوامر عسكرية .. د . يوسف

لا ، للسيف صاحب السقوط

بأيهما نأخذ؟ ولماذا اختلفا فى بيان المراد من القرآن، وكلاهما ليس (رجل دين)؟ حضارة الاسلام أشرقت على أوربا .. د . يوسف

ماأصاب ابن حنبل درس لمن يتشدقون بازدهار الفكر الإسلامى فى عهد الخلافة العباسية .. د . فودة !

ثم هما معا يعارضان دولة الإسلام، ويسألان معا سؤال إنكار: لماذا الآن ؟

كيف اختلفا فى المقدمات، ثم اتفقا فى النتيجة؟!

الله أعلم !

الثوابت والمتغيرات

﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب، منه أيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون أمنا به* كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ آل عمران: ٧.

هناك مايُرجع به إلى مقاصد الشريعة: الضروريات، والحاجات، والتحسينات.

وهناك مايرجع إلى نص عام، قد تختلف جزئياته، أو تطبيقاته.

وهناك المتشابه، الذى تحتمل دلالته وجوها من حيث اللفظُ والتركيب، لامن حيث المراد.

وهناك المحكم الذى لا اشتباه فى دلالته، بل هو واضح الدلالة، لا التباس فيه على أحد. فمن ردّ ماشتبته إلى الواضح، وحكّم المحكم على المتشابه فقد اهتدى. ومن عكس انعكس. ولهذا قال: ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه...**﴾.

إذن ليس كل مافى القرآن تختلف فيه الأفهام. بل منه الثوابت التى يفهمها كل أحد مادام يعرف لغة القرآن.

ولهذا أيضا دعا الله الناس جميعا إلى تدبر القرآن.

فالشريعة كلها ترجع إلى قول واحد فى فروعها، كما أنها فى أصولها كذلك. ولا يصلح فيها غير ذلك. والدليل عليه أمور:

أحدهما: أدلة القرآن: منها قوله تعالى: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ فنفى أن يقع فيه الاختلاف البتة. ولو كان فيه مايقتضى قولين مختلفين لم يصدق عليه هذا الكلام على حال.

وفى القرآن: ﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ وهذه الآية صريحة فى رفع التنازع والاختلاف؛ فإنه رد المتنازعين إلى الشريعة، وليس ذلك إلا ليرتفع الاختلاف. ولا يرتفع الاختلاف إلا بالرجوع إلى شىء واحد؛ إذا لو كان فيه مايقتضى الاختلاف لم يكن فى الرجوع إليه رفع تنازع. وهذا باطل.

وقال تعالى ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات﴾ والبينات هى الشريعة، فلولا أنها لاتقتضى الاختلاف ولا تقبله لما قيل لهم: من بعد ماجاءهم البينات.

والثانى: لو كان فى القرآن تعارض لكان يصح العمل بكل من المتعارضين، وهذا باطل بالاجماع.

والثالث: لو كان فى الشريعة مساغ للخلاف لأدى إلى تكليف مالا يطاق، لأن أحدهما يقتضى: (افعل) واقتضى الثانى (لاتفعل) لمكلف واحد، من وجه

واحدة، وهو عين التكليف بما لايطاق. وهو باطل (١).

إذن القول بترك القرآن، وحكمه، وحكومته بزعم اختلاف العلماء فى تفسيره، مع القول بأن المصحف فى القلب - تصديق ظاهر، وتكذيب خفى.

وقديما قالت طائفة بترك النظر فى القرآن، والاكتفاء بتقليد العلماء.

وحديثا يقال بترك القرآن، وأقوال العلماء معا، حتى يتفقوا.

والحديث مثل القديم. دعوة إلى هجر القرآن وهو سر الإسلام، وروح نهضة المسلمين. وما جهد أعداء الإسلام، قديما وحديثا، فى شيء قدر جهدهم لِفصل القرآن عن المسلمين، وفصل الإسلام عن الحكم.

غير أن الأعداء القدامى، كانوا أصرح قولا فى هجومهم على القرآن؛ إذ منهم من وجه إليه التهم مباشرة

---

١ ـــ الموافقات للشاطبى جـ ٤ ص ١١٨ - ١٢١

بقولٍ عامّ، كقولهم: إنه سحر، إنه أساطير..

أو بقول مفصّل لمحاولاتهم الطعن فى بعض أحكامه، ومحاولة إظهار التعارض...

وأما أعداء اليوم فإنهم يعلنون الإسلام شهادة، وأن المصحف فى القلب، وأن الإسلام بخير، وأن الدين ضمير المجتمع... ثم يسلبونه قوة السلطان، ويزعمون أن ذلك له أحفظ، وللدولة أصلح. كأننا فى (يوطوبيا) حلم جميل يحفظ فيها لكل ذى حق حقه، ولكل ذى مكانة مكانته، ويسود فيها المبدأ قبل المصلحة، والحق قبل القوة. ويستطيع المصحف فيها أن يقوم برسالته من غير سيف، ويسبح المسلمون فى أرضها من غير خوف. ويزورون (قدسها) من غير تهويد، ويصطافون فى لبنانها من غير تمزيق...

على تلك الأسس الإسلامية فى الّدين، وسياسته، وسياسة الاسلام وعلى مقدار صلة العقل والتجربة يجب أن تناقش الدعوة إلى تطبيق الشريعة، لاعلى أساس تتبع

الهنات ؛ لأن هذا المنهج هروب من مواجهة حقائق الإسلام ، وتعلق بأباطيل خصومه . وهو أمر يستلزم هدم جميع القيم الإنسانية ، فما من قيمة من قيم الإنسان ، فى أى مجتمع على وجه الأرض ، كالحرية ، والديمقراطية .. إلا وقد ارتكبت باسمها آثام تقشعرّ منها الجلود . وإن منطق صاحب السقوط يستلزم هدم تلك القيم لهذه الآثام .

فهل يقول بذلك ذو لب ، وذو إنصاف ؟

وعلى هذه الأسس يجب أن ينظر إلى مسائل : الشورى ، ونظام الحكم الإسلامى ، واختلاف الصحابة .

* * *

الشـــــورى

المبـــدأ :

لايمترى أحد – ولو كان من المنقّبين عن المعايب – فى إرساء الإسلام الشورى، وتقريرها مبدأ من مبادئه، وجعلها صفة لازمة من صفات المؤمنين به، وقاعدة من قواعد سياسته، وعزائم أحكامه.

شهد بذلك القرآن :

فمن مشهوره أن الله – سبحانه – قد أمر بها نبيه فى سياق أوامر وصفات، تضع منهاجا للحاكم لتجتمع حوله القلوب، وتنجح قيادته، ويكون تجمعها ونجاحها ببواعث ذاتية، لابتسلط خارجى.

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله * إن الله يحب المتوكلين﴾ سورة آل عمران: ١٥٩

ومن مشهوره: بيان القرآن؛ بالوصف الخبرى – أن الشورى من صفات المؤمنين، المنظومة فى سلك واحد مع الايمان والإسلام ولوازمهما الاعتقادية والعملية **﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾** سورة الشورى: ٣٦ – ٣٩.

ومن هذه أخذ اسم السورة، فسماها الله: سورة الشورى. وفيه من الدلالة مالا يخفى.

كل هذا من مشهور القرآن، ولكن من لطائف توجيهاته، ووسائل تثبيته مبدأ الشورى، إخباره أن الله

عرض مسألة استخلاف ادم على الملائكة، وإخباره بما أبدوه من رأى فى ذلك الاستخلاف ﴿**وإذ قال ربك للملائكة، إنى جاعل فى الأرض خليفة * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون**﴾ سورة البقرة: ٣٠.

قال الزمخشرى: أخبر الله الملائكة بذلك؛ ليعلّم عباده المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم. وإن كان هو بعلمه وحكمته غنيا عن المشاورة.

قال الرازى: الوجه الثانى: أنه تعالى علم عباده المشاورة.

وفى هذا غاية البيان التعليميّ الموجِّه إلى التخلق بهذا الخلق الإلهى لكل من آمن بالقرآن ومنزله، وبكل عارف بربه وبنفسه.

ومن هذه اللطائف القرآنية فى تقرير مبدأ الشورى: سلبه عن الرسول صفة التسلط على قومه، أو التصرف

فى شئونهم فقال له (ليس لك من الأمر شىء) (لست عليهم بمسيطر).

وشهدت السنة القولية والعملية :

قال أبو هريرة: «مارأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من النبى ﷺ(١). وقال ﷺ: المستشير معان والمستشار مؤتمن»(٢).

وشاور النبى أصحابه قبل حرب بدر، وقال لهم: أشيروا علىّ أيها الناس..

وشاور الصاحبين فى أسراها. وقال لهما: لو أنكما تتفقان على أمر واحد ماعصيتكما فى مشورة أبدا.

وشاور أصحابه فى التحصن بالمدينة فى غزوة أحد.

وفى حنين، لما جاءت هوازن مسلمة ورغبوا فى ردّ سباياهم، ردّ من لهم مايخصه، أما مايخص المسلمين فلم

---

١ ـــ سنن أبى داود والترمذى - فتح البارى جـ١٣ ص ٢٨٦

٢ ـــ محمد بن المنكدر عن عائشة: أدب الدنيا والدين للماوردى ص ٢٧٨

يعط نفسه الحق فى ردّه حتى أذنواهم فيه. ومن تردّد من الناس أغراه الرسول بأنه يعوضه ضعفه مستقبلا حتى رضاهم!

وبلغ من اعتزازه بالشورى أنه شاور فى أموره الخاصة، فقد استشار عليا وأسامه فى حديث الإفك(١).

بل الأعجب من ذلك مشاورته فى **كيفية** تنفيذ بعض أحكام الوحى: فعن علىّ: لما نزل قوله تعالى ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم**﴾ المجادلة: ١٢ قال لى النبى ﷺ: ماترى؟ دينار؟ قلت: لايطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت: لايطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة. قال إنك لزهيد. فنزلت: (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا

---

١ ــ الفتح جـ ١٣ ص ٢٨٧

الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون) قال: فبى خفف الله عن هذه الأمة(١).

وشهدت سيرة الصحابة، وأقوالهم. ومواقفهم العملية فى المشاورة مشهورة: كالمشاورة فى حروب الردة، وقتال مانعى الزكاة، وحروب العراق والشام. وتولية القادة. وجمع المصحف..

ومن أولاها، وأدلها على تقرير المبدأ قصة التحكيم، حيث نزل الإمام علىّ، على رأى جيشه فى قبول التحكيم، مع يقينه بأنها خدعة. وقال لهم مبينا: إنها

---

١ ـــ رواه الترمذى وصححه ابن حبان – الفتح جـ ١٣ ص ٢٨٦

وفيه دليل على أن الله سبحانه ماأمر بشىء ثم أبطله رأسا، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله، كما أبقى شريعة الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة التى كان مأموراً بها فى آية المجادلة ﴿...إذا ناجيتم الرسول...﴾ وكما أبقى خمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال: (لايبدل القول لدى) هى خمس فى الفعل وخمسون فى الأجر. (ابن القيم: الجواب الكافى صـ ٢٢٠) وقال الشافعى فى الرسالة ص ١٧ : وليس ينسخ فرض أبدا إلا أثبت مكانه فرض، كما نسخت قبله بيت المقدس، فأثبت مكانها الكعبة

كلمة حق أريد بها باطل...

أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه.. فلم يوافقوه. وصار الأمر إلى التحكيم فاختار عبدالله بن عباس، فلم يرضوه، ثم اختار الأشتر النخعي، فلم يرضوه. فوافقهم على أبى موسى الأشعرى.. ثم كان ماكان. فقال لهم معاتبا: إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة، وتعقب الندامة. وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى، ونخلت لكم مخرون رأيي.. فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجناة، والمنابزين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضن الزند بقدحه(١).

هذا، ولم يعتبروا قوله، واختياره، حكما إلهيا!

وأما أقوال الصحابة فإنها كاشفة عن تقديرهم لها، موضحة آثارها. قال عمر بن الخطاب: الرجال ثلاثة:

---

١ ـــ نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده. تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ١ ص ٨١

رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه. ورجل يشاور فيما أشكل عليه، وينزل حيث يأمره أهل الرأى. ورجل حائر برأيه، لايأتمر رشدا، ولا يطيع مرشدا.

وقال الامام علىّ: نعم الموازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد. وشهدت أقوال حكام المسلمين، ومجربيهم. وسجلها أدب لغتهم: قال عمر بن عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم.

وقال بشار بن برد، وهو أحد أعلام البصرة الستة فى علم الكلام[1]، وأحد أعلام الشعر العربى، الذين شهد لهم الأصمعى:

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن
برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الخوافى قوة للقوادم

١ ــ هم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبى العوجاء، جرير بن حازم

قال الأصمعى: قلت لبشار: ياأبا معاذ، إن الناس تعجبوا من أبياتك فى المشورة؛ فقال ياأبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه فقلت له: أنت- والله- فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك[1].

والأدب مرآة الأمة، ومقياس فكرها، والكاشف عن مدى رقى وجدانها، وعن وجوه حياتها، واتجاهاتها.

ولا يزكو مثل هذا الذى شهد له إمام أهل الأدب فى حياة يسودها سواد الظلم، وتتغشاها غاشية من سطوة الاستبداد.

والنقد وجه من وجوه الرأى. مثله مثل المشورة، وهو أيضا وجه من وجوه الأدب، له دلالاته على مادل عليه.

وله فى حياة المسلمين أمثلة تسفر عن وجه حياتهم وعن طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم:

---

١ ــ الأغانى جـ ٣ ترجمة بشار

نقد الحباب بن المنذر رأى الرسول ﷺ ، فى موقع معسكر الجيش يوم بدر .

ونقد عمر صلح الحديبية ، ورأى فيه الدنية ، يعطاها المسلمون - برضا الرسول - فى دينهم عن طواعية . وأعلن رأيه فى ذلك غير مخادع ولا مداهن .

ونقد (السعدان) رأى الرسول فى مصالحة غَطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ ليفكوا حصارهم للمدينة يوم الأحزاب . وقالا للرسول : لقد كنا نحن وهم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنابك نعطيهم أموالنا ! والله لن نعطيهم إلا السيف . فصوّب الرسول عليه السلام رأيهما ، ونزل عليه !

لما قتل الرسول النضر بن الحارث يوم بدر ، قالت أخته فى رثائه ، تخاطب الرسول :

أمحمد ، ولأنت نسل نجيبة
فى قومها ، والفحل فحل معرق

ماكان ضرّك لو مننت، وربما
مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقربُ من أخذت بزلة
وأحقهم إن كان عتق يعتق

فيقال: إن شعرها أكرم شعر موتورة وأعفه وأكفه وأحلمه.

قال صاحب الأغانى: فبلغنا أن النبى ﷺ قال: لو سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته[1].

القول هنا فى تقبل النبى هذا النقد العفيف، وفى تقريره مبدأ العفو بعد الاعتذار، حتى عمن اشتدّ أذاه، وطال باعه فى العدوان. وهى أريحية إسلامية عربية، وجهلها من جهلها، فسخر منها، كما يسخر كل جاهل بحقائق الوجود، ومكارم الأخلاق، حتى يقول قائلهم: (واضرب معى كفا بكف وأنت ترى مسلما يقوده إلى حتفه بيت شعر، وتنجيه من الموت طرفة أو دعابة

---

١ ـ جـ ١ ص ١٩

أو سرعة بديهة ـــ ٦٩) .

ولما همّ أبو سفيان بن حرب بإثارة بنى هاشم على ولاية أبى بكر، وقال: أين الأذلّان: علىّ والعباس، وتمثل:

ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان: عَيْر الحى والوتِد
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشجّ فلا يبكى له أحد.

قال له علىّ: ياأبا سفيان، ماأردت إلا الفتنة، وطالما عاديت الإسلام وأهله، فلم تضره بذلك شيئا. ومانال أبا سفيان من أبى بكر الخليفة أذى. ولو أراد لفعل، ولكنّ نضج الايمان فى قلوب المسلمين عامة، والخلفاء خاصة، والصديق على وجه أخص— كان يقيم فى نفوسهم حدا فاصلا بين الحق فى ذاته والخلق العظيم، وبين المنافع والمصالح الشخصية، التى يسعى إليها كثير من الناس باسم الحق.

وكاتب السقوط يعلم علم اليقين ماذا كان مصير كثير من الناس، فى ظل حكومات يعتز هو بنظامها، كانت جرائرهم (هزّ الرأس) لحديث لم ترض عنه هذه الحكومات. وآخرين لم يُقبل منهم (الصمت) وترْك (التصفيق) وشق الحناجر (بالهتاف)... فاستخرجت ضمائرهم، واستدرجت سرائرهم، ثم صب عليهم سوط العذاب؛ للضمائر المكنونة، والأسرار الدفينة!!

فليزن المنصف ذلك بقول معاوية: لانحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

عبارة، من أحد جانبيها، معبرة عن إقرار مبدأ النقد، وإبداء الرأى، ولو كان نقد إمام المسلمين من غير (رقابة) تأخذ بالكلمة، وتحاسب على (المصمصة).

عبارة جاء تقريرها العملى عندما كان الأحنف بن قيس عند معاوية، وقام بعض (المنتفعين) يحمد لمعاوية استخلاف يزيد؛ فالتفت معاوية إلى الأحنف وقال له: ماتقول ياأبا بحر؟ فقال له: أخاف الله إن كذبت،

وأخافكم إن صدقت. فقال معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيرا.

هذا معاوية الذى قال عنه لعمر عبدُ الرحمن بن عوف: ياأمير المؤمنين، ماأحسن ماصدر الفتى عما أوردته فيه. فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشّمْناه ماحشمناه! وقال – وقد ذمه رجل فى مجلسه –: دعونا من ذم فتى من قريش، من يضحك عند الغضب، ولا يُنال ماعنده إلا على رضا، ولا يؤخذ مافوق رأسه إلا من تحت قدميه(١).

لذلك لم يكن عجبا أن يستقر ملك معاوية على أحسن ماتكون قرارة الملك فى تاريخ الإسلام، ولا كان الناس فى زمان ملك من الملوك خيرا منهم فى زمان معاوية، حتى تجرى المفاضلة بين عهده وعهد عمر بن عبد العزيز؛ فعن أبى بكر الأثرم أن ناسا اجتمعوا عند الأعمش؛ فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله؛ فقال

١ – إبراهيم الابيارى: معاوية ص ١١٩

الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية! قالوا: فى حلمه؟ قال: لا والله، بل فى عدله.

وعن البغوى عن أبى قيس: كان معاوية قد جعل فى كل قبيل رجلا. وكان رجل منا يكنى أبا يحيى، يصبح كل يوم فيدور على المجالس: هل ولد فيكم الليلة ولد؟ هل حدث الليلة حادث؟ هل نزل اليوم بكم نازل؟. قال: فيقولون نعم، نزل رجل من أهل اليمن بعياله، يسمونه وعياله. فإذا فرغ من القبيل كله، أتى الديوان فأوقع أسماءهم فى الديوان.!

وعن عطية بن قيس، قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطبنا يقول: إن فى بيت مالكم فضلا بعد أعطياتكم، وإنى قاسمه بينكم؛ فإن كان يأتينا فضل عاما قابلا قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة علىّ؛ فإنه ليس بمالى، وإنما هو مال الله الذى أفاء عليكم

أحسب أن صاحب السقوط سوف يجرى رضراضاً نحو كلمة: (مال الله) ليقول: انظروا هذا هو الحكم

---

١ ـــ ابن تيمية: منهاج السنة ج ٣ ص ١٨٥

الدينى فى تاريخ الاسلام!

والمعنى بيّن، لايحتاج إلى إيضاح لمن ابتغى الحق ﴿**وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**﴾.

وفضائل معاوية فى حسن السيرة، والعدل، والاحسان، وإدراك واجب الولاية، (وتكييف) علاقتها بالرعية– كثيرة مشهورة.

دخل عليه (أبو مسلم) فقال: السلام عليك أيها الأجير! فقال القوم: قل: أيها الأمير. وكرر أبو مسلم، وكرر القوم. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم؛ فإنه أعلم بما يقول. فقال أبو مسلم: أنت أجير المسلمين، استأجروك على رعاية مصالحهم.

وفى الصحيح أن رجلا قال لابن عباس: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية ... فقال: إنه فقيه.

وروى البغوى فى معجمه، أن أبا الدرداء قال: مارأيت أحدا أشبه صلاةً بصلاة رسول الله ﷺ من

إمامكم هذا، يعنى معاوية.

فهذه شهادة الصحابة والتابعين، والعلماء بسيرة معاوية فى ملكه، ومانال المسلمين فيه من حقوق الرعاية الاجتماعية، والقضائية. وشهادتهم بفقهه. وشهادة عمر له وعبد الرحمن بن عوف. شهادات جامعة لفضله دينا ودنيا.

أما شهادة صاحب السقوط عن معاوية فإنه يقول ص ١٧ : (**عاشق** للدنيا بلا شبهة أو مراء).

ياأيها الناس، دعوا شهادة عمر، وابن عوف، وابن عباس، وأبى الدرداء، والأعمش، دعوها ولو جاءتكم راجية أن تقبلوها بلسان أهل السماء، باكية بدموع أهل الأرض، متوسلة بجاه جميع الصالحين.. دعوها ولا تقبلوها، واقبلوا وصدقوا شهادة صاحب السقوط أن معاوية كان عاشق دنيا بلا شبهة أومراء!!

ويحكم!

مالكم؟

كيف تحكمون ؟!!

ألا ماأصدقها، وأخبرها بالنفس، كلمة قالها الرسول الحكيم ﷺ :

إذا لم تستح فاصنع ماشئت!

وعايشت حركة النقد مجتمع المسلمين على امتداد تاريخهم .

وقصائد عبيد الله بن قيس الرقيات فى نقد بنى أمية، ومدح الزبيريين مشهورة معروفة. وقصائد الكميت فى مدح الهاشميين، ونقد الحكام الأمويين أشهر ذكرا، وأندى صوتا .

ومازال الأمر على مثل ذلك على عهد العباسيين، حتى فيما يمس معيشة الخلفاء وآراءهم، ومواقعهم من الحكم والسياسة :

سأل سائل الامام مالكا عن حكم قتال البغاة . وهو سؤال له . فى التناحر السياسى، مغزاه ومرماه . فقال

الامام: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم. فقال السائل: فإن لم يكن كعمر؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما!!

ماأحسب جراءة هذه الفتيا تخفى على فطين، ولا أحسب نظام حكم ديمقراطى يكون العالم فيه جرىء المقدم مثل جرأة مالك هذه. والكتب التى ألفت فى القانون والاقتصاد، والميثاق فى عهدنا، من غير علماء الدين، شاهد صدق (بلا شبهة أومراء).

لكنْ اسمع، بعث الرشيد إلى مالك ينهاه أن يحدث بحديث السفرجل. فلما جاء مالكا النهى جلس لدرسه، وتلا قول الله: ﴿**إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ ثم قال: والله لأخبرنّ بهذا فى العرصة، واندفع يقول: حدثنى نافع عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ، فأهدى إليه سفرجل، فأعطى أصحابه واحدة واحدة، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات، وقال له: القنى بهن فى الجنة.

ومن هنا ظهر . فى التفكير والعمل جميعا ، قوة تحمى النظام ، وتوقف الطغيان ، وهى أن علماء الدين هم ورثة الأنبياء فى حماية الشريعة ، ورأينا مايرسخ هذه الفكرة ويؤصلها ، مثل قول (مالك) : بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء(١) .

فالعالم الحق قبس من نور النبوة ، يضيىء ظلمات الحياة ، وإذا جار دليل الرأى هداه بكوكب من العلم يبدد الحيرة ، ويهدى السبيل . وهكذا فعل علماء الإسلام ، واستجاب لهم الحكام ماستقام لهم دين .

فى مجلس المهدى رفض الإمام مالك أن يشرب الماء فى كوز عروته من فضه ، فأمر المهدى بالعروة فنزعت .

وحنث الرشيد فى يمين ، فأفتاه مالك بصيام ثلاثة أيام ، فقال الرشيد : أنا معدم؟! فقال مالك : ياأمير المؤمنين ، كل مافى يدك ليس لك .

كان بشار جالسا فى دار المهدى والناس ينتظرون

---

١ ـــ الشيخ أمين الخولى : مالك ، تجارب حياة ص ١٩١

الإذن ، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر : ماعندكم فى قول الله عز وجل : ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ..**﴾ فقال له بشار : النحل التى يعرفها الناس . قال : هيهات ياأبا معاذ ، النحل : بنو هاشم ! وقوله : ﴿**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**﴾ يعنى : العلم . فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم . فقد أوسعتنا غثاثة . فغضب ، وشتم بشارا . وبلغ المهدى الخبر ، فدعابهما ، فسألها عن القصة ، فحدثه بشاربها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ! فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك باردٌ غث .

ولم تكن محنة الرأى التى أصابت الإمام أحمد ، فى أحد وجوهها ، إلا دليلا على الاعتزاز بالرأى ، وقوة الاعتصام بالدين . كان له أثره فى تراجع الحكام عن موقفهم ، ثم مزيد من الثقة العامة فى الإمام ، فما زاد إقبال الناس عليه ، وكأنما كانت تلك السياط التى ضربها الإمام

(نياشين) أعلت قدره فى أعين الناس، فذاعت كلمته، واستمسك بها من بعده.

إن هؤلاء القوم من الأئمة لايرون الموت فناء، ولا يستقر فى نفوسهم لكلمة: (الموت) معنى الهلاك. إنما يرون الموت الوجه الآخر للحياة. به تتم الحقيقة السامية، وينكشف عنها مايحجبها، ومن ثم لايفزعهم الموت، ولا يخوّفون به.

وهم، أيضا، لايرون فضائلهم فضائل يتمدحون بها، أو يُمدحون. وإنما يرونها (أمانات) ائتمنوا عليها؛ لتبقى بهم معانيها فى هذه الدنيا. فهى عندهم ليست فضائل للتباهى. إنما هى أمانات للحساب!! ومن ثمّ لايفرّطون فيها برغب أو رهب!!.

كل أولئك، وعلى هذا الزمن الطُويل دليل على الصفة العامة للمجتمع الإسلامى الذى أشرقت فيه هذه المثل. فلم يقتصر الأمر، إذن، (على نصيحة من عابد، أو حكمة تأتى على لسان زاهد. صـ٢٧).

ولو كانت العلة فى النظام الإسلامى، أو الدينى على إطلاقه، كما يرى صاحب السقوط؛ للزم، عقلا، ألا توجد هذه المآثم، التى ننكرها نحن أيضا إلا فيه ولكن التاريخ والواقع شاهد ببطلان ذلك الزعم. وليس صحيحا أن الحكم المدنى، على إطلاقه، هو العاصم من مثلها. فقد شهدنا علماء من كل نوع يسامون كل أنواع العذاب، التى تصغر إلى جانبها حوادث الفتن فى تاريخ المسلمين، ثم سكوت أمة بأكملها على ذلك لاخوفا (من رأس الذئب الطائر) بل من رأس الإنسان المهشم، ودمه المهراق، بل من الإنسان الموضوع (فى الأحماض) ليذوب من فوره!

لن أقول: فلان، وفلان، ولا الشيخ محمد الأودن(١)، وقد نيّف على السبعين. لن أذكر أسماء، بل أكتفى، غير ماسبق ذكره، والإشارة إليه، بالإشارة إلى كتاب الأستاذ فتحى رضوان: (٧٢ شهرا مع عبد

---

١ ـــ أستاذنا. أستاذ الحديث بكلية أصول الدين. عرض عليه منصب مشيخة الأزهر إبان قيام ثورة سنة ١٩٥٢ فأبى ...

الناصر)، والذى لخصه الأستاذ مصطفى أمين فى (أخبار اليوم) فى يوم ٦/٧/١٩٨٥م.

وكفى بها إشارة.

وما خفى أعظم.

فسل أهل الذكر؛ لعلك تدرى غيب مالم تكن تدرى.

قولوا ماشئتم، وتزيدوا ماشئتم وماشاء أعداء الإسلام.

وتتبعوا السقطات ماشاءت لكم عين السخط..

فسوف تظل فى قَوْصَرَّة الثمرات حقيقة لن يستطيع أحد مهما لج فى المكابرة أن ينكرها. تلك: أن الإسلام نقل البشرية نقلة حضارية لم تكن لتوجد فى تاريخها لولا الإسلام، وأنها أثرت فى أهل الأرض حتى لم يدخل منهم حوزة الإسلام. وأنه فى امتداد تاريخه كله، مع مظالم أهل السياسة، ظل حلما بعيد المنال لمن عاشوا تحت غير ظلاله، وأنه كان أفقا ساميا للمعانى الإنسانية، محققة فى واقع بشرى على تفاوت، وأنها- مع ذلك- جذبت إليها كثيرا من غير أهلها، إذ كان- على سبيل المثال- كثير

من جنود الصليبيين، ومن أمرائهم يفرون إلى معسكر المسلمين شغفا بما أدركوه من هذه القيم. ولم تكن فترات الحروب الصليبية إلا من فترات انحدار المسلمين، وإلى الإسلام، وتاريخه، وحضارته يرجع الفضل في انتصار المسلمين فيها، وفيما تلاها من حروب التتار. ولولا الإسلام لتغيرت معالم تاريخ هذه الأرض إلى ماأراد متطرفوا أوربا، وهمج التتار.

فيا عجبا من الذين يجحدون ذلك، ويحاسبون الإسلام على مالم تصنع يداه حساب الملائكة، ثم يمجِّدون أفعال الشياطين. وهم يزعمون أنهم لقومهم ربيئة المستقبل، ورواد الآمال.

الا ماأقدرنا على هدم مالا نريد، وما أعجزنا عن تحقيق مانريد!

إن الذين لايقدرون على التحرر من الأهواء، والآراء الخاطئة التي تعتمد على الأوهام والخيالات، والتداعيات الذهنية، والانتقاء الشهواني... ليسوا إلا رعايا في مجتمع العبيد (الأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

الإلزام بين المبدأ والشكل

جاءت الشريعة الإسلامية مقررة لمبدأ الشورى بأساليب متعددة على النحو الذى سلف تبيانه .

ولم يكن تقرير النظرية نتيجة لحال الجماعة ؛ فقد كان العرب فى أدنى دركات الجهل . . وإنما قررت الشريعة النظرية ؛ لأنها من مستلزمات الشريعة الكاملة الدائمة المستعصية على التبديل والتعديل ؛ ولأن تقرير النظرية يؤدى بذاته إلى رفع مستوى الجماعة ، وحملهم على التفكير فى المسائل العامة والاهتمام بها ، والنظر إلى مستقبل الأمة نظرة جدية ، والاشتراك فى الحكم بطريق غير مباشر ،

والسـيطـرة على الحكـــم ومراقبتــهــم . فالنظرية ، إذن ، مقـــررة لتكميـــل الشريعـــة ، ولتوجيـــه الجماعـة ورفـــع مســـتواها (١) .

ومن مباحث الفقه السياسى مبحث (الالتزام) بتنفيذ نتيجة المشاورة. بعد الاتفاق على الالتزام بالمبدأ. بمعنى أنه هل يجب على الحاكم تنفيذ ماانتهى إليه رأى مجلس الشورى، أو أكثره؟

لننظر فى الأدلة التى قررت المبدأ :

١ ـــ جاء الأمر بالشورى والوحى ينزل. وكان مقتضى زمان نزول الوحى الاكتفاء به عن تقرير مبدأ الشورى. على نحو ماكان ينزل القرآن مفرقا منجما، يقرؤه الرسول على الناس على مكث؛ ليثبت الله به فؤاده، وليجيب بالحق على مايوزدونه عليه من أسئلة، أو شبه. وفى ذلك دلالة قوية على العناية بالمبدأ، المقررة

---

١ ـــ الأستاذ عبد القادر عوده: التشريع الجنائى الإسلامى جـ ١ القسم العام ص ٣٧ ط ١٩٤٩م

للالتزام به، ولا قيمة للالتزام بالمبدأ من غير التزام بنتيجته .

٢ ـــ جعل الشورى صفة من لوازم الإيمان . والإيمان المعتد به شرعا، الذى تترتب عليه النجاة فى الآخرة، والفلاح فى الدنيا هو الإيمان الذى يثمر العمل الصالح، الذى يصدّق ماوقر فى القلب. وهذا يستلزم العمل بنتيجة الشورى، وإلا كانت أمراً نظريا شكليا عقيم الثمر ! .

٣ ـــ وجعلها صفة لازمة، لاعارضة، للمؤمنين، وقرنها من صفاتهم بإقام الصلاة والأنفاق ﴿**وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون**﴾ والصلاة مفروضة لآثارها النفسية والاجتماعية ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ ﴿**إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين**﴾، وما لم تؤت الصلاة هذه الثمرات فليست الصلاة ﴿**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له**﴾.

والإنفاق مقصود لأثره الاجتماعى فى التكافل، ومحو العوز، ولذلك يزداد بمقدار ازدياد الحاجة.

والأمر فى صفة الشورى كذلك، لابد أن تؤتى ثمراتها فى الاهتداء إلى الصواب، والأصوب، ومحو الاستبداد بالأمر. فإذا وقف الالتزام فيها عند حد استخراج الآراء دون التزام بالتنفيذ كانت كالصلاة التى لاتنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا تمنع هلعا ولا جزعا.. ومثل الإنفاق الذى لايقضى الأرب، ولا يوفى الطلب!

٤ ــ والاستبداد من أنكر المنكرات، والالتزام برأى الجماعة من أعرف المعروف. وقد أمر الله أن تكون أمة المسلمين أمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر. وأن تكون منها جماعة قائمة على هذه الوظيفة: وظيفة الدفاع الشرعى العام. وجعل ذلك فرض عين على الأمة، وأبنائها، وعدَّدَ لهم وسَائلهُ.

وهذه الوظيفة الإسلامية سر من أسرار تماسك الأمة، والمحققة لمعنى (أمة) بمعنى زائد على معناها السياسى فى

عناصره المادية فى الأرض والشعب والحكومة، والمحقق لمدلول (الدولة) ماديا.

والإسلام– مع إقراره لهذا الهيكل المادى، كما يصوره الفقه الغربى فى عناصره الثلاثة– يحيط هذا الهيكل المادى بإطار من معنوياته وروحانياته وأخلاقه، يتمثل فى أصول عامة، بدونها يتسرب الفساد إلى كيان الأمة المادى(١).

وهذه الوظيفة، بسرّها وتحقيقها، هى التى تقوّم عوج الحكومة. والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى. وقول الله **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**– أدل دليل على هذا الأصل. ودلالة هذه الآية عليه أقوى من دلالة قوله **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**؛ لأن هذا وصف خبرىّ يدل على أن هذا الشىء ممدوح فى نفسه، محمود عند الله. كما أنها أقوى من دلالة قوله تعالى: **﴿وشاورهم فى الأمر﴾**؛

١ ــ أستاذنا الدكتور محمد عبدالله العربى : محاضرات فى النظم الإسلامية سنة ١٩٦٥

فإن أمر الرئيس بالمشاورة يقتضى وجوبه عليه، ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للأمر فماذا يكون إذا هو تركه؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون فى الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهو عام فى الحكام والمحكومين. ولا معروف أعرف من العدل، ولا منكر أنكر من الظلم. وقد ورد فى الحديث: (..لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض..)[1].

٥ ــ قال الرسول لأبى بكر وعمر: لو أنكما تتفقان على أمر واحد ماعصيتكما فى مشورة أبدا وهذا التزام عن الاتفاق. يدل عليه عملا التزامه برأى السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فى رفضهما رأيه فى مصالحة غطفان يوم الأحزاب!

---

١ ــ الإمام الشيخ محمد عبده. تفسير المنار جـ٤ ص٩٧ – ٩٨

٦ — والتزم برأى أكثرهم يوم أحد على مارأى فى منامه — ورؤيا الأنبياء حق — ماأوله بإصابة رجل من أهل بيته، وقتل نفر من أصحابه، وأن المدينة درع حصينة. ومع كل ذلك عمل برأى جمهورهم الذين رفضوا رأيه فى التحصن بالمدينة، وكان أكثرهم من الشباب، الذين فاتهم بدر، وأغراهم ماعلموا من فضل أهلها — إقامة لقاعدة الشورى، مع أنه كان يسير فى حروبه على قاعدة: (ارتكاب أخف الضررين، وأبعد الأمرين عن العدوان) رحمة بالناس، وايثارا للسلام. لكنه ههنا لم يوازن بين ضرر الخروج من المدينة وبين البقاء فيها، بل قايس بين البقاء فى المدينة مع مخالفة رأى أكثرهم، وبين الخروج مع موافقته لرأى الأكثر، فاختار مافيه موافقتهم. وهو داخل فى قاعدة (أخف الضررين)؛ لأن مخالفة الجمهور، ولو إلى خير السلامة والتحصن هضم لحق الجماعة، وإخلال بأمر الشورى التى أساسها الخير كله (١).

---

١ — الإمام الشيخ محمد عبده. تفسير المنار جـ ٤ ص٩٧ — ٩٨.

يتبين من هذه الأدلة أن الالتزام بتنفيذ نتيجة الشورى التى تراها الجماعة، أو أكثرها واجب مثل الالتزام بمبدئها.

ويزيد الأمر بياناً أن ننظر فى أدلة القائلين بأن الواجب إنما هو فى المبدأ لافى التنفيذ، ونتعرف على وجه دلالاتها، وعندئذ يتوضّح الصواب، ويبين ماقد يكون بينهما من اتفاق أو اختلاف:

١ ـــ يرى صاحب كتاب: (مبادىء نظام الحكم فى الإسلام)[1]. أن قوله تعالى ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ معناه: إذا عزمت وأخذت بما عزمت عليه فامض فيه سواء كان موافقا لما انتهت إليه الشورى! أم لا

ولست أدرى وجه الدلالة فى الأمر بالمضى على ماعزم عليه متوكلا على الله على ترك ماانتهت إليه الشورى!

وإذا كان من حقيقة التوكل الأخذ بالأسباب، وأنه

١ ـــ هو الدكتور عبد الحميد متولى. راجع (بين الحاكم والرعية) رسالة دكتوراه لم تطبع من جامعة الأزهر. د. نادية محمد عياد

لايصح إلا مع القيام بها[1]، ومن نفى الأسباب فتوكله مدخول- فكيف يكون العزم على المضى فى الأمر بعد المشورة غير مستلزم للأخذ بنتيجتها؟

ويجب أن نلحظ أن أمر الرسول بالشورى نزل بعد أحد، وماكان فيها مما أصابهم نتيجة الأخذ بمشورة جمهورهم. ومع ذلك أمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم وبمشاورتهم. وهو وجه من الإلزام جدّ غريب، جاء مقوّما للطبيعة البشرية، التى تندفع فى مثل هذا الموقف؛ لتلوم المشيرين، وتقول لهم: كان ذلك نتيجة مشاورتكم، والأخذ بها، ومخالفة ماكنت أرى، الآن تبين لكم صدق رأيى، وبعد نظرى، وإحاطتى بما لم تحيطوا به. جاء التوجيه الالهى على غير هذه الطبيعة البشرية، ومقوماً لها، آمراً للرسول بأن يعفو عنهم فيما هو من حق الرسول نفسه، وأن يستغفر لهم فيما هو من حق الله، وأن يلتزم- مع كل ذلك- بمشاورتهم! فكيف يقال بعد كل هذه الأوامر القاطعة إن نتيجة الشورى غير

---

١ ــ مدارج السالكن جـ ٢ ص ١١٦ ، ١١٨

ملزمة ؟!

٢ ــ ويرى أستاذنا فضيلة الشيخ متولى الشعراوى فى كتاب نشرته له (دار ثابت) بعنوان: (الشورى والتشريع فى الإسلام) أن الشورى لاتلزم الحاكم الذى بايعته الأمة الإسلامية بيعة إيمانيه؛ لأن الحاكم حين ينال ثقة الأمة الإسلامية على أساس دينى يكون متحملا للأمر بأكمله مسئولا عنه أمام الله وأمام الرعية[١].

وأقول: إن البيعة بهذه الهيئة بمثابة توكيل صاحب الشيء وكيلا عنه، مع شرط رقابته فى التصرف فيما وكل فيه، ومسئوليته عن تصرفه أمام موكله. فضلا عن مسئوليته أمام الله. وهو– فى أصل الاختيار– مختار على أساس (قوته على الأمر، وأمانته عليه). وذلك يوجب عليه المشاورة من عدة وجوه: أمانته– قوته التى منها رأى غيره– مسئوليته أمام الرعية. ولهذا كان من حق الأمة– إذا خرج عن رأيها– أن تعزله. قال القرطبى:

---

١ ــ د. نادية محمد عياد. المرجع الأسبق

قال ابن عطيه: والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، من لايستشر أهل العلم والدين فعزله واجب. أترى هذا العزل الواجب لمجرد أنه لم يسمع الرأى؟ أم لغدم تنفيذه؟

٣ — ومن حجج القائلين بعدم التزام الحاكم بنتيجة الشورى أن الرسول أمضى معاهدة الحديبية مع معارضة الصحابة جميعا غير أبى بكر.

وهذا دليل على غير موضع الاستدلال؛ لأن مخالفة الرسول هنا – إن صح تسمية موقفه مخالفة – إنما كانت اتباعا للوحي، لاإعراضا عن رأى الجماعة. فلم يكن الموقف خِيَرةً بين رأى للرسول ورأى للجماعة، بل كان اتباعا لأمر الله، الذى أنزل فيه بعدُ سورة كاملة هى سورة الفتح. فلم تكن ههنا مشورة خالف الرسول نتيجتها، بل كان اعتراض لم يأخذ به الرسول امتثالا للوحى، الذى دلّ أبا بكر عليه، وفطّنه إليه، بما لم يدركه غير ماكان من ناقة النبى ﷺ من احجام عن دخول المدينة، وبروكها وعدم استجابتها لمن

استنهضوها، حتى قالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال ﷺ: ماخلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. والذى نفسى بيده لايسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها(١).

ولأن أمر الحديبية كان كذلك كان كله خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين، كما استحق اسمه: الفتح المبين!

٤ ــ ومن أقوى حججهم استمساك الصديق بقتال المرتدين، وقتال مانعى الزكاة.

وفى الحق أن هذا الموقف من روائع التجديد الذى أحدثه الإسلام فى البشرية فكرا وسلوكا. ففى الوقت الذى كانت الشعوب لاتملك من أمرها نقيرا ولا قطميرا أحدث الإسلام هذا المنهج الفكرى فى أسس التحاور: يبدى عمر شبهته فى رفض رأى الحاكم مستندا إلى ظاهر نص صحيح من دستور المسلمين: حديث الرسول.

---

١ ــ د. نادية محمد عياد. المرجع السابق

فيرد عليه الصديق كاشفا له من المصدر الدستورى ماخفى عليه من نصه، ومن دلالته! وتتفاعل العقول، وتتصارع الفهوم، ثم ينتهى الأمر إلى وجهة واحدة، اتفق عليها المتحاورون، رأيا وتنفيذا فأى دليل على الشورى مبدأ وتنفيذا أدل من ذلك؟!

وأى سمو بالناس، منذ ذلك الزمان، إلى نظام للحكم جديد على عالمهم، فوق ذلك السموّ؟!

٥ ــ والأمر كذلك فى خلاف عمر مع من خالفه فى سواد العراق.

لادلالة، إذن، فى ذلك على عدم الالتزام بنتيجة الشورى. إنما كان رجوعا بالتنازع إلى دستور الجماعة: الكتاب والسنة، واجتهاداً من المتحاورين للتعرف على حكمه فى واقعة بعينها، فلما تبين الاجتهاد الصحيح التزم به جميعهم مؤيدين ومعارضين. وكلهم كان فى رتبة الاجتهاد العام، ولم يمنع المخالفين مخالفتهم، ولا اجتهادهم من الالتزام بنتيجة الشورى بعد أن صارت رأى الغالبية.

وهذه السنة المباركة التى تكمّل مبدأ الشورى العام تعتبر فى وقتنا الحاضر العلاج الناجع لفشل الديمقراطية. فمن المسلم به أن البلاد الديمقراطية فشلت فشلا ذريعا فى تطبيق مبدأ الشورى. والسبب الأساسى فى هذا الفشل أنهم يسمحون للأقلية أن تناقش الرأى الذى أقرته الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة، وأن تشكك فى قيمته وصلاحيته أثناء تنفيذه، بل إنه يظل موضع الانتقاد والسخرية، حتى بعد تمام تنفيذه. ولما كانت القاعدة أن فريق الأغلبية هو الذى يتولى الحكم فإن آراء هذا الفريق وأعماله لاتقابل بما يجب لها من الاحترام، بل تكون دائما محل تشكيك وسخرية[1].

يظهر من ذلك أن القائلين بعدم التزام (الإمام) بتنفيذ رأى أهل الشورى نظروا إلى عدم (الالتزام) من منظور تاريخى وفقهى كان فيه «الخليفة» على رتبة الاجتهاد، الذى جعله علماء الفقه الدستورى الإسلامى أحد شروط تولى منصب الخلافة.

١ ــ الأستاذ عبد القادر عودة: التشريع الجنائى الإسلامى جـ١ ص ٣٩

وتطبيق ذلك اليوم تطبيق لحكم تاريخى على واقع معاصر مع الفارق ؛ إذ ليس حاكم اليوم فى هذه الرتبة من الاجتهاد. وهذا مرفوض بمنطق (أصول الفقه) التى تجرى العلل فى القياس.

على أن القائلين بعدم الالتزام لايقصدون أن للحاكم أن يستبد، وأن يظلم، وأن يرى الحق فلا يعمل به، وأن يفعل مايشاء.. وأن على الأمة أن تسمع وتطيع لحاكم هذه حاله... إذ لو كان الحاكم كذلك لدخلت تصرفاته هذه فى دائرة المنكر الذى تجب على الأمة مقاومته، كما يجب عليها التعاون على هذه المقاومة؛ لأنه إثم وعدوان، ولا مشاحة فى وجوب هذا التعاون.

وبذلك لايكون – اليوم – خلاف حقيقى بين العلماء فى وجوب التزام الحاكم بالشورى مبدأ وتنفيذا.

وعلى هذا الأساس كانت فتاوى العلماء بمقاومة الظالمين، وكانت فتاوى مالك وأبى حنيفة، فكان مالك يرى أن البيعة لاتتم بالإكراه؛ إذ ليس على مستكره يمين،

وكانت هذه الفتوى سبب الاعتداء عليه. وأبو حنيفة أيد الخارجين على الخليفة، وقال عن خروج (إبراهيم بن الحسن) على المنصور: ضاهى خروجه خروج المسلمين يوم بدر. والشافعى يرى أن الإمام ينعزل بفسقه. ولا فسق فوق الظلم.

ولكن لنرخ حبل المراء للذين يرون حقائق التاريخ الإسلامى، فلا يقصدونها، ويدورون حول رحاها، ويحمّلونها. فلا تحملونها.

وليرتقوا فى الأسباب، الساخرون من عظمة الاجتهاد وليسروا النجوى، الذين ظلموا، الذين يتناجون بالإثم والعدوان

وليقولوا: إن خلاف العلماء اليوم فى الالتزام برأى الجماعة خلاف حقيقى، لالفظى.

ليكن.

أليست نصوصنا الوضعية، فى نظم حكوماتنا المدنية، يختلف فى تفسيرها؟

«هل النص الدستورى خطاب للمشرع وحده؟ أو للمشرع والقاضى؟ ... من العسير وضع قاعدة دستورية عامة للإجابة عن هذا السؤال... وإذا كان صحيحا أن نصوص الدستور تحتل مكان القمة فى البناء القانونى، وأنها ملزمة لسلطات الحكم جميعا، إلا أن منها ماهو نافذ بذاته فى حق السلطات، جميعا، ومنها مايحتاج نفاذه، والالتزام به إلى تدخل واحدة من هذه السلطات، تفصل ماأجمل النص، وتجعل الالتزام به ممكنا فى حق سائرها...» د. كمال أبو المجد- أهرام الثلاثاء ١٩٨٥/٧/٢م

فليس الاختلاف إذن لازما للنص الدينى وحده.

وليس الاتفاق إذن لازماً لغيره

أوليست نظمنا المدنية، التى يراها صاحب السقوط عاصما من مآل الجحيم الذى ينتهى إليه الحكم الدينى- أوليست هذه النظم تعطى للحاكم- حق السيادة- سلطة إصدار قوانين، فى بعض الحالات من غير الرجوع إلى الهيئة التشريعية؟ فلماذا؟

فهل نهدم هذا النظام كله هذه ؟

أم المقصود هدم النظام الإسلامى وحده ؟

لقد صدر قانون الأحوال الشخصية الملغى، فى ظل هذه النظم المدنية، بهذه الصفة التى من أجلها ألغته المحكمة الدستورية العليا، والتى عبّر عنها الأستاذ صلاح منتصر فى أهرام ٢/٧/١٩٨٥م بقوله: (كان من عيوب قانون الأحوال الشخصية الذى ألغته المحكمة الدستورية العليا الشكل الدكتاتورى غير الديمقراطى، الذى صدر به... ورغم أن البعض كان قد استفاد من بعض قواعد هذا القانون، إلا أن الملايين أحست براحة نفسية من إلغائه؛ لأنه صدر بطريقة غير ديمقراطية.. اهـ.

- الحاكم، إذن، أصدر قانونا بشكل دكتاتورى.
- الملايين فرحت بإلغائه
- كان هناك من يؤيد هذا القانون

وهؤلاء وهؤلاء لم يكونوا من علماء الدين

والحكم الذى صدر فيه هذا القانون حكم مدنى

فأى التزام بتنفيذ الشورى ههنا؟

وهل هناك مجال إذن لقول صاحب السقوط: «من المنطقى مادامت الدولة دينية والقرارات دينية، أن تعرض القرارات على أهل الحل والعقد.. ومايصدر عنهم ليس أكثر من شورى، والشورى فى رأى بعض الفقهاء- بل قل أغلبهم- غير ملزمة.. وهو- الحاكم- إن اتفق مع أهل الحل والعقد فله أن يأخذ برأى القائلين بأنها ملزمة، وإن اختلف أخذ بقول القائلين بأنها غير ملزمة، وكل من الفريقين له أسانيده..اهـ

لامجال إطلاقا، عند صفاء النية لمثل هذا الترديد بعدما بينتُ من ضرورة الالتزام الإسلامى وبعد بيان واقع الحكم المدنى. أفنسكت عن محاسن الحكم الإسلامى ونلتمس له المعايب؟ فإذا ذكرت معايب التنفيذ فى الحكم المدنى مابَهَشْنا إليه بقصبة؟!

فإذا كنا لانهدم هذا النظام المدنى، مع وقوع ماوقع، فلماذا نُحل له مانحرم على غيره، أو على الأقل لماذا لايرتفع صوت النعى به، كما نرفعه بنعيان غيره.

وإذا قيل إن ههنا محكمة عليا تقضى على بعض الصور غير الديمقراطية، قلنا: ولا مانع من مثلها فى النظام الإسلامى، كما أنه لامانع، من قبْلها– من هيئة تشريعية من أهل الذكر تصنف قوانين الإسلام الأساسية، وقوانينه التشريعية...

* * *

آفة الفهم السقيم

يقول الأستاذ سيد زهرة فى جريدة الأهالى ١/٥/١٩٨٥م فى تأييده لاتجاهات د. فرج: وكان بوسع د. فوده أن يضيف إلى هذا (عدم الاتفاق على الشورى) أن الشورى مصدرها الحاكم بحكم النص (وشاورهم فى الأمر) وليس مصدرها الشعب، ولا حتى أهل الحل والعقد.

يا حسرة على العقول !!

أى فهم هذا

تعالوا، إذن، نلغى الحق، والعدل، والصدق، والأمانة.. وكل القيم، وكل مبادىء الأديان؛ لأن مصدرها النص، وليس مصدرها الشعب.

«وتلك شنشنة نعرفها من أخزم» الشعب. الأرض. المادة.. البيورجوازية.. وأين نص (وأمرهم شورى بينهم) صفة خيرية للمؤمنين؟

ثم ما المصدر؟ ومن هو؟

أهو الحاكم المأمور؟ أم الله الآمر؟

إذا أصدر رئيس الجمهورية– بحكم السيادة– أمرا إلى من دونه، لمصلحة الدولة، أيكون من دونه، وهو المأمور، هو مصدر الأمر؟ أم يكون مصدره رئيس الجمهورية؟

أم وراء هذا أن القرآن ليس بوحى؟

أم أن الكاتب يقصد بقوله (مصدرها الحاكم) أنه هو الذى يقوم بها؟ .

ليكن، فهو يقوم بها فرضا مفروضا، والأمة هى المستشارة. وهذا حقها، (حقها الإلهى) الذى له من قوة التقبل والالـزام مالا يرقى رقيه أى حق آخر، مهما كان مصدره. وعليها أن تستمسك به، ولا تفرط فيه؛ فإن فرطت فهى مؤاخذة عند الله والناس .

إن قوله ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ صفة تالية لصفة الاستجابة الإيمانية ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم...**﴾ رفع لقيمة الشورى ومزيد اهتمام بشأنها، وتنبيه على مكانها من الإيمان، وأن مجالها ممتد إليه، فكانت استجابتهم الإيمانية عن رؤية وبصيرة ومشاورة. وهذا هو ثبت التاريخ يشهد بأن الأنصار حين سمعوا بالنبى ﷺ تشاوروا بعد ورود النقباء إليهم، واجتمع رأيهم، فى دار أبى أيوب، على الإيمان بمحمد، والنصرة له، فامتدحهم الله بها، وأخبر بأنها صفتهم الدائمة(١).

فهل هناك فى الدنيا إلزام بالشورى يدانى ذلك؟ وهل هناك من (الصفات السياسية) مايصير (طبيعة) لأهلها، كطبيعة الشورى عند المؤمنين؟

فإذا استحضرت بما كانت عليه الدنيا كلها عند نزول

١ــ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين. المعروف بحاشية الجمل ج ٤ ص ٦٨

هذه السياسة الإسلامية ففى اى سِماك توضع سياسة الإسلام؟

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

الشـــــكل

الإسلام دين عام خالد

ومن أجل هذه الصفة اللازمة كانت فيه (الثوابت) الباقية، والتعاليم (الكلية) وكان فيه (المتغيرات).

له (مبادىء السياسة) التى يختلف شكلها، ويثبت جوهرها.

والشورى من ثوابت السياسة الإسلامية، ومبادئها التى لافكاك منها، وهى كذلك من صفات المسلمين، وأخلاقهم التى طبعهم بها الإشراف الإسلامى، والتوجيه القرآنى.

وهى من لوازم قيام الأمة المسلمة، التى تقوم

حكومتها على سياسة الإسلام.

أما (كيف) تقام الشورى؟

بأى (شكل) تكون؟

فهذا ماتركه الإسلام للمسلمين، يبتدعون منه مايحقق المبدأ، ويناسب الحال.

أوجب الله الشورى على المسلمين، ولم يبين كيفيتها؛ لأن تفصيل النظم الشورية، والطرق التى تكون بها لما يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية، فمن العدل أن تقرر الشورى، وأن يترك لكل أمة أن تضع نظمها التفصيلية بما يلائم حالها ويتوافق ومصلحتها(١).

على أن عصر الراشدين قد سجل التطبيق الأول لتعاليم الإسلام الكلية فى بناء الدولة الاسلامية؛ فقد تمسكوا تمسكا متينا بتعاليم الاسلام الكلية فى فصائلها الثلاث: الخلقية، والاقتصادية، والحكومية، فلم يعزلوا إحداها عن الأخرى، ولم يترددوا فى أن يفرضوا من

١ ــ عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامى. ط سابعة ص ٢٨٧

التعاليم الحكومية مايلائم احتياجات عصرهم، ومستوى البيئة التى كان يعيش فيها المجتمع الاسلامى يومئذ... قيدوا الخليفة، فى تصريف شئون الدولة بالشورى وهى مايقابل (البرلمان الحديث)، ولمن يذهبوا وراء ذلك فى تفصيل أوضاع الشورى وإجراءاتها؛ ذلك لأن التعاليم الكلية فى فصائلها الثلاث تغنيهم عن هذه التفاصيل؛ إذ كانت تفى كل الوفاء بحاجات زمانهم فى ظل ماساد مجتمعهم من صدق العبودية لله وحده، ومن التزام المساواة بين أفراد المجتمع، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم، وتباينت دياناتهم وأقدارهم. ومن تعاون وتكافل بين الطبقات جعلها بمثابة طبقة واحدة. ومن عدل مطلق لاقيد عليه. ومن حرية فى القول، والرأى، والنقد، نقد الحكام فى سبيل المصلحة العامة، إلى حد تبرير المقاومة الثائرة.

هذه التعاليم الكلية التى أتى بها الإسلام فى فصائلها الثلاث، ونزل بها الوحى هدى ورحمة للبشر كافة— كان لعمومها حكمة مقصودة، هى أن التعميم الذى لاينزل

إلى التفصيلات الجزئية لايقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات، بل يتركها حرة تقتبس الوضع الذى تتوافر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان، مادامت تسوده التعاليم الكلية بوجه عام ينبثق من توجيهاتها. وهذه هى المرونة اللازمة للمبادىء التى يراد لها الخلود؛ لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر (١).

وبهذا وذاك اشتمل الإسلام على العنصرين الضروريين لسعادة البشر: عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها. وعنصر الانشاء والتجديد الذى يُعدّ الحاضر للتطور والرقى، اتجاها إلى مستقبل أفضل وأكمل.

وليس خطأ القائلين بقطع صلة الحاضر بالماضى بأقل من خطأ القائلين بقطع الماضي عن الحاضر، كما يفهم من تصرفات كثير من (دعاة ردّ الفعل) ومن كتابات كثير

---

١ ـــ أستاذنا الدكتور محمد عبدالله العربى: محاضرات فى النظم الإسلامية

من المناهضين للفكرة الإسلامية، أو (دعاة الاسلوب الغربي الكامل)(١).

* * *

٢ ـ راجع د. زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر مقال الحضارة وقضية التقدم. وكتابه خرافة الميتافيزيقا. وراجع مقدمه الإشارات لابن سينا تحقيق أستاذنا د. سليمان دنيا صـ ١٥ ٢٧

الإســلام والدولــة

المبــدأ :

لايمترى منصف يبتغى وجه الحق فى أن الإسلام بما حوى من نظم تتعلق بصلات المسلمين بغيرهم، وبمن جاورهم، تنظم العلاقات الخارجية. ونظم تتعلق بسياسة المال تحصيلا، وإنفاقا، وتوزيعا، وما يتصل بذلك من حقوق وواجبات. ومافى الاسلام من نظم تتعلق بالقانون الجنائى. ونظم تتعلق بالمعاملات المادية بين الناس كالبيع، والإجارة، والرهن، والمضاربة، والدين. ومافى الاسلام من نظم تتعلق بالعلاقات المعنوية والأدبية والاجتماعية. ومافيه من مبادىء الحكم، وواجبات الحاكم وحقوقه، وعلاقته بالمحكوم... – لايمترى منصف ينشد الحق، يعلم هذه الحقائق فى أن الإسلام: دين ودنيا، وأنه دين

ودولة، وأن هذه خاصته التى لوفصلناها لايكون هو الاسلام فى حقيقته كما أراده منزله، وكما تحقق هو فى وقائع تاريخه. وأن هذه القرينة من أخص مايميز الاسلام عن سواه.

وأدلة هذه القضية من حيث النظر، ومن حيث الواقع فوق كل جحود، إلا جحود من ينكر ضوء الشمس من رمد، وطعم الماء من سقم. وما كان لدين حوى كل هذه النظم إلا أن يكون دولة، مع كونه عقيدة.

– لقد أخذ الرسول يعد (شعب) هذه الدولة منذ فجر الاسلام. فلما تم له ذلك أخذ يهيىء (الأرض) التى تجمع هذا الشعب الذى آمن بهذا الدين، وتمكنه من أن يقوم بشعائر دينه ونظامه، وتحقيق سلطانه؛ ولذلك تمت الهجرة الدائمة إلى المدينة. وحرّم على من آمن به المقام فى أرض مستعة، ودار مذلة تمنع حرية الاعتقاد، وتشعل الفتنة، وتحول بين المسلم وإقامة سلطان دينه...

وفور وصول الرسول إلى المدينة أخذ يبنى (مقر الدولة): فأقام المسجد.

– وكانت المسألة الأولى، التى شغلت المسلمين، إثر موت الرسول، وقبل دفنه، هي: اختيار الحاكم. وقال أبو بكر: لابد لهذا الأمر ممن يقوم به؛ **فانظروا وهاتوا آراءكم**[1]. فكان نظرهم، وتحاورهم حول من يتولى الدولة، لاعلى الدولة وقيامها وأسسها ومبادئها.

– وكانت المسألة الثانية بعد موت الرسول، والأولى بعد تولى الصديق هى (جيش الدولة) وهل يمضى إلى وجهته لحماية (حدود الدولة) أو يتمهل الصديق فى إنفاذه.

فأى معنى للدولة إذا لم يكن هذا هو معناها؟!

الخصائص:

– بعد أن استقر المقام للمسلمين بالمدينة، واجتمع «المهاجرون والأنصار» فى «أرض» آمنة، والتفوا

---

١ ــ سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد جـ٢ ص ٢٠٠. وهو أكبر كتب علم الكلام

حول نبيهم، (وقائدهم وزعيمهم)- عقد الرسول (معاهدة) مع اليهود، كان من بنودها: كفالة حرية الاعتقاد، والتعاون على حماية المدينة.

- ولزيادة الترابط بين أفراد هذه الدولة الناشئة آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار على (المواساة والحق). وكان ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل الهجرة على (المواساة والحق) أيضا، مؤاخاة كاشفة عن مبدأ من مبادىء دولة الاسلام فى وقته الباكر؛ إذ آخى بين أشراف وسوقة: آخى بين حمزة وزيد بن حارثة مولى الرسول، وبين الزبير وعبدالله بن مسعود، وبين عبيد بن الحارث وبلال، وبين أبى عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة (١).

- ولتوكيد هذا الإخاء، وتلك المعاهدة كتب الرسول- فى ابتكار حضارى دولى- كتب كتابا يتضمن تفصيل هذا التآخى وذاك التعاهد. قال ابن

١ ـــ أبو عمر بن عبد البر: الدرر فى اختصار المغازى والسير. تحقيق د. شوقى ضيف

اسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم.

ومن الرد الجميل على منكرى دولة الإسلام، وعلى الظالمى أنفسهم بزعم أنها دولة ظلم وقهر... أنقل فِقراتٍ من كتاب النبى هذا، لعلها تكون فاقرة لكل شبهة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم **أمة واحدة** من دون الناس... كل طائفة تفدى عانيها (=أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لايتركون مُفْرَحا (=المثقل بالدين، والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف... وإن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دَسِيعة ظلم (=دَفْعاً على سبيل الظلم) أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض

دون الناس. وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم.. وإنه لايجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا،... وإنه لايحل لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا، ولا يؤويه.. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، **وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين**. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وإن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف.. وإن ليهود بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف وإن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف.. إلا من ظلم وأثم.. وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم... وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ... وإن بينهم النصر على من دَهِم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح

يصالحونه ويلبسونه؛ فإنهم يصالحونه ويلبسونه...[1].

أقول: لاتعليق. وهل يخفى القمر؟!

- ولذلك اتفقت كلمة علماء المسلمين على وجوب نصب الإمام (حاكم الدولة العام):

قال الإمام الغزالى فى كتابه: (الاقتصاد فى الاعتقاد): نقيم البرهان القطعى الشرعى على وجوب نصب الإمام، ولسنا نكتفى بما فيه من إجماع الأمة، بل ننبه على مستند الإجماع، ونقول: نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام قطعا.. ولا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع إذن.. وجب نصب الإمام.. ولهذا قيل: الدين أس والسلطان حارس، ومالا أس له فمهدود، ومالا حارس له فضائع... فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذى لاسبيل إلى تركه...

---

١ ـــ السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول صـ٥٠١-٥٠٤ تحقيق مصطفى السقا وآخرين

وقال الإمام ابن تيمية فى رسالته: (السياسة الشرعية): يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لاقيام للدين إلا بها.. قال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» وقال: «لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» فأوجب عليه السلام تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر؛ تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع... وإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان فسدت أحوال الناس.

وقال ابن خلدون فى المقدمة.. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولم يتم استيلاؤها.. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية. وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية، نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة... والخلافة هى: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية... فهى فى الحقيقة خلافة عن

صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ... ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ...

وفى فى نيل الأوطار بعد ذكر أحاديث التأمير فى السفر : وفيها دليل على أنه يشرع لكل عدد ثلاثة فصاعدا أن يؤمروا عليهم أحدهم ؛ لأن فى ذلك السلامة من الخلاف ، الذى يؤدى إلى الإتلاف .. وإذا شرع هذا للثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض، أو يسافرون فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار، ويحتاجون لدفع التظالم، وفصل التخاصم أولى وأحرى(١) .

١ ـــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار جـ ٨ ص ٢٥٦

أســس الحكــومة الإســلامية

بالرجوع إلى بحث الشورى، الذى سبق، تتبين الأسس التى تقوم عليها حكومة المسلمين، ويتبين منها - بالنصوص والوقائع - أنها على أرقى ماوصلت إليه البشرية بعد دهور دهارير، وتجاريب ابيضّت لها لمم الدنيا.

والآن أعود لتفصيل هذه الأسس فى بنود تبين بأدلتها حقيقة هذه الدولة، وتقنع من يستشرف إلى الحق والحقيقة:

١ ـ إقرار القرآن لفكرة الدولة والسلطان:

أ ـ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره

ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾ سورة الحديد: ٢٥

بين فيها دستور الأمة ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾

وغايتها ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾

ووسيلة حفظها ﴿وأنزلنا الحديد...﴾

فدولة الإسلام: حق وعدل. ومصحف وسيف. لامراء، وإن كره الجاحدون، أو غالطوا ففسروا السيف: بالشغب والفتن والاضطهاد...

ب ــ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ سورة النور: ٥٥

وعدهم على الإيمان والعمل الصالح:

- قيام الدولة المكينة، التى ترث ملك السابقين، وأن يكونوا ولاة الناس
- وعلو دينهم وظهوره على الدين كله.
- وإذهاب خوفهم، واستبدال الأمن به.

وقد فعل.

٢ ــ رئيس الدولة:

وهناك آيات تضمنت خطاب النبى بممارسة شئون متنوعة: قضائية، وحربية، وإدارية، وإجرائية، مما يدخل فى نطاق مهام الدولة، منها:

أ ــ ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم، واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله...**﴾ سورة آل عمران: ١٥٩

ب ــ ﴿**إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين**

الناس بما أراك الله ..﴾ سورة النساء: ١٠٥

ج ــ ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لايحب الخائنين﴾ سورة الأنفال: ٥٨

د ــ ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ..﴾ سورة الأنفال: ٦١

هـ ــ ﴿ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض..﴾ سورة الأنفال: ٦٧

و ــ ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه؛ ذلك بأنهم قوم لايعلمون﴾ سورة التوبة: ٦

٣ ــ آيات تقر النبى على ممارسة شئون الدولة :

أ ــ فهو المرجع فى شئون الحرب ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾ سورة آل عمران: ١٢١ ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم..﴾ سورة آل عمران: ١٥٣ ﴿عفا

الله عنك لم أذنت لهم﴾ التوبة: ٤٣.

ب ـــ وهو المرجع فى شئون الأموال العامة:

﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات﴾ ...﴿ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله..﴾ سورة التوبة: ٥٨ – ٥٩

﴿ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..﴾ سورة الحشر: ٧ وبذلك يكون القرآن جمع للرسول صفتى النبوة ورياسة الدولة.

٤ ـــ تقييد سلطة الحاكم:

جاءت الشريعة الإسلامية، من يوم نزولها، بنظرية تقييد سلطة الحاكم، فكانت أول شريعة قيدت سلطة الحكام، وحرمتهم حرية التصرف، وألزمتهم أن يحكموا فى حدود معينة، ليس لهم أن يتجاوزوها. وجعلتهم مسئولين عن عدوانهم وأخطائهم.

وتقوم النظرية على ثلاثة مبادىء أساسية: أولها: وضع حدود لسلطة الحاكم. ثانيها: مسئولية الحاكم عن

عدوانه وأخطائه. ثالثها: تخويل الأمة حق عزل الحاكم[1].

المبدأ الأول :

كان سلطان الحاكم قبل الإسلام على ماسبق به البيان مطلقا من غير قيد، إلى حد رفعه، أحيانا عند كثير من الأمم، إلى درجة الألوهية. يأتى، فى سلطانه مايشاء ويدع مايشاء دون حسيب.

وجاءت شريعة الإسلام فاستبدلت بهذه الأوضاع أوضاعا جديدة تتفق والكرامة الإنسانية، والحاجات الاجتماعية، فجعلت أساس العلاقة بين الحكام والمحكومين تحقيق مصلحة الجماعة، لاقوة الحاكم، ولا ضعف المحكومين، **فى حدود ماأنزل الله على رسوله**. وهو فيها فرد من الأمة، اختير لقيادتها، وعليه للأمة القيام بهذه الشريعة، وله على الأمة حقوق.. وهو فى أداء واجباته، واستيفاء حقوقه مقيد بالشريعة، وذلك لقوله تعالى:

---

١ ـــ عبد القادر عودة: التشريع الجنائى– مرجع سابق

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ سورة المائدة : ٤٩ .
وقوله : ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون﴾ سورة الجاثية : ١٨

المبدأ الثانى :

﴿ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ...﴾ سورة المائدة : ٦٧ ﴿قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم * ولا تكونن من المشركين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ سورة الأنعام : ١٤ — ١٥

﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ سورة يونس : ٩٥ .

﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ سورة يونس : ١٠٦

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ سورة هود : ١١٢

﴿ يأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ﴾
الأحزاب : ١
﴿ وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ الأحزاب : ٣٧
﴿ .. لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾
الزمر : ٦٥ — ٦٦
﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وماتأخر .. ﴾ الفتح : ١ — ٢
وكان ﷺ يقول مرات : « إنما أنا بشر مثلكم »
وخرج فى مرض موته يستبرىء الناس فى مالهم وأعراضهم وأبشارهم .

أهذا الدين يرمى بالكهانة ، ويقال : إن الحكم به يرد الناس إلى الحكم بالحق الإلهى ؟!
﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾

المبدأ الثالث : تخويل الأمة حق عزل الحكام :

التكييف القانونى لمبايعة المسلمين إمامهم : أنها عقد كسائر العقود :**الطرف الأول : الأمة** ، وهى ملتزمة بالسمع والطاعة . **الطرف الثانى : الحاكم** ، وهو ملتزم بامتثال الشريعة .

وقد بحث الأستاذ الدكتور « السنهورى » طبيعة عقد الإمامة فقال : إنه عقد طبيعى [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : لو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر إماما بذلك ، وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة ، الذين هم أهل القدرة والشوكة . وكذلك عمر لما عهد إليه أبو بكر إنما صار إماما لما بايعوه وأطاعوه ، وإن قدر أنهم لم ينفذوا عهد أبى بكر ، ولم يبايعوه لم يصر إماما ... وبمطاوعة ذوى الشوكة تم للبيعة القدرة والسلطان .

فالدين الحق لابد فيه من الكتاب الهادى، والسيف الناصر (١).

وينبنى على هذا التكييف القانونى أن الحاكم الذى يقوم بمهمته فى الحدود المقررة لها يجب له على الشعب السمع والطاعة. أما الحاكم الذى لايقوم بالتزاماته، أو يخرج على حدودها فليس له أن ينتظر من الشعب السمع والطاعة. وعليه هو أن ينتحى عن مركزه (٢).

قال ابن قتيبة: لما تمت البيعة لأبى بكر أقام ثلاثة أيام يقيل الناس ويستقيلهم، يقول: قد أقلتكم من بيعتى، هل من كاره؟ هل من مبغض؟ فيقوم علىّ فى أول الناس فيقول: والله لانقيلك، ولا نستقيلك أبداً (٣).

ولذلك لما أحس أبو بكر بغضب فاطمة؛ لمنازعتها فى ميراث النبى، اجتمع والناس وقال لهم: يبيت كل رجل منكم مسرورا بأهله، وتركتمونى وما أنا فيه، لاحاجة

---

١ ـ جـ ١ ص ١٤٢ طأولى بالمطبعة الأميرية – مرجع سابق

٢ ـ التشريع الجنائى جـ ١ ص ٤٤ – مرجع سابق

٣ ـ الأمانة والسياسة جـ ١ ص ١٤، ١٦

لى فى بيعتكم، أقيلونى بيعتى. قالوا ياخليفة رسول الله، إن هذا الأمر لايستقيم، وأنت أعلمنا بذلك، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين. فقال: والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة مابت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة (١)..

وقد فرض الشرع على الأمة الأمر بالمعروف، وأوجب عليها إزالة المنكر، وجعل النصيحة واجبة؛ ولذلك قال علماء المسلمين بجواز تقويم الحاكم بالقوة، إذا لم يجد القول. قال إمام الحرمين: إذا جار والى الوقت فظهر ظلمه وغشمه، ولم يَرْعَوِ لزاجر عن سوء صنيعه بالقول، **فلأهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه... (٢)**.

وقد أجمل الإمام: الشيخ محمد بخيت فى كتابه: حقيقة الإسلام وأصول الحكم الصادر سنة ١٩٢٦ سمات الحكومة الإسلامية فقال فى علاقة الحاكم بالمحكومين: إن

١ ـــ الإمامة والسياسة جـ١ صـ ١٤، ١٦
٢ ـــ شرح المقاصد جـ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - مرجع سابق

كتب الكلام ... كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والإمام إنما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد، وأن الإمام إنما هو وكيل الأمة، وإنهم هم الذين يولونه ملك السلطة، وإنهم يملكون خلعة وعزله. وشرطوا لذلك شروطا أخذوها من الأحاديث الصحيحة. وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب ...

وقال العقاد فى كتابه: الفلسفة القرآنية:

إذا وصفت الحكومة التى نص عليها القرآن الكريم بصفة من صفات الحكومة العصرية فهى الحكومة الديمقراطية فى أصلح أوضاعها؛ لأنها حكومة الشورى، والمساواة، ومنع السيطرة الفردية.. وجملة مايقال: إنها هى الحكومة لمصلحة المحكومين، لالمصلحة الحاكمين.. وطاعة الحاكم ماأطاع الله؛ فإن لم يطعه فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

٥ ــ قيود طاعة المسلمين لأولى الأمر منهم:

أ ــ ﴿ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا

دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون* واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة..﴾ سورة الأنفال: ٢٤ – ٢٥.

وفى عدم جواز انفراد الآحاد بالأعمال المتصلة بالدولة يقول: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم..﴾ سورة النساء: ٨٣.

٦ ــ إقرار القرآن لفكرة استمرار الدولة والسلطان بعد موت النبى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ سورة الحديد

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض..﴾ سورة النور

﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ سورة الحج

وهذه آيات مقصود بها المسلمون إطلاقا، وبدون تعيين زمن. وهذا يعنى أن ماأقره القرآن من فكرة الدولة والسلطان، وما قرره من غاياتها- مطلق وغير محدود بزمن، ومخوّل للمسلمين، وملزم لهم بإقامة الدولة والسلطان، وممارسة مختلف شئونهما، فى كل زمان ومكان وجدوا فيه.

وهذا المعنى منطو فى آيات عديدة أخرى. مثل:

﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى..﴾ سورة البقرة: ١٧٨

﴿ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب﴾ سورة البقرة: ١٧٩

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا..﴾ سورة البقرة: ١٩٠

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ سورة النساء: ٥٨

وكل هذا متصل بشئون الدولة والسلطان، ولا تتأتى ممارسته إلا فى نطاقهما، كما هو المتبادر.

وفى سورة آل عمران آية مهمة فى هذا الباب، هى هذه: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**﴾ سورة آل عمران: ١٤٤.

حيث حذرت المسلمين من الانحراف عن الطريق التى ساروا فيها تحت راية النبى بعد موته المحتمل، واختلال ماكان من نظام واجتماع من شمل تحت رئاسته. وبالتالى حيث احتوت حثا على متابعة الطريق التى ساروا فيها، والشئون التى مارسها، ومنها شئون الدولة والسلطان (١).

٧ ـ وحدة المسلمين فى نطاق الدولة:

أ ـ ﴿يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول

١ ـ أستاذنا د. محمد عبدالله العربى – مرجع سابق

وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ سورة الأنفال : ٢٧ — ٢٨ .

فخيانة المسلم للأمانة العامة خيانة لنفسه ، ولو كان ذلك بسبب أو حجة المال أو الولد .

ب — والشورى . وتقدم بحثها .

٨ — قيام بنيان الدولة على الرجل والمرأة :

أ — أجاب بيعتها ﴿يأأيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ سورة الممتحنة : ١٢

ب — كل ماخوطب به المؤمنون والمسلمون شامل للمرأة ، مالم يكن فيه دليل على التخصيص وهذا يدل على اعتبار القرآن لشخصية المرأة ، واستقلالها ، وأهليتها

للوجوب والأداء. وأكدته نصوص مثل ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**﴾ سورة النحل: ٩٧

﴿**لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**﴾ آل عمران: ١٩٥

٩ ــ صلات الدولة الإسلامية، والمسلمين، بغيرهم:

وقد عنى القرآن الكريم بهذا الموضوع عناية كبيرة، ورسم له ضوابط فى غاية الحكمة والروعة، والحق والإنصاف. فغير المسلمين إما أن يكونوا:

١ ــ أعداء للمسلمين، يحاربونهم، ويكيدون لهم، ويطعنون فى دينهم، ويصدون عن الدعوة إليه، وينقضون أيمانهم وعهودهم... وواجب المسلمين إزاءهم فى كثير من الآيات منها: ــ ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم..**﴾

سورة البقرة: ١٩٠

- ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ سورة البقرة: ١٩٣.

- ﴿.. فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم..﴾ سورة النساء: ٩١.

- ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون﴾ سورة الأنفال: ٥٥ - ٥٦.

٢ ـ أو معاهـــدين :

إما أن يكونوا معاهدين بدءا، أو بعد حرب، ثم قامت بينهم وبين المسلمين حالة عهد وسلام، فهؤلاء يوفى لهم بالعهد، ويستقام معهم على شروطه مااستقاموا.

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف،

وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ بسورة الأنفال : ٣٨

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ...﴾ سورة التوبة : ٤

٣ ــ وإما محايدين مسالمين :

﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ سورة النساء : ٩٠

٤ ــ وإما خاضعين :

وهم الذين رضوا العيش مع المنلمين ، وقاموا بأداء ضريبة دفاع المسلمين عنهم فهم من جهة مسالمون ، ومن جهة أخرى معاهدون ، فلهم ماللمسالمين والمعاهدين وعليهم ماعليهم . ولهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم .

من كل هذه الأدلة يستقر فى الوجدان أن الإسلام دين ودولة ، وهو مااستقرت عليه الفكرة الإسلامية منذ

أول عهدها بالإسلام. وهذا أيضا ماتأكد منه الكثير من المستشرقين، والباحثين الغربيين، الذين درسوا هذا الموضوع، وانتهوا إلى أن الإسلام دين ودولة، وأن الرسول ﷺ لم يكن رسولا فحسب، بل كان حاكما، ورئيسا للدولة أيضا.

ولعل فيما تقدم من أدلة من الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين أبلغ الرد على القائلين بأن الإسلام دين لادولة، وبوجوب فصل الدين عن الدولة، أو القول: لاسياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة(١).

ولا ضير على من يكتب اليوم عن الإسلام وحكومته أن يسمى سمات هذه الحكومة بالأسماء المستحدثة. وليس معنى ذلك أنها، لذلك، لم تكن معروفة فى الحكومة الإسلامية، فتلك شواهدها، وتلك حقائقها، كما سلف، ولا مشاحة فى الأسماء.

ولكن من الناس من لايؤمن ولو نزلت إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحُشر عليهم كل شىء قبلا.

---

١ ـــ نادية محمد عياد: بين الحاكم والرعية. رسالة دكتوراه لم تطبع. مرجع

مولانا الذى فى مصر الجديدة

يقول كاتب السقوط فى رده على الأستاذ خالد محمد خالد، الذى وضح معالم الحكومة الإسلامية ومنها أن الأمة مصدر السلطات، وحرية تعدد الأحزاب، وإصدار الصحف، واختيار أعضاء البرلمان، وحق نوابه فى المعارضة، وإسقاط الحكومة.. يقول كاتب السقوط: «فهى إجابة تحتمل القليل من التعجب، والكثير من الإعجاب: أما الإعجاب فبالرجل، وأما التعجب فمصدره أنه لايوجد نص دينى واحد فى القرآن أو السنة يؤكد صراحة على بند واحد من البنود السابقة. غير أن المنطق أن نقول: إنها روح الإسلام وليست شريعته، تلك الروح التى لاتناقض عدلا، ولا تنقض حقا... وطرح الأمر بهذه الصورة ينشىء مأزقا، ويطرح

تساؤلا ، ويدفع إلى دعاء: أما المأزق.فيتمثل فى خروج نظم حكم مجاورة... وأما التساؤل فعن الإصرار على نعت المبادىء السابقة بمسمى إسلامى ، وهى مبادىء إن التقت مع روح الإسلام وجوهره فإنها بالقطع نشأت فى غير دياره، وتسمت بغير مسمياته...

وأقول: إنه ردّ يحتمل الكثير من التعجب والقليل من الإعجاب: أما التعجب فمن نفيه مالا علم له به، والمنطق والعقل يقول: عدم العلم بالشىء لايعنى العلم بعدم وجوده. فقد كان الأحرى بموقفه أن يسأل عن النصوص. وقد سلف بها الذكر والتفصيل.

وعلى سبيل التسليم الجدلى بأنه (لايوجد نص واحد فى قرآن أو سنة) فسيدنا الشيخ فرج، العليم بالقرآن والسنة، على هذا النحو الشامل، ويرى أن هذه الصفات للحكومة الإسلامية تتفق وروح الإسلام- يعلم، بحكم إحاطته بالقرآن والسنة، وتاريخ الإسلام، ومبادىء التشريع- يعلم أن من (سياسة الإسلام) مايتفق

وروحه . وأرجوه أن يرجع إلى ما لا حاجة له فيه ، لمنزلته من علوم القرآن والسنة– إلى بحث (سياسة الإسلام) الذى سبق ، وإلى وثيقة الرسول التى وضعها دستوراً للمدينة .

وأما الاعجاب ، فإنه الاعجاب المعكوس برجل له مثل هذه الجرأة (العلمية) التى تمنحه هذا التعميم المؤكد ، الذى يتحرّز منه العلماء ، الذين يتحرجون من إبداء الرأى ، أو معارضته بغير دليل ، ويحرصون على إبراء الذمة فى كل قول يأخذون بهٖ ، أو ينقدونه !!

* * *

الشـــــكل

ومثل هذا فى التعجب والإعجاب دعوة صاحب السقوط دعاة الإسلام إلى : (وضع برنامج للحكم، بل إلى ماهو أهون: وهو شكل نظام الحكم فى الإسلام، وأسلوب تولية الحاكم، هل يتم بالانتخاب كما تولى أبو بكر؟ أو بالاستخلاف كعمر، أو بالاختيار من مجموعة كعثمان، أو بيعة أغلب الأمصار كعلى، أو بالغلبة كمعاوية، أو بالوراثة كيزيد.. فهم إن رفضوا كل ماسبق واستبدلوه بشكل حديث (يقصد: استبدلوا به شكلا حديثا)— أثبتوا على أنفسهم أن أسلوب اختيار الحاكم ليس له قاعدة إسلامية تتصل بالصدر الأول للإسلام، وأفقدوا نظام الحكم الدينى ركنا جوهريا من أركانه. وهم إن اختاروا شكلا من الأشكال السابقة

لاختج البعض مناصراً شكلا آخر ينطبق على أحد الخلفاء الراشدين... وفى كل من الحالين يصعب أن تحصل منهم على رد مقنع صـ٧٦-٧٧.

ويقول فى رده على الأستاذ خالد محمد خالد فى أهرام ١/٧/١٩٨٥م:... نتساءل: هل الدولة الإسلامية جزء من العقيدة فيصبح أحد الطرفين خارجا عن صحيح الدين.. أم أنها لزوم مالا يلزم فنتردد أمام مقولة: الدين والدولة؟

وأقول :

أما من حيث البرنامج والأسس والخصائص فأرجو أن يكون فيما سبق بيان كاشف عن معالم الدولة الاسلامية، كما تضمنها القرآن والسنة.

وبدهى أننى لم أستقص. فما زال فى مدلولات القرآن، وبرامج السنة الكثير من ذلك يرشد إليه الرجوع إلى أبواب الولاية، والأقضية، والأحكام فى كتب السنة وشروحها.

وبدهى ، أيضا ، أننى لاأدعى أن مافصلت أو أجملت هو غاية الغايات ؛ فذلك أمر أعرف قدره ، وقدرى من قدره . له رجالاته ، وهم – بحمد الله كثير ، من علماء الدين ، وغيرهم من علماء المسلمين .

وأما من حيث (شكل نظام الحكم) وأسلوب تولية الحاكم ، فأعود ههنا لأذكّر بما هو : دين ، وماهو سياسة الدين ، وماهو سياسة ، وما أوضحت من اتساع نطاق العقل والتجربة كلما انتقلنا من دائرة الدين ، إلى سياسة الدين ، إلى السياسة الإسلامية . وأن ذلك أمر مقصود للشارع ، لما يحقق للمبادىء البقاء ويحقق للإنسان المصلحة والتطور . وفى ذلك : عموم الإسلام وخلوده ، وكرامة الإنسان ، كما فيه خصيصة من خصائص الإسلام .

وكل ذلك سبق توضيحه . غير أن مايجب التنبيه عليه هو عناية الإسلام بتحقيق المبادىء ، فمهما تحققت فلا ضير فى الشكل ، ومهما فقدت فلا نفع فيه .

فترديد أن (أسلوب تولية الحاكم) إن كان على غير ماكان عليه الصدر الأول يفقد ركنا أساسيا من أركان الحكم الديني... - هذا الترديد فيه غفلة عن حقيقة الفواصل بين هذه الأمور الثلاثة؛ إذ أسلوب تولى الحاكم من السياسة التى ترك الإسلام (شكلها) لاختيار المسلمين بحسب أحوالهم، وتغير ظروفهم، وتغير هذا (الشكل) فى عصر الراشدين دليل على ذلك. فالخروج عليه إلى مايناسب الزمان والحال ليس خروجا على (ركن جوهرى من أركان الحكم الدينى) كما أن الرجوع إلى بعضه - إذا كانت المصلحة فيه - ليس (ردة سلفية) تستلزم العراك حولها.

ومن هنا لايستلزم النظام الإسلامى أن يظل المسجد - كما زعم الكاتب - صـ٤٥ على عهده أيام الرسول. وما قال ذلك أحد من علمائه، ولن يقول. لكن ليس معنى هذا أن تقتصر رسالة المسجد على الوجدانات التى يصر كاتب السقوط على حصر الإسلام فيها. ..

وكذلك هذا (السَّبْر والتقسيم) والترديد بين هل الدولة الإسلامية جزء من العقيدة، أم أنها لزوم مالا يلزم؟

فالدولة الإسلامية، قطعا، ليست جزءا من العقيدة، ولكنها جزء رئيس من (سياسة الدين وشريعته) لاتتم هذه السياسة إلا بإقامتها، ولا تحفظ العقيدة إلا بها، فهي واجبة وجوب الوسائل لتحقيق المقاصد التى لاتتم إلا بها.

وتعدد صورها، الذى يتخذ منه كاتب السقوط وسيلة للكر والفر، وابداع فريد إذا نظر إليه فى زمانه. وسبق معجز إذا نظر إليه فى زماننا:

أما فى زمانه، فقد سبق لهذا البحث أن أعطى صورة مجملة عن حال الدنيا قبل الإسلام بان منها مدى النقلة الكبرى التي أحدثها الإسلام فى البشرية، والتى كان منها اختيار الأمة لحاكمها، بعد أن كان فى الأمم قبل الإسلام مفروضا على الشعب، باعتباره من معطيات الطبيعة مثل

الشمس والهواء، وأن الله هو الذى اختاره، وأودعه السلطة. ومن ثم لم يكن لبنى البشر مناقشة حكامهم، أو البحث فى أساس سلطاتهم(١).

وأما فى زماننا: فإنه لم يعرف نظم الاختيار، التى تحققت فى الإسلام إلا بعده بأحد عشر قرنا، فى النظام الإنجليزى فى القرن السابع عشر، وقانون الولايات المتحدة بعد منتصف القرن الثامن عشر. أما القانون الفرنسى فلم يعرف الاختيار والشورى إلا فى آخر القرن الثامن عشر.

ومع ذلك، فما زال العالم اليوم يعرف- مع النظام الديمقراطى- النظام (المطلق) الذى يحول دون تدخل المحكومين فى اختيار حكامهم. ومنه نظام الوراثة، الذى يعد أقدم النظم فى إسناد الحكم، وأخطرها. والذى مازال يجد تبريره فى قياسه على توزيث الأموال، ودعوى

---

١ ــ سليمان عبد الهادى الطنطاوى: رسالة ماجستير لم تطبع- مرجع سابق

الاستقرار، وسهولة انتقال السلطة، وتوفيرالوقت، والجهد، والمال. والذى مازال يحتفظ فيه (الملوك) بمجموعة من الحقوق لم تستردها الشعوب بعد تسمى: (امتيازات التاج. كذلك تقرر الدساتير الملكية عادة (أن ذات الملك مصونة لاتمس)، فلا يسأل أية مسئولية سياسية أو جنائية، حتى لو كانت الخيانة العظمى[1].

ومن صور النظام المطلق اليوم أيضا (الاختيار الواقعى) كما يحدث فى الاستيلاء على السلطة بالقوة.

وفى العالم اليوم أيضا النظام (المختلط) الذى يجمع فى طياته بين الأساليب المطلقة والديمقراطية.

ومع ذلك تتعدد أساليب أى من هذه الطرق من دولة إلى أخرى.

وكما لم يسلم النظام المطلق بصوره المتعددة، من النقد، لم تسلم النظم الديمقراطية فى أحدث صورها من

١ ــ د. محمد حلمى مصطفى: نظام الحكم الإسلام. د. نادية محمد عياد- مرجع سابق

نقد مرير، يكشف عن عوراتها، يوجهه إليها ذوو الاختصاص، الذين مايزالون يبحثون عن الجديد.

وقد آن الأوان لحكام الدول الإسلامية أن يتحملوا مسئولياتهم أمام الله، ثم أمام رعاياهم، وأن يجدوا - فى الإسلام وسياسته، وتجارب الحياة - حلا لهذا الشتات الواقع ويتفقوا على صيغة ونظام تعود به للمسلمين وحدتهم، وليكن القائم على هذا النظام أيما كان، وليسم هذا النظام أى اسم، مادام يتفق وشريعة الإسلام وروحه. المهم أن يكون هذا النظام قائما على قواعد الإسلام الأساسية فى نظام الحكم، مطبقا لمنهجه...

وإن هذا لسهل ويسير إن خلصت النوايا، واتحدت الهمم لإقامة دولة الاسلام التى تحكم بقانون الله. الدولة المثالية الواقعية(١).

* * *

---

١ ـــ د . نادية محمد عياد - مرجع سابق

حياة الصحـــابة

أراد صاحب السقوط أن يشوه حياة الصحابة، وعصر الراشدين، فإذا ماتم له، بكلامه، إسقاطه من سماء التقدير فقد مَهّد لنفسه الطريق إلى غايته وهي: استبعاد الإسلام عن الحكم.

لم يجد مبتغاه فى عهد الصديق، فهُرِع إلى خبر مجهول، من مجهول، عن موت الصديق مسموما، حين طعم (حريرة) مع الحارث بن كلدة، وأنه ظل عليلا بالسم سنة! (صـ١٤).

مدة خلافة الصديق سنتان وثلاثة أشهر:

أنفذ جيش أسامة لإزعاج دولة الروم عن حدود الجزيرة. وما أخطره من عمل.

وقضى على الردة. وما كان أخطرها وأشدها لمن يعلم.

وأفاء إلى الإسلام مانعى الزكاة. وما كان أعقدها لمن خبر.

وزعزع ملك كسرى وقيصر، وجيش لهما الجيوش، وأمدها بالأمداد، وتابع الهزائم والانتصارات، ونقل المعارك من مكان إلى مكان... وكل ذلك كالمعجزات.

وجمع المصحف. وما أجله وأدقه من عمل.

وتكفيه واحدة: أنه رد المسلمين إلى عقولهم بعد ذهولهم لسماع خبر موت الرسول، ويالها من فجيعة، قال أنس: خطبنا أبو بكر عقب وفاة النبى ﷺ وإنّا لكالثعالب، فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود.

وظل عليلا سنة، فيما يختاره، ويرجحه صاحب السقوط، فيكون الصديق قد حقق هذه العظائم فى سنة وبضعة أشهر.

ولا عجب، مادام ذلك يرضى صاحب السقوط، الذى يرى (أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة، وإنما على بشر مثلنا).

فليترك من أجله كل يقين من البرهان، وكل حق من الأعمال، وكل عظيم من أثر الإسلام فى تكوين الرجال، لأن كل هذه الآيات البينات لاتساعده على غرضه، وتقفه حائلا دون مبتغاه. فليترك اليقين إلى الشك، والحق إلى الباطل، والعظائم إلى الصغائر - مادام ذلك يوصل إلى الهدف.

وليصغر (ماكيا فلى) أمام د. فوده. وليسقط كتابه (الأمير) أمام كتابه (قبل السقوط).

إن حقائق التاريخ لاتعالج بالواهيات، ولا بالتخمينات، (ارفع يدك ياخليفة رسول الله... إن فيها لسم سنة، وأنا وأنت نموت فى يوم واحد... فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة) هكذا: فى يوم واحد بالضبط الدقيق!

علم بذلك ابن كلدة والصديق !
علما أجلهما قبل موعده بسنة !

لقد فات الراوى أن يحدد الساعة والثانية! أو لعله تجاوز ذلك! فياله من علام للغيوب!

وتجد هذه الرواية من ينتفيها ويبنى عليها أحكاما كلية قاطعة!

فاللهم لا تطمس على أعيننا لنستبق الصراط المستقيم.
واللهم لاتزغ قلوبنا لنرى الحق القويم!
واللهم عياذا بك من كل قصر فى العلم والدين باعه،
وطال فى الجهل وأذى عبادك ذراعه!

لقد سمّت يهودية ذراع شاة لمحمد ﷺ، وأخذ الرسول منها مُضغة، وعاش يأتيه أثرها أحيانا، وما درى يوم موته منذ غزوة خيبر، حيث قامت اليهودية بجريمتها فى السنة السادسة، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة لتمام عشر سنين من هجرته. عاش ولم يعلم دنوّ أجله إلا بعد أن نزلت عليه سورة النصر. فلما مرض

مرض موته قال لعائشة: مازلت أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر، مازالت تلك الأكلة تعاودنى، فهذا أوان قطعت أَبْهَرِى. كل ذلك وأهله، والمسلمون لايعلمون يومه. ولكن ابن كلدة، وكاتب السقوط يعلمان يوم أبى بكر! ولله فى خلقه شئون!

قال الدكتور محمد حسين هيكل، بعد أن خلص من تفصيل أعمال الصديق: أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! فى سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة، وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة، عزيزة الجانب، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم، وتوجهان حضارته؛ لتنهض بعبء الحضارة فى العالم قرونا بعد ذلك.

هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضى من أبى بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة... وقد تخطى الستين يوم بويع.. عجلت عظمة المجهود، وتقدّم السن وفاة الخليفة الأول. وإن جرت رواية فى تعليل

وفاته بأن اليهود دسّوا له السم فى طعام تناول منه عتاب بن أسيد معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيمات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ؛ ولذلك مات عتاب بمكة فى اليوم الذى قبض فيه أبو بكر بالمدينة. وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة، ومما يزيد تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود فى خلافته نزاع، وأن اليهود جلوا منذ عهد الرسول عن المدينة . والرواية الراجحة فى مرض أبى بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة، وإلى ابنه عبد الرحمن قالا : كان أول مابدأ مرض أبو بكر أنه اغتسل فى يوم بارد فحُمَّ خمسة عشر يوما لايخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس(١) .

ثم لنسلم– جدلا– بصحة الرواية. فهل تنتهى إلى مايريده كاتب السقوط من ترك حكومة الإسلام؟ إذن فلنترك الإسلام كله دينا ودنيا ؛ لأن اليهودية سمت الطعام

---

١ ـــ الصديق أبو بكر ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ط الأولى

للرسول ﷺ على يقين؟

أى منطق هذا ؟

مرة أخرى، ويحكم! مالكم؟ كيف تحكمون؟!

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزى الله الشاكرين﴾
سورة آل عمران : ١٤٤

وعلى هذا النهج — من ضعف الرابطة بين المقدمات والنتائج، وتحسس الثغرات، وابتداع العيب، والطيران فرحا بالريب — يسير كاتب السقوط من عهد الصديق لينظر فى عهد عمر، فلا يجد إلا عدله، الذى تحدثت به الدنيا، وكان مثار عجب العالمين، وإعجابهم، فليأت إليه كاتب السقوط من أى جانب، ولو كان العدل نفسه.

أى والله عدل عمر :

عدل عمر الذى لم يحقق له — فى رأى السقوط —

الأمان، وانتهى إلى قتله بيد مجوسى (مثبتا أن مافعله عمر إنما كان قصوراً فى إجراءات الأمن، وأن العدل ليس دائما وسيلة الأمان... والحركة دون حراسة أمر لايصلح نموذجا لحاكم... وكل ذلك فى أزهى عصور الإسلام إسلاما، وأكثرها اقترابا من أصول العقيدة، ورسوخا لمبادئها صـ١٣ - ١٥).

فليسقط العدل؛ لأنه لم (يحقق الأمن الذى يقود إلى الأمان)!

بل لتسقط عقيدة الإسلام نفسها؛ لأن (اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين، وظن اغتيال الخليفة الرابع، كل ذلك قبل أن تمر ثلاثة عقود على وفاة الرسول، وكل ذلك أيضا فى أزهى عصور الإسلام، وأكثرها اقترابا من أصول العقيدة ورسوخها) والتى كان من (سخريات القدر فيها، ومفارقاته - أن عبيدالله بن عمر قتل ثلاثة ظن بهم التآمر على قتل أبيه) - كل ذلك شاهد قاطع على أن عقيدة الإسلام لم تثمر ثمرا، ولم تؤت أكلا!!

إذن، فلنترك حكم الإسلام، بل وعقيدته. وهو المطلوب

لا أريد أن أقول: كيف تُركت عظمة الحكم الإسلامى، ونظامه، فى اقتراب الحاكم من المحكومين، الذى لم تعرفه الدنيا قبله، مما أذهل (الهرمزان)، وهو الخبير، يومئذ، بنظام الدنيا، فقال مقالته تلك. عدلت فأمنت فنمت! ثم تآمر على قتل عمر

ولا أريد أن أقول: إن الدنيا قد تتحدث عن ملكة انجلترا وهى تنزل تشترى بنفسها بعض حاجاتها.

وتحدثت عن عطل سيارتها فى الطريق، ونزولها منفردة، لاحاشية معها- مائتى متر، إلى أن وجدت (تلفون) تخبر به خبرها.

ولا أتحدث عن الأميرة (آن) وهى تشترك دون حراسة فى حلبات السباق؛ لتجعل دخلها فى الخدمات الاجتماعية.

لا أريد أن أتحدث عن ذلك؛ لأن الكاتب السقوطيّ سوف يجعله من فضائل الحكم المدنى. بينما يجعل عدل عمر من نقائض الحكم الدينى وسياسته!.

ولا أريد أن أتحدث عن الحكم الفقهى فى قتل الجماعة بالواحد(١).

ولا أريد أن أتحدث أن عثمان سلّم ابن عمر إلى أولياءَ (الهرمزان) ليقتلوه به، ولكنهم، بعد تسلمه، أبوا؛ لما رأوا من عدل الإسلام، وتسويته بين الناس جميعا فى الأحكام، وجعلهم سواسية أمام القانون، وهو مالم يكن فى بلادهم.

ولا أريد أن أتحدث عن المؤامرات القيصرية، والكسروية، واليهودية، التى تزعمها (عبدالله بن سبأ) لمحاولة القضاء على الإسلام.

لا أريد أن أتحدث عن كل ذلك. إنما أريد أن أنبه على

---

١ ـــ على أن عبيد الله لم يقتل سوى «الهرمزان». وهو مدبر قتل الإمام؛ ولهذا الجرم حكمه. منهاج السنة جـ ٣ ص ١١٩ ـــ ٢٠٢

الخلط بين ماهو من الدين وسياسته، وبين ماهو سياسة يجتهد فيها أصحابها، والتى لايصح – عند الفهم – أن ندعو إلى ترك مبادئها وأصولها؛ لما قد يترتب عليها من نتائج ليست لازمة لتلك المبادىء والأصول.

كما لا يصح أن نحكم على سياسة مّا، فى زمانها، بأحكام أحوال وزمان غير زمانها؛ فنقول: (إنها أمر لايصلح نموذجا لحاكم إلا أن يكون من هواة الاستشهاد).

العدل مبدأ من أسس الحكم الإسلامى.

أما كيف يحمى الحاكم نفسه، فأمر من السياسة الصرف، يسوسه بما يناسب الحال.

وقد كان الرسول يسير فى حراسة إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ سورة المائدة: ٦٧.

وقد اتخذ معاوية حرس الليل، وأمر بقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. وكان أول من عمل ذلك فى الإسلام.

وحين دخل عمر الشام، ورأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

وكان معاوية تلقاه فى موكب عظيم، فلما دنا منه قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين. قال: مع مايبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال معاوية: مع مايبلغك من ذلك. قال عمر: ولم تفعل هذا؟ قال معاوية: نحن بأرضٍ جواسيس العدو بها كثيرة؛ فيجب أن نظهر من عز السلطان مانرهبهم به. فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت. فقال عمر: لئن كان ماقلت حقا إنه لرأى أريب، وإن كان باطلا، إنه لخدعة أديب. فقال معاوية: فمرنى ياأمير المؤمنين، قال عمر: لا آمرك ولا أنهاك.

وكان إلى جانبهما عبد الرحمن بن عوف، فقال ياأمير المؤمنين: ماأحسن ماصدر الفتى عما أوردْته فيه. فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشّمناه ماجشمناه!

اتخذ معاوية الحراسة فما خرج عن الإسلام.

ولم يتخذها عمر، فما خرج عن الإسلام.

ولم يتخذها عثمان ولا على– رغم قتل عمر؛ لأن العدل كان محققا، والأمن كان غالبا، رغم الفتنة!

وتتخذ فى أيامنا الحراسة، على صورة أشبه بالصياصى والقلاع، فما منعت قتلا، وما حققت أمنا!.

ولا ضير، فليس زماننا هو مقصودَ الكاتب السقوطى بالذم.

إنما عهد الراشدين !!

وخلاه ذم !!

ولنختتم الحديث عن عصر الشيخين بشهادة معاصر شاهَدَ وخَبَر:

خطب معاوية الناس فقال: أيها الناس، والله لثقل الجبال الراسيات أيسر من اتباع أبى بكر وعمر فى سيرتهما، ولكنى سالك بكم طريقا تقصر عمن تقدمنى، ولا يدركنى فيها مَن بعدى.

يقول كاتب السقوط بفيه إنه يقدِّر الراشدين، ويتظاهر بمعرفة قدرهم: (أتحرز فيما أكتب عن سيرة الخلفاء بعبارة: بعد الراشدين؛ خوفا من أن يلتصق بهم رذاذ مارتكبه من تلاهم من الخلفاء.

ثم يطعنهم (بشجاعة) من الخلف إذ يقول: (الأمر المؤكد أن نظرية الحكم بالحق الإلهى تجد تأصيلا قويا فى مقولة الخليفة عثمان، حين طلب منه الثائرون أن يعتزل الخلافة؛ فأجابهم بالعبارة التى أصلت تصور الحكم بالحق الالهى **عند من تلاه**: (لا والله إنى لن أنزع رداء سربلنيه الله) وهى العبارة التى وضعت **الفكر السياسى الإسلامى كله** عند مفترق طرق بين أغلبية تأخذ برأى عثمان، فى أن الله هو الذى يولى الخليفة. ومن ثم فلا حق للرعية فى نزع الإمام من مكان رفعه الله إليه. وأقلية ترى الأمة مصدر السلطات وهو الرأى الذى تبناه المعتزلة فيما بعد ولعل فى تسميتهم بالمعتزلة دليلا على موقف الدولة الإسلامية منهم، وموقفهم منها. اهـ صـ٧٩ - ٧٠).

وهكذا فهم صاحب السقوط، أو هوى أن يفهم،

من كلمة عثمان مالم يفهمه المسلمون على مدى عصورهم. وفيهم الصحابة الذين نقدوه، وعارضوه، بل وعابوا عليه بعض ماعمل. !!

لقد كان هذا الفهم الذى ورثه صاحب السقوط من الجاهلية الأولى، ويحاول رمى الحكم الإسلامى به - كان مما حاربه الإسلام، وعارضه، وحذّر منه:

﴿يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ سورة الأحزاب: ٦٦ - ٦٧

وحرّم القول على الله بغير علم:

﴿أتقولون علىَ الله مالا تعلمون﴾ سورة الأعراف: ٢٨

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ سورة الأنعام: ١٤٤

وحق التحريم والتحليل، حذرهم من أن يجعلوه لغير

الله، كما فعل من سبق :

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ..﴾
سورة التوبة : ٣١

﴿قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾
سورة يونس : ٥٩ .

أفأمّة هذا دينها، ودستورها يقال إنها ترى أن الله هو الذى يختار حاكمها ويولّيه؟! وأنها لاحق لها فى نزعه!!

ومن الذى أصل ذلك ؟

عثمان !!

وتبعه مَن بعده !

وأغلب الأمة !!

هكذا فى جزم يتحرّز منه العلماء، شأنه فى كل ماكتب .

لماذا، إذن، ثار عليه الثائرون، مادام الله هو الذى

ولاه؟

ولماذا نقموا منه أمورا أيدهم فيها عدد من الصحابة؟

ولماذا أجاب عثمان الناقمين فأزال كل مانقموه منه: فعزل من طلبوا عزله، وأن تعطى مفاتيح بيت المال لمن يرتضونه، وألا يُعطى أحد من المال إلا بمشورة الصحابة ورضاهم. ولم يُبق لهم طلبا؛ ولهذا قالت عائشة: مصصتموه كما يمص الثوب، ثم عمدتم إليه فقتلتموه[1].

كيف يتفق كل ذلك وزعْم أنه أصل نظرية الحكم بالحق الإلهى؟

ولماذا لم يذكر الكاتب السقوطى هذه الحقائق؟

بل لماذا لم يذكر كيف تولى عثمان وكيف انتهى؟

نعلم عن يقين، لاعن تحريف، من الذى ولاه.

لقد بذل من استخلفهم عمر على الشورى فى اختيار

---

١ ــ منهاج السنة جـ ٣ ص ١٩٠

الخليفة كل مافى وسعهم ليتم هذا الإختيار برضا الناس، حتى العامة منهم. حتى كان عبد الرحمن بن عوف يتلقى الناس فى أنقاب المدينة ملثما لايعرفه أحد، فما ترك أحدا من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من ضعاف الناس ورعاعهم إلا سأله واستشاره. أما أهل الرأى فأتاهم مستشيرا، وتلقّى غيرهم سائلا، يقول: من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يلق أحدا يستشيره ولا يسأله إلا ويقول: عثمان (1).

ولما حوصر عثمان أبى أن يقاتل، وأبى أن يدفع عنه أحد، وقال لغلمانه: من ألقى السلاح فهو حر. وجاءه الحسن بن على، وقال له: أنت إمام القوم، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم؛ فقال له عثمان: ياابن أخى ارجع واجلس فى بيتك، حتى يأتى الله بأمره، فلا حاجة لنا فى إهراق الدماء(2).

---

١ ـــ الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٢٦

٢ ـــ كشف المحجوب للهجويرى. ترجمة د. سعاد عبد الهادى قنديل جـ ١ ص ٢٧٢

قال فى منهاج السنة[1]: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس على من نال من عرضه، وعلى من سعى فى دمه، فحاصروه، وسعوا فى قتله، وقد عرف إرادتهم لقتله. وقد جاءه المسلمون من كل ناحية ينصرونه، ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من يطيعه ألا يقاتلهم. وقيل له: تذهب إلى مكة؟ فقال: لا أكون ممن ألحد فى الحرم. فقيل له: تذهب إلى الشام؟ فقال: لاأفارق دار هجرتى.. فقيل له: فقاتلهم. فقال: لاأكون أول من خلف محمدا فى أمته بالسيف.

أفيقال عمن وُلِّى الأمر بهذا الاستقصاء فى مشورة الناس، واستطلاع رأيهم، ومن كف عن قتل الثائرين عليه، ولو أراد لغضبت له سيوف مُصمِّمات- أنه أصل الحكم الإلهي؟!

وأما قولته (لاأنزع رداء..) فإنها كلمة مؤمن عظيم

---

٤ ـــ جـ ٣ ص ٢٠٢ - ٢٠٣

الثقة فى الله. أبى عليه إيمانه، وحرصه على الأمة حاضرا ومستقبلا أن يستجيب للغوغاء والرعاع، الذين استهوتهم فتنة ابن سبأ، فأشعلوا هذا الشغْب على عثمان، والخروج على علىّ، واستبقوا السلاح يوم الجمل لما سمعوا عليا يخبر الزبير بالبحث عن قتلة عثمان عندما يستقر الأمر ... — أبى عثمان أن يستجيب لهؤلاء الرعاع فتكون سنة سالفة لكل من يشغب على الحق والنظام، ولم تكن — كما زعم صاحب السقوط — بمعنى أن الله هو الذى يولى الحاكم، فيفعل الحاكم ماشاء، وليس على الرعية إلا الإصغاء! إنما معناها: أنهم يطلبون لأنفسهم ماليس لهم بحق.

والمسلم عندما يسند فعلا إلى الله إنما يؤمن بالمشيئة العامة لله سبحانه، التى تسيطر على الوجود، والتى لاتتعارض، فى دين المسلم وعقله ووجدانه من فريضة الشريعة فى القيام بالأسباب المعنوية والمادية. وليس معناها التفويض المطلق، ولا السلبية الناعسة، ولا الجبرية المعارضة للتكليف الشرعى.

إنها المشيئة التي يهمزها ويلزمها كاتب السقوط، فلا يرى إلا أن تفسر الوقائع الاقتصادية، والهزائم والانتصارات العسكرية – تفسيراً ماديا بحتا (إن أحداً لم يتنبه حين اندفعت الأقلام بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مصورة ماحدث وكأنه انتصار أتى من السماء على مؤمنين صادقين هتفوا بأن الله أكبر.. صـ ١١٢).

هذا هو فهم المسلمين لمنصب الإمامة، يفصّله ماسلف في موضوع الشورى، وموضوع الدولة. ويجمله إباء أبي بكر أن يقال له: خليفة الله، وقال: بل أنا خليفة رسول الله وحسبي ذاك(١).

ويأباه قول أبي بكر عن نفسه: إن لي شيطانا...

وتأباه خطبة أبي بكر عندما ولي الخلافة، وألقى بيان حكومته (بيان الثقة) وقال: إني وليت عليكم ولست بخيركم.. إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني..)

والعجب من كاتب السقوط إذ يغفل هذا المنهج

---

١ ــ منهاج السنة جـ ١ ص ١٣٨

البديع على دنيا الناس فى زمانه، المعجب المونق للناس فى زماننا- لايذكره؛ لأنه لايساعده على هواه ويذكر خطبة المنصور، لما يجد فيها مما يهوى.

ويأباه قول عمر لكاتبه وقد كتب بين يدى عمر: هذا ماأرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال له عمر: لا، امحه واكتب: هذا مارأى عمر بن الخطاب؛ فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء[1].

ويأباه أن ماحدث من قتال لم يكن لقاعدة دينية، ولا على قاعدة من قواعد الإمامة، ولم يكن أحد يقاتل طعنا فى إمامة أحد، حتى معاوية نفسه لم يكن يَدَّعِ لنفسه الإمامة، ولا قال إنه يقاتل عليا لأن إمامته غير صحيحة، أو لأن الله لم يختره، ولا قال أحد من الصحابة الذين نصروا عليا إن الله ولاه واختاره، حتى ولا أن الرسول ﷺ نص على إمامته، ولم يقل أحد من المقتتلين: إن معه

---

١ ــ مدارج السالكين جـ ١ ص ٤٠

نصا دينيا يؤيده. فلم يقتتل المسلمون على قاعدة من قواعد الإسلام، بل لم يختلفوا مجرد اختلاف على قاعدة من قواعده.

فدعوى أن عثمان أصّل نظرية الحكم الإلهي دعوى كاذبة، ظاهرة الكذب، يُعرف كذبها بأدنى تأمل، مع العلم بمبادىء الإسلام وسياسته الشرعية، وبما وقع من المسلمين فى الصدر الأول من التشاور على اختيار الخليفة.

ثم بما كان بعد الصدرِ الأول: فمعاوية أخذ البيعة ليزيد ابنه.

ومعاوية بن يزيد لما استخلفه أبوه يزيد بن معاوية لبث شهرين وليالى محجوبا لايرى. ثم خرج بعد ذلك، فجمع الناس ثم قال: أيها الناس، إنى نظرت بعدكم فيما صار إلىّ من أمركم، وقُلّدته من ولايتكم؛ فوجدت ذلك لايسعنى فيما بينى وبين ربى أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير منى، وأحقهم بذلك، وأقوى على ماقُلّدته؛

فاختاروا منى إحدى خصلتين: إما أن أخرج منها، وأستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعا، ولكم علىّ ألا آلوكم نصحا فى الدين والدنيا، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها.

وفى عهد الرشيد، لما رغب أهل أفريقيا عن (محمد بن مقاتل) نصّب عليهم (إبراهيم بن الأغلب) استجابة لطلب أهلها. **ولم يبرم الرشيد الأمر إلا بعد أن استشار أصحابه**، وعلم أن إبراهيم يصلح للقيام بالولاية وضبط الأمور[1].

والمؤرخون يعرفون أن الذى أدخل مقولة (الاختيار الإلهى فى تاريخ المسلمين هم الفرس، تأثرا بوثنية دياناتهم القديمة، وأن هذه المقولة تأباها العقلية الإسلامية فى فهم وظيفة الحاكم[2].

---

١ ــ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٩٦. راجع أستاذنا عبد الفتاح السرنجاوى: الخلافة العباسية

٢ ــ د. مصطفى الرافعى: الإسلام نظام إنسانى – مرجع سابق

وكان ذلك من وسائلهم لتحويل السلطان إليهم ، ولعل (جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى) وزير الرشيد ، إنما أشار على الرشيد بالعهد إلى ابنه المأمون ، بعد أن عهد إلى الأمين ؛ لأنه كان يرمى إلى سياسة بعيدة المدى ، هى أن تكون بين الأخوين حرب تمزق الوحدة العربية ، وتنتهى بظهور الفرس ، على حساب ضعف الخلافة (١) .

هذا ، ولكن كاتب السقوط يأبى عليه (حياده العلمى) ذكر الحقائق والحق ، وما يذكره من ذلك يحرفه من بعد مواضعه ، ويتلمس للباطل صورة من صور الحق !

وأكذب من هذه القضية : قضية تأسيس عثمان لنظرية الحكم الإلهى - الزعم بأن هذه النظرية كانت رأى الأغلبية .

وتلك مواقف المسلمين ، وتلك أقوال علمائهم التى سلف الكثير منها ، تشهد بغير مازعم . وكاتب السقوط

١ ـــ أستاذنا عبد الفتاح السرنجاوى - مرجع سابق صـ ١١

نفسه زعم أن البيعة كانت (غالبا) تؤخذ بحد السيف. وهو يناقض دعوى الأغلبية فى الحكم الإلهى.

ومن الوقائع الشاهدة أن الحسين خرج، ومعه، بالفعل أو بالقوة (على حد تعبير الفلسفة) أكثر المسلمين على ولاية يزيد. تلك الكثرة التى عبّر عنها الفرزدق حين قال للحسين: تركت الناس قلوبهم معك، وسيوفهم عليك.

وخرج عبدالله بن الزبير على أمراء بنى أمية، من ولاية يزيد، ومَن بعده. وأيد عبدالله بن الزبير على ذلك، وبايعه، أهل العراقين، والحجاز، ومصر. ولو كان غدارا، وسياسيا مخادعا، ومشتريا التأييد بالمال.. لتم له الأمر.

ولما بويع لعبد الملك بالشام، ولم يختلف عليه أحد من أهلها، ولم يختلف عليه أحد من قريش- أرسل (حبيش بن دلجة القيسى) إلى أهل المدينة لأخذ بيعتهم فقال لعبد الله بن عمر: تبايع لعبد الملك؟ قال ابن عمر: إذا

اجتمع الناس عليه بايعت له إن شاء الله[1].

أين فى هذا، وكله بعد كلمة عثمان، الزعم بالحق الالهى؟ وأن كلمة عثمان وضعت الفكر السياسى الإسلامى كله على مفترق طرق بين أغلبية تأخذ برأى عثمان، وأقلية ترى أن الأمة مصدر السلطات؟

وتلك أمثلة ذكرتها من عهد بنى أمية، الذين حولوا الخلافة إلى ملك عضود. وكان هذا الزعم أولى بهم، وهم الذين أيدوا عثمان، وتسببوا له فى المآزق، وحرصوا على الملك بالحق وبالباطل.

ويزيد دعوى كاتب السقوط بطلانا أن أحزاب المسلمين جميعا لم يّدع منهم أحد هذه الدعوى:

١ ــ فالأنصار كانوا، أولا، يرون أنفسهم أحق بالخلافة، ولهم فى ذلك حججهم العقلية. ثم اتفقوا على رأى المهاجرين، إلا سعد بن عبادة الذى أبى البيعة لأبى

---

١ ــ الإمامة والسياسة جـ ٢

بكر ، ولم ينله لذلك أذى ، ولا قال قائل إنه خرج عن أمر الله . وظل مغاضبا أبا بكر إلى أن مات .

٢ ـــ والمهاجرون يرون الأمر فيهم . ولهم فى ذلك حججهم العقلية .

٣ ـــ والهاشميون يرونها فى بيت النبى ، ولهم فى ذلك حججهم العقلية . وظلوا يمثلون المعارضة لرأى الأغلبية التى تولت الحكم بقيادة الصديق ، ثم عمر ، ثم عثمان . ثم من بعدهم لبنى أمية .

ومن الطريف أن نذكر أن الناس انصرفوا عن بنى هاشم بالخلافة حتى لايجتمع لهم شرف النبوة والخلافة ، فتصبح وراثية على خلاف هدى السياسة الإسلامية ، وأوامرها العامة الموجهة للمسلمين .

٤ ـــ وعائشة ، كان لها هى الأخرى رأى وتوجيه ، لعله كان إلى آل الزبير .

٥ ـــ والخوارج رأيهم معروف مشهور فى الاختيار

الحر لمن يصلح لها من جميع المسلمين.

٦ ـــ ولما ظهر الحزب الأموى استطاع أن يحول الأمر إلى نفسه.

٧ ـــ ولما بويع للحسن بن على، بعد أبيه، تنازل طائعا راضيا لمعاوية.

أفكان الحسن يخلع رداء ألبسه الله إياه، وعارض اختيار الله؟

٨ ـــ وعارض الحسنَ بعضُ رجال حزبه البارزين.

أفكانوا يعارضون اختيار الله ؟

٩ ـــ والمرجئة كان رأيهم يسالم أغلب الآراء.

١٠ ـــ والشيعة وهم القائلون بالنص على الخلافة، لم يدّعوا فيها ماادعاه كاتب السقوط. وأقصى مافعلوه تأويل بعض أحاديث الرسول ﷺ؛ ليحملوها على الدلالة على خلافة على، لم يوافقهم على تأويلها جمهور الأمة. وكانوا يمثلون حزب المعارضة، بل أحد أحزابها للأغلبية الحاكمة

فى العصر الأموى والعباسى[1].

١١ ــ والمعتزلة، ولا يجحد الكاتب موقفهم، بل يقول: أقلية ترى الأمة مصدر السلطات وهو الرأى الذى تبناه المعتزلة فيما بعد.

هل تبينتم كذب هذه الدعوى؟ وجرأة (السقوطى) على إطلاق الأحكام والقضايا الكلية من غير سند، ولا توثيق.

ثم زعمه أن (تسميتهم بالمعتزلة دليل على موقف الدولة الاسلامية منهم، وموقفهم منها).

إن صبية الأزهر يعلمون أن تسميتهم بالمعتزلة جاءت من مخالفة (واصل بن عطاء) للحسن البصرى فى مسألة مرتكب الكبيرة، واعتزاله مجلس الحسن، فقال الحسن: اعتزلنا واصل) ومن هذه العبارة اشتق اسم المعتزلة.

---

١ ــ أستاذنا بدوى عبد اللطيف (مدير جامعة الأزهر بعد): الأحزاب السياسية فى فجر الإسلام ج ١ ط أولى سنة ١٩٤٨، د. مصطفى الرافعى: الإسلام نظام إسلامى - مرجع سابق

وإن (الصبية فى علم التاريخ) يعلمون أن الدولة العباسية، من عصر المأمون، والمعتصم، والواثق- كانت تحتضن المعتزلة، وتأخذ بآرائهم، لدرجة الرغبة فى الإكراه أحيانا. ولم يخفّ ذلك الميل إلا فى عهد المتوكل.

كانت الدولة العباسية فى عهودها هذه تحتضن المعتزلة وفكرهم، وهم كانوا يرون أنه لايشترط فى الإمامة الكبرى أمر النسب القرشىّ، و(ضرار بن عمرو الغطفانى) أحد زعماء المعتزلة له رأى فى هذا، فهو يقول: إذا اجتمع حبشىّ وقرشىّ، كلاهما قائم بالكتاب والسنة، فالواجب أن يقدّم الحبشى؛ لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريقة(١).

فكيف تتفق هذه الحقائق مع دعوى معارضتهم واعتزالهم...؟

أرأيتم كيف يلوى السقوطىّ أعناق الحقائق؟

---

١ ـ الفصل فى الملل والنحل لابن حزم- راجع أستاذنا عبد الفتاح السرنجاوى: الدولة العباسية ص ٣٣

أرأيتم إليه كيف يتعلق بأهداب خلافات اجتهادية. سياسية؛ ليعيب بها حكم الإسلام، على حين لم يدّع أصحابها، ولا أحد من العالِمين أنها خلاف حول شيء من قواعد الإسلام.

أرأيتم إلى تعلقه بالاجتهادات السياسية للراشدين، فى أسلوب اختيار الحاكم؛ ليتخذ من هذه الفضيلة (مأزقا) يتحدى به دعاة الاسلام، ويستولده (وليدا غير شرعى) يعيب به حكم الإسلام.

لقد كانت هذه الاجتهادات الراشدة.

وكانت اختلافات الحكام غير الراشدة، مع زحف الإسلام وانتشاره دليلا على قدرة الإسلام الذاتية. فلم يكن فكرة تعيش بأصحابها، وتموت بموتهم. بل كان حقا، ودينا، وفكرة.. تحيا بذاتها، ويحيا بها الناس، إن جارَ فيها، أو عنها أناس حيى بها آخرون.

وتلك معجزة من معجزات الإسلام.

إنه على رغم أن المسلم مطالب بأن يتمثل الإسلام فى

حياته، وأن تمثل حياته الإسلام إلا أن الإسلام ليس هو المسلمين، حتى الرسول فيما لم يوح إليه. فخطأ المسلم محمول عليه، لا على الإسلام.

والإسلام دين عقيدة ونظام. أما العقيدة فمردها إلى الإعلام، والعلم، والإقناع. هذا منهج الإسلام.

وأما النظام فينفذّ بأهله، بما لهم من بشرية، وما للبشرية من اجتهاد ويحتمل الخطأ والصواب، وبما لتغيّر المناسبات من تأثير ومتطلبات– كل ذلك، فى الإسلام، من غير كهانة ولا وصاية. وهذا سموّ بالإنسان، وتكريم له، وإقرار بحريته، وتقدير لعقله، وإنماء لمواهبه، وإرساء لمنهج التجربة والخطأ، الذى ابتدعته (السياسة الشرعية الإسلامية) والذى ثابت إليه البشرية بعد قرون.

أفنغفل عن هذه المبادىء والقيم، ونقوّمها بجانبها البشرى السلبى، ثم نحمل هذا الجانب على الإسلام؟!

الإسلام (عقيدة ونظام) على هذا النحو. ومن ثم

اتفق مع هذا التأسيس أن يبنى عليه حرية اختيار العقيدة، ثم يبنى على ذلك أيضا أنها لاتطبق على غير المسلم، وأن يترك للمسلم ضمانات التطبيق والالتزام.

فإذا ماقصّر المسلمون فعلى من يكون الوزر؟!

وإذ ما قصّر المسلمون فكيف يكون العلاج؟!

أيكون بإقتلاع القيم ؟

أيكون بالاكتفاء بترتيلها ؟

أيكون بعزلها عن تفاعلها ؟

إن القول بمثل ذلك، فى أحد احتمالاته، دليل على عدم الإيمان بها.

إن الرغبة فى نوع معين من الحقيقة هى التى توجه صاحبها، وتدفعه إلى تذليل الصعاب التى أمامه.

وإن الشك فى نوع معين من الحقيقة، والرغبة عنها هو، كذلك، الذى يعدم الرغبة فيها. ويميل بصاحبه عنها، ويدفعه إلى توهم العقبات، والإكثار من التداعيات، ويوجد لها، وله من العقبات مالا وجود له،

أمام الرغبة فيها .

وإن هذا لبيّن حتى فى أمور الحياة

إن الرغبة فى الحق تكشف لصاحبها الشبهات ، وتزيل عنه الغيوم .

إن فى مقتل عثمان ، والخروج على علىّ معجزة إسلامية ، جاء بها على خلاف أسبابها المنظورة فى بيئة الجزيرة حيث العصبية القبلية ، والحمية للحمى والحى ، ماكان يجرؤ خارج ، ولا دخيل من الكوفة ، أو مصر .. أن يمس الحمى ، أو أن يعتدى على مملوك للقبيل ، أو مستجير بها ، فضلا عن السادة الأشراف ، الذين اجتمع لهم من سؤدد النسب والمال ثم الإسلام مالا مزيد عليه لطالب المزيد .

وفى الإسلام تمكن العبيد ، وتمكن من لا رأى له ، ومن كان فى بلده وأهله لايملك أنفاسه – أن يتطاول على السادة .

وكان لذلك وجهان : أما أحدهما فيحمد للإسلام ، فى

تقرير المبدأ. وأما الآخر، فيذم به المطبّق المنفّذ.

فإذا كان التاريخ أخبرنا بالانحراف فعلى من انحرف وزره. ولنا عبرته، وله عمله، ولنا عملنا.

لانتخذ من ذلك حجة لطعن الإسلام (باسم السموّ به عن أخطاء الناس، وسياستهم) ولا نتخذه أحاديث تمزق المسلمين الأولين كل ممزق ﴿**تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ سورة البقرة: ١٣٤، ١٤١.

ورحم الله عمر بن عبد العزيز عندما سئل عن دم عثمان فقال: تلك دماء كفّ الله يدى عنها، فلا ألغ بلسانى فيها.

وإنما الجاهل بمنزلة الذباب، لايقع إلا على العَقْر (=الجرح) ولا يقع على الصحيح. والعاقل يزن الأمور جميعا، هذا وهذا!!.

ومن أجل هذا لايخوض الدعاة اليوم فى جروح هذا

الماضى، ليس عن قصد الجهل، بل عن التأدب بأدب الاسلام ﴿**تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم...**﴾

أنت مؤمن بالاسلام

وأنت مؤمن بشريعته

هذا كلامك.

فاقترب منا، لانقول: اقترب منا إلى نهاية الطريق، فنحن نحب الإنصاف لغيرنا كما نحبه لأنفسنا.

أنت مؤمن بالشريعة وسموها. ولكن تخشى عثرات التطبيق، فاقترب منا فى نصف الطريق، وتعال نلتقى على دراسة علمية، تصف المخاوف، وتضع الضمانات؛ لتجنب المخاوف، وضمان سلامة التنفيذ ﴿**إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين**﴾.

لقد بقى عندى فى ذلك – علم الله – الكثير والكثير، مما يحيط بالباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق. غير أنى أكتفى

بهذه الإشارات؛ تيسيرا على القارىء؛ خشية الكلال أو الملال. وإن كان ليس من الحق ونصره كلال أو ملال.

وإن العلم- بحرصه على الحقيقة- يصبح أخلاقا لاتطيق الصبر على الخطأ من غير أن يجرى التصحيح المطلوب عليه!!

* * *

(قبل السّقوط) بين التقليد والتجديد

شجـــرة الشـوك :

١ ــ كتب كاتب هندى بوذى يقول: النبى محمد قد غرس فى أرض البشرية شجرة الإسلام، وهى الشجرة التى لم تثمر غير الأشواك.

وصادرت الحكومة الهندية الكتاب.

٢ ــ وفى (سيراليون) فى غرب أفريقيا ينظمون خطة لإضلال المسلمين، كان منها الزعم بأن المسيح هو الذى أرسل محمدا رسولا عنه، ومن هذا المنطلق استطاعت المنظمات المعادية للإسلام أن تستوعب عدداً من مسلمى (سيراليون).

٣ ــ وفى كندا استطاع التنظيم المعادى للإسلام أن

يضمّن بعض الكتب المدرسية والجامعية فى مقاطعة (أونتاريو) مغالطات وتهجم على النبى محمد. وقد استنفذت الجالية الإسلامية هناك كل وسائلها، ومازالت الكتب تشتمل على أخطائها وتهجمها على الإسلام ونبيه.

٤ ــ وفى أسبانيا نشرت صحيفة (لاتيجو آرديا) التى تصدر فى (برشلونه) صورة خيالية للرسول ﷺ، وادعت أن هذه الصورة تمثل صفاته الخلقية والجسمية.

٥ ــ وفى (الكويت) عرض فى معرض الكتاب العربى، الذى أقيم هناك قبل إبريل سنة ١٩٨٤م كتاب بعنوان: الثلاثة آلاف سؤال وجواب. وعلى غلافه نشرت نجمة إسرائيل. وقد احتوى على العديد من المغالطات حول العقيدة الإسلامية، وحول الرسول ﷺ.

٦ ــ وكاتب تركى مسلم اسمه (ألها أرسيل) ألف كتابا باللغة التركية بعنوان: القومية العربية والأتراك.

تهجم فيه على الرسول وعلى الإسلام. وادعى فيه أن الأتراك قد تخلفوا عندما طبقوا الشريعة الإسلامية، وتقدموا عندما اتجهوا إلى الغرب[1].

٧ ـــ وفى أمريكا نشرت إحدى المجلات معلومات غير صحيحة عن الإسلام. وكتبت أمريكية مسلمة ترد على المجلة الأمريكية، ونشر ردها فى مجلة الهلال الشهرية، قبل يناير ١٩٨٤م التى تصدرها الجمعية الإسلامية لمقاطعة (أورنج) بولاية (كاليفورنيا). قالت فيه لمحرر تلك المجلة: إن الاعتماد على أسلوب حياة شخص مسلم، فى أى بلد، لوصْف الإسلام، وسلوك المسلمين فيه مغالطة واضحة؛ لأن سلوك مثل هذا الفرد، وإن كانت مخالفة لتعاليم دينه، لايمكن اعتماده قاعدة صحيحة لوصف دين معين، أو إصدار حكم عليه. ثم أخذت ترد على الافتراءات حول موضوع الزواج، والمرأة.. ومقارنة فى ردها بين شريعة الإسلام

١ ـــ الأستاذ محمود بيومى: مجلة رابطة العالم الإسلامى العدد: ٧ من السنة الثانية والعشرين

وبين ماعليه الغرب المسيحى من سلوك وتشريع.

واختتمت رسالتها بقولها: إن الإسلام نظام دينى واجتماعى وسياسى متكامل(١).

٨ ــ وفى أمريكا صدر سنة ١٩٧٨م كتاب: THE GOSPEL I SLAM وفيه الخطة العلميـة المدروسة لتنصير العالم الإسلامى. وهو مدلول عنوان الكتاب.

ويعلق على ذلك الأستاذ الدكتور حسان حتحوت بقوله: يشهد الزمن الحاضر صحوه إسلامية لاتنكر، وإقبالا على الإسلام، أو عودة إليه. لواء السبق فيها معقود للجيل الحاضر من شبان وفتيات، على الجيل الماضى من آباء وأمهات. فليست إذن تلقين جيل لجيل. ولكنها بعث حقيقى وأصيل فى هذا الجيل..

والطاهر أن ضمير الأمة، المتمثل فى شبابها قد ضاق

---

١ ــ مجلة رابطة العالم الإسلامى العدد الرابع من السنة الثانية والعشرين

ذرعا بما جربته من (أيديولوجيات) سابقة ولاحقة تختلف فيما بينها اختلافا شاسعا، ولكنها تتفق على استبعاد الإسلام، سكّان سفين، ومنهاج حياة، وكيف أفضت التجارب كلها إلى الهزيمة، والإفلاس، والهوان. **فكان «ردّ الفعل»** أن اتجهت إلى الإسلام، تلتمس فيه ذاتها وحياتها ونجاحها(١).

٩ ــ وفى (بلغاريا) حملة رسمية لحمل الأقلية المسلمة هناك على تغيير أسمائهم... وقصص المسلمين فى أفريقيا، وما يفعل بهم، والمسلمين فى الفلبين معروفة منشورة!.

١٠ ــ وفى مصر يغرس صاحب السقوط شجرة الشوك فى طريق الإسلام.

ولا جديد تحت الشمس.

فهذه صور من حاضر الحملة المنظمة على الإسلام.

حتى تحليل صاحب السقوط لعوامل نماء الحركة

---

١ ــ مجلة العربى ع ٢٨٨

الإسلامية، ومظاهر بعض الشباب فى اللحية والثياب..
أخذه من الدكتور حتحوت، ولكنه سار به فى الاتجاه
المضاد.

والذين فرحوا بمقعدهم خلاف الإسلام، يفرحون بما
كتب، ويكتب صاحب السقوط، ويعتبرونه -
بزعمهم - امتدادا لفكر الشيخ على عبد الرازق، رحمه
الله، فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وههنا قرين
يجب أن نتنبه عليه، ذلك:

- أن الشيخ على عبد الرازق أخذ فى إعداد كتابه
منذ سنة ١٩١٥ إذ كان الحلفاء يعملون على هدم تركيا
والخلافة الإسلامية، حتى من قبل الحرب العالمية الأولى.
وصدر كتاب الشيخ فى إبريل سنة ١٩٢٥.

وصدر كتاب د. فوده والحملة العالمية على الصحوة
الإسلامية على ماوَصَفْتُ.

- وكما كانت القضية الرئيسة فى كتاب الشيخ على
عبد الرازق هى قضية الخلافة، والإسلام والدولة،

وبوجه أعم: الإسلام والدنيا. كذلك كانت فى كتاب صاحب السقوط.

غير أن الشيخ حاول علاج فكرته من ناحية نظرية بَحْت. وصاحب السقوط عالجها من ناحية تطبيقيه محض.

واجتمع كلاهما - رغم اختلاف المنهج - على تزوير الحقائق، وتغيير الوقائع، وإنكار المعلوم بالضرورة.

واجتمع لكليهما الترحيب، وإطلاق النعوت: بالتجديد. والفكر الحر...

ففى ١٠/٤/١٩٨٥م عرضت جريدة الأهالى فى عددها ١٨٣ من السنة الثامنة ملخصا جامعا لكتاب قبل السقوط تحت عنوان: قبل السقوط. كتاب خطير للدكتور فرج فوده. وفى جريدة الأهالى العدد ١٨٦ من السنة الثامنة فى ١/٥/١٩٨٥م قال السيد/ السيد زهرة: وأهمية الكتاب الأول (قبل السقوط) أنه يقتحم منطقة من فكرنا ظلت مغلقة ومحرمة منذ سنوات

طويلة، هى منطقة الدعوة إلى العلمانية. هذا من جانب، ومن جانب ثان، أنه يطرح بقدر غير قليل من الجرأة، وبقدر كبير من الوضوح المبررات التى يقدمها الداعون إلى العلمانية اهـ.

وفى جريدة الأهالى عدد ١٩١ فى ٥/٦/١٩٨٥م حوار أجراه السيد/ حسام حافظ (وسط هذا العجب مع الكاتب الكبير الأستاذ محمد عوده) تحت عنوان: الدولة العلمانية هى العلاج لتمزقات الأمة العربية.

يقول الأستاذ محمد عوده: كيف نطبق **إسلامهم** فى دولة ٨٠٪ من أهلها أميون؟ بينما أول آية فى القرآن هى «اقرأ».

ويقول: أنا أعتقد أن الإسلام دين علمانى. حيث سئل الرسول فى غزوة أحد (هكذا): أهو الوحى أم الحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: بل هو الحرب والمكيدة. وغير خطة الحرب تبعا لذلك. وبهذا أقر العلمانية فى شئون الحرب والسياسة (هكذا)!

وفى عدد الأهالى ١٨٥ تحت عنوان أحذركم.. أحذركم.. أحذركم كتب الدكتور رفعت السعيد يقول: إلى العزيز الدكتور فرج فوده.. كتابك (قبل السقوط) هو أمتع، وأذكى، وأرق ماقرأت بالعربية منذ زمن طويل. أتمنى أن تواصل معركتك، ومعركتنا جميعا، ومعركة مصر كلها، بذات الشجاعة، وذات الأصالة، وذات الرقى.. ٢٤/٤/١٩٨٥م).

كما استقبل (قبل السقوط) بهذا كله استقبل كتاب الشيخ على عبد الرازق. بل من العجب أنه بعد مضى عقود أخذت تحييه بعد مماته صحف، ومجلات:

نشرت مجلة (الطليعة) فى عددها الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٩٧١ العدد الحادى عشر من تلك السنة بحثا بعنوان: الشيخ على عبد الرازق معركة فكرية. استغرق البحث صفحات من ٩٠ إلى ١١١ ثم نشر النص الكامل للكتاب فى آخر العدد تحت عنوان: وثائق: الإسلام وأصول الحكم- بحث فى الخلافة

والحكومة الإسلامية[1].

وهنا أمر يحتاج إلى تفسير، بل هو من الوضوح بحيث لايحتاج إلى تفسير؛ فكتاب على عبد الرازق لم يعد طبعه بعد طبعه فى سنة ١٩٢٥م، حتى المؤلف نفسه، وقد مات فى ٢٢/٩/٦٦م لم يفكر فى طبعه بعد ذلك التاريخ. فلماذا تعود مجلة الطليعة (بيروت ص.ب ١٨١٣) والتى نشرت كتاب ألف باء الشيوعية (أ.ب ش)- إلى إعادة نشره، ونفخ الروح فى مواته. مع أن كاتب جريدة المصور (أحمد بهاء الدين) زار الشيخ قبيل وفاته، وعرض عليه إعادة طبع كتابه فلم يبد موافقة[2].

بل إن الدكتور محمد رجب البيومى[3] قد أقام

---

١ ـــ د. محمد ضياء الدين الريس: الإسلام والخلافة فى العصر الحديث

٢ ـــ المرجع السابق ص ١٧

٣ ـــ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ص ١١٤ من سلسلة كتاب الهلال

الدليل على تراجع الشيخ عن رأيه، قال الأستاذ الدكتور: على أن الأستاذ على عبد الرازق، رحمه الله، قد أدرك أخيرا بعض ماتسرع فيه، فحاول الرجوع عنه، وأعلن ذلك فى مجلة (رسالة الإسلام) العدد الثالث من السنة الثالثة. وقد صدر فى رمضان سنة ١٣٨٠هـ- يوليو ١٩٥٩م إذ قال تعقيبا على مقال كتبه الدكتور أحمد أمين فى هذا المجلة، قال الأستاذ على عبد الرازق مانصه: قرأت بحثا قيما لحضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور أحمد أمين، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى، فقلت إن دواء ذلك أن نرجع إلى مانشرته قديما من أن رسالة الاسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل. وقد وقفت أمام نظرى كلمة: رسالة روحانية. ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قديمة لهذه الكلمة معى، فقد زعم الباحثون أننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ماطوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا. أما أنا فقد رددت عليهم أننى لم أقل ذلك

مطلقا لافى هذا الكتاب ولا فى غيره...

يقول الدكتور رجب البيومى: هذا تراجع صريح، لأن الأستاذ على عبد الرازق قال فى صـ ٦٩ من كتابه: (إن ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب، وولاية الحاكم ولاية مادية. تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية.

وللأستاذ أحمد بهاء الدين (وله ميول طليعية) كتاب اسمه «أيام لها تاريخ» كتب فيه فصلا عن الإسلام وأصول الحكم من صـ ١٥٣ إلى ١٧٣ يدور حول أراجيف كتاب الإسلام وأصول الحكم وكأنها حق لاشبهة فيه، ويصور الشيخ على عبد الرازق بطلا يتحدى كل القوى...

وكما تكلم صاحب السقوط عن (الكهانة) تكلم عنها الأستاذ بهاء الدين فى هذا الكتاب وقال: (ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا فى هذا مايزعزع سلطانهم، ويعطل منافعهم فى الاتجار بالدين.

وكما تكلم الأستاذ بهاء الدين عن اتهام العلماء، وأن كتاب على عبد الرازق (يكشف عن هذه العمائم الضخمة التى لاترتفع إلا لتستر وراءها الظلم والاستبداد)- كذلك تكل صاحب السقوط عن رغبة (رجال الدين)- بزعمه- فى التسلط على الحكم بطريق مباشر أو غير مباشر.

وكما قال صاحب السقوط باستبداد الخلفاء، قال بهاء الدين (وخلف عباءتها الواسعة تنكرت أنواع من المظالم والخطوب، وهى قد خرجت من (مكة) (هكذا) وتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة... يمتطيها الحاكم الذى يستبد بالمسلمين..

وكما زعم صاحب السقوط أن «دولة عظمى» وراء المد الإسلامى- زعم أحمد بهاء الدين فى كتابه (أيام لها تاريخ) أن الإنجليز كانوا من وراء فكرة إحياء الخلافة فى مصر!

لقد كان الأستاذ خالد محمد خالد أديبا شجاعا عندما

كتب كتابه: (من هنا نبدأ) سنة ٥٠م والذى طبعت منه روسيا مليونى نسخة وزعتها بالمجان على الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى.

وبالمنهج العلمى رد عليه فضيلة الشيخ محمد الغزالى بكتابه (من هنا نعلم) الصادر سنة ١٩٥٠م وكان فيه كالعهد به إلى اليوم: عالما أديبا.

ولكن شجاعة الأستاذ خالد محمد خالد بلغت غاية مدى الاعجاب عندما رجع عن فكرته فى كتابه (من هنا نبدأ) وكتب مقالا تحت عنوان: دين ودولة، وعبادة وخلافة فى جريدة الأخبار بالقاهرة فى ٢٣/٨/١٩٧٧م قال فيه: وإنى لأرجو أن يجيء كلامى هذا تصحيحا لرأى أبديته من قبل فى كتابى من هنا نبدأ.

وقد ضمن آراءه هذه كتابا أصدره بعنوان الدولة فى الاسلام سنة ١٩٨١[1].

---

١ ـ د. نادية محمد عياد.. مرجع سابق ص ٩ - ١١ هامش

وفى حديث أجراه معة الصحفى أحمد السيوفى فى جريدة الشعب نشر بعددها ٢٨٥ فى ٢١/٥/١٩٨٥م قال الأستاذ خالد محمد خالد:

فى رأيى أن د. فرج فوده قد واجه نفس المأزق الفكرى الذى واجهته منذ خمسة وثلاثين عاما حين أرتأيت يومئذ، وناديت بفصل الدين عن الدولة. وهذا المأزق يتمثل فى نقطتى ضعف تعرّض لهما تفكيرى فى ذلك العهد البعيد، كما أصيب بهما تفكيره اليوم:

النقطة الأولى: هى: جهلنا الفارق بين الحكومة الدينية والحكومة الإسلامية، ثم تأثرنا الشديد بما قرأناه عن الحكومة الدينية التى كانت تهيمن عليها الكنيسة...

أما نقطة الضعف الثانية فى المأزق الفكرى الذى واجهه فى كتابه، كما واجهته أنا سنة ٥٠م فهو أنه جعل بعض المواقف المشجوبة لبعض الذين حكموا تحت راية الإسلام- جعل هذه المواقف مصدر تفكيره.. وأعجب ماتورط فيه د. فرج فوده أنه جعل كل مثالب ومآسى

تطبيق الشريعة فى السودان مصدراً لتفكيره ولأحكامه، لاموضعا لتفكيره، كما ينبغى أن يكون...اهـ.

والآن بعد هذا العرض :

كم من توافق فى الغرض والغاية، بين مايكتبه أعداء الإسلام وبين مايكتبه صاحب السقوط؟

وكم من تشابه فى الأفكار، وتقليد فيها بين هذا وذاك؟

إنى لأرجو للرجل - مخلصا - أن يعود إلى الرشد، والإيمان بالحق كما عاد المرحوم الشيخ على عبد الرازق، وكما عاد الأستاذ خالد، أطال الله فى عمره.

ومن قبل قال عمر

مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

* * *

خاتمة ووصية :

أيها الأخ ،

إنى قد مخضت لك فى هذه الإشارات عن زبدة الحق، وألصمتك قفى الحكم فى لطائف الكلم .

فصنه عن المبتذلين والجاهلين، ومن لم يرزق الفطنة الوقادة، والدُّربة والعادة، وكان صغاه مع الغاغة، أو كان من ملاحدة هؤلاء المتفلسفة، ومن همجهم .

فإن وجدت من تثق بنقاءِ سريرته، واستقامة سيرته، وبتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس، وبنظرة إلى الحق بعين الرضا والصدق؛ فآته مايسألك منه، مدرَّجا، مجزّأ، مفرّقا؛ تستفرس مما تسلفه، لما يستقبله .

وعاهده بالله، وبأيمان لامخارج لها، ليجرى فيما تؤتيه مجراك، متأسيا بك، فإن أذعت هذا العلم وأضعته، فالله بينى وبينك، وكفى بالله وكيلا.

الرئيس ابن سينا

إن العلم– بحرصه على الحقيقة– يصبح أخلاقاً لاتطيق الصبر على الخطأ من غير أن يجرى التصحيح المطلوب عليه.

مالك بن نبى

* * *

اعتراف بالجميل، وشكر لصاحبه

لا يسعنى إلا أن أشكر للسيد الأستاذ أحمد عاطف إبراهيم رئيس مجلس إدارة بنك الدقهلية الوطنى للتنمية جميل صنعه، حين بادرنى بإهداء كتاب (قبل السقوط) لأرى فيه رأيى، وأحاول إبداء هذا الرأى.

ولولا هذه المبادرة الباكرة لتأخر علمى بالكتاب، ولصعب الوصول إليه.

كما أشكر لدار الوفاء بالمنصورة حرصها على طبع الكتاب، وإخراجه فى صورته هذه خدمة للعلم والحق والإسلام.

ولايفوتنى أن أشكر لابنتى الآنسة لميس جهدها معى فى الإملاء، واستخراج المراجع وقراءتها عَلىّ.

ثم شكرى لكل من عرف الحق، واستمسك به. ثم دعا إليه.

عبد المجيد حامد صبح

العالمية من كلية أصول الدين
العالمية مع إجازة التدريس من كلية اللغة العربية
دبلوم دراسات إسلامية عليا – وزارة التعليم العالى
م: ماجستير فى الدراسات الإسلامية والعربية

المنصورة فى **٢٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ**
١٦ يولية سنة ١٩٨٥ م

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤	٣	والذين	الذين
٦	٨	العقل	العاقل
٨	١٥	الخداع	الخداع
١٩	١٦	ليس غير	تكتب فى سطر ١٥
٢٤	٤	وبينها	وبينهما
٢٥	١٤	أثنان	اثنان
٢٧	١٤	خصمون	خصيمون
٣١	٦	أنج	انج
٣٢	١٥	لزمه	لزعمه
٣٣	٩	يكون	يكونوا
٣٤	١١	مطلب	مطلباً
٣٩	٩	إلى حديد	إلى لبس حديد
٤٣	١٤	بلارهم	بلادهم
٥٦	١١	حلمك وحلم مولاك	حلمك وحلمك مولاك
٦٣	١٠	الاسلام	الاستسلام
٧٤	١٥	كتابة	كتابه
٧٦	١٣	الجزيرة	الجريرة
٧٨	٢	والحجور	والجحود
٨٩	٩	الوشيحة	الوشيجة
٩١	٣	وكان	كان
٩٢	٧	بأخوق	بأخوة
٩٣	١٦	تجلب	تجلت
٩٧	٩	تميز	تمير
١١٨	١	عقلة	غفلة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٢٥	٩	المقصورين	المتصورين
١٣٢	٩	أربات	أرباب
١٦٠	١٢	نزولات	نزوات
٢٧٤	٩	لايقضى	لايقضي
٢٧٥	٩	وهل	وهو
٢٧٧	٥	إلا	لا
٣٣١	١٢	أحدهما	أحدها
٣٣٤	١١	ويسبح	ويسبح
٣٣٩	١٣	ردُّ من لهم	ردُّ لهم
٣٤٠	١	تردّ	تردّد
٣٤٥	٣	يعطاها	يعطيها
٣٥٦	٩	فسألها	فسألهما
٣٥٦	١٦	فما	مما
٣٥٩	١٢	حتى لم	حتى من لم
٣٧٦	٨	فلا تحملوتها	مالا تحملها
٣٨٣	١٤	بما	ما
٤٢٦	١٠	وابداع	ابداع
٤٣٣	٥	يتفيها	يتقيها
٤٦٢	٧	ويحتمل	يحتمل
٤٧٨	٧	هذا	هذه
٤٨٤	٣	ألصمتك	ألقمتك

ملحوظة : ص ٤٨ س ١٣ (الثانى مانصه) سقط النص وهو فى ص ١٦٠ — ١٦١ س : ١٤ — ١٦

سلسلة نحو عقلية اسلامية واعية :

١ ـــ جذور العلمانيــة   د. سـيد فـرج
٢ ـــ الدولة والسياسة فى فكر حسن البنا   جابر رزق
٣ ـــ تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه   عبدالمجيد صُبح

تحت الطبع فى هذه السلسلة :

١ ـــ العصريون معتزلة اليوم   يوسف كمـال
٢ ـــ مسـتقبل الحضــارة   يوسـف كمـال
٣ ـــ الدولة الإسلامية والحكومة الدينية   محمد على قطب
٤ ـــ نظام الإسلام السياســى   محمد على قطب
٥ ـــ الزواج الثانــى   عبدالحليم خفاجــى
٦ ـــ قوى الشــر المتحالفــة   فضيلــة الشـيخ
(الاستشراق ـــ التبشير ـــ الاستعمار) محمد محمد الدهان

٧ ـــ شبهات حول العصر العباسى الأول   د. مؤيّد فاضل ملّا
٨ ـــ كفُّوا أيديكم عن نسل المسلمين   عبد القادر أحمد

من مطبوعات دار الوفاء بالمنصورة

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـــ اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء	الشيخ محمد الخضرى
٢ ـــ أخبار أهل الرسوخ بمقدار المنسوخ من الحديث (لابن الجوزى)	تحقيق د. محمد الحفناوى
٣ ـــ الأربعون النووية وشرحها	الإمام النووى
٤ ـــ أصول العقيدة الإسلامية للإمام الطحاوى	عبدالمنعم صالح العلى العزى
٥ ـــ تهذيب مدارج السالكين (مجلد)	عبدالمنعم صالح العلى العزى
٦ ـــ العلم والإيمان	عبدالمجيد صُبح
٧ ـــ من فيض سورة الكوثر	عبدالمجيد صُبح
٨ ـــ الإيمان بالله (للأطفال)	د. أحمد متولى
٩ ـــ دقائق الأخبار فى رقائق الأخبار	مجموعة من العلماء
١٠ ـــ الحمد فى القرآن الكريم	د. محمد محمد خليفة
١١ ـــ الذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى	تحقيق د. أبو اليزيد العجمى
١٢ ـــ رسالة المؤتمر السادس	الإمام الشهيد حسن البنا
١٣ ـــ هل نحن قوم عليون	الإمام الشهيد حسن البنا
١٤ ـــ قضايا اسلامية " الجزء الأول "	د. محمد رجب البيومى
١٥ ـــ الرحيق المختوم	صفى الرحمن المباركفورى
١٦ ـــ مقدمات النبوة وإعداد الرسول	د. يحيى اسماعيل
١٧ ـــ المؤامرة على المرأة المسلمة	د. سيد فرج
١٨ ـــ منطلق شباب الإسلام	محمد أحمد الراشد

١٩ ـــ التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرها فى الفقــه الاسلامــى	د. محمــد الحفــناوى
٢٠ ـــ نشــيد الكــتائب	مجموعة أناشيد أبو مازن
٢١ ـــ المرشد الإسلامي فى الفقة الطبي	د. توفيق الواعي وآخرون
٢٢ ـــ الخروج من المأزق الاسلامى الراهن	عمــر التلمسـانى

سلســلة نحــو أدب اســلامى عالمــى

١ ـــ الفائز من يدرك دوره (مسرحية)	علاء المــزيّن
٢ ـــ همة فتاة (قصة)	د. محمد رجب البيومى
٣ ـــ محمد عوّاد الشاعر الشهيد (تراجم وسير)	جابر رزق
٤ ـــ فوق القمة (رواية)	عطية زهــرى

تحت الطبع فى هذه السلسلة :

١ ـــ الحلبة والمرآة(مجموعة قصصية)	محمد الحسناوى
٢ ـــ فى غيابة الجــب (ديوان شعر)	محمد الحسناوى
٣ ـــ عودة الغائب (ديوان شعر)	محمد الحسناوى

سلسلة أضواء على الاقتصاد الإسلامى :

الإقتصاد اسلامي بين الرأسمالية والشيوعية	محمد على قطب
الزكاة وترشيد التأمين المعاصر	يوسف كمال

سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ — **للدكتور جمال عبدالهادى**

١ ــ منهج كتابة التاريخ الإسلامى لماذا وكــيف
٢ ــ الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء
٣ ــ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام والبيت العتيق
٤ ــ ذرية ابراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى
٥ ــ استخلاف أبوبكر الصديق رضى الله عنه
٦ ــ شبه الجزيرة العربية
٧ ــ إفريقيا التى يراد لها أن تموت جوعاً

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٥/٥٣٤٧
الترقيم الدولى ٥ ــ ٢٧ ــ ١٢٤٠ ــ ٩٧٧



هذا الكتاب

انتشرت على الساحة فى الآونة الأخيرة ، دعاوى وأفكار دخيلة ، أطلقتها بعض الألسنة المستعجمة من أدعياء التغريب ودعاته ، لكى تنال من شريعة الله وأحكامه ، وكان الدكتور فرج فودة واحداً من هؤلاء فلم يكتف بمقالاته التى ينشرها من آن لآخر فى أبواق الدعاية المفتوحة له يبث فيها سمومه وأفكاره ، لكنه أخرج كتابا جمَّع فيه دواخل نفسه واعوجاجها ، سماه قبل السقوط .

فأعدَّ الأستاذ عبد المجيد صبح — أكرمه الله — هذا الكتاب « تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه » ففنَّد أفكاره ودعاويه فى أدب وعلم ... فنسأل الله أن يُعمَّ به الفائدة والنفع وعلى الله قصد السبيل .

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
المنصورة - أمام كلية الطب
ت : ٣٢٧٤٢٣ - ص.ب : ٢٣٠

٢٠٠ قرشا